جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية

MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

الدُّرُّ الفاخِر في شرح عقود الجواهر

الدكتور رضوان الحصري

الدكتور محمد عبدالله السيد

الدُّرُّ الفَاخِرُ

فِي شَرْحِ عُقُودِ الجَوَاهِرِ

وَمُرْشِدِ السَّامِعِ وَالمُتَكَلِّمِ إِلَى أَدَبِ العَالِمِ وَالمُتَعَلِّمِ

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية
MOHAMED BIN ZAYED UNIVERSITY FOR HUMANITIES

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَة

الطبعة الأولى
1444هـ - 2023م

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بكافة طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي أو المسموع أو استخدامه حاسوبياً بكافة أنواع الاستخدام وغير ذلك من الحقوق الفكرية والمادية إلا بإذن خطي من الناشر

www.mbzuh.ac.ae

mbzuh MBZ university for humanities mbzuh.ac.ae

الكتب العلميّة

الدُّرُّ الفَاخِرُ

في شَرحِ عُقُودِ الجَوَاهِرِ
وَمُرشِدِ السَّامِعِ وَالمتَكَلِّمِ إلى أَدَبِ العَالِمِ وَالمتُعَلِّمِ

تأليف

أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي

توفي بعد عام ٨٣٩ هـ

قدّم له وضبط نصّه

د. رضوان الحصري

د. محمّد عبد الله السيّد

تمهيد عام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ينخرط هذا الكتاب في سلك محور الموضوعات التي تعالج علوم الأنفس باعتبارها جزءاً من علوم الإسلام، وشرطا في فهمها، لا سيما ما يتعلق بالعلوم التربوية والتعليمية في تراث الفقهاء.

ويحاول أن يعالج ما يرتبط بتلك العلوم من قضايا كبرى ترتبط بالإنسان في حال كونه معلماً أو متعلماً، وهو كتاب جديد من كتب التربية وآداب الفقيه والمتفقه لم يسبق نشره من قبل؛ إنه كتاب الدر الفاخر في شرح عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي (بعد839هـ).

وهو عبارة عن شرح لمنظومة لامية بعنوان عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم لأبي المحاسن حسام الدين الرهاوي؛ جمع إليه الشارح ما ذكره ابن جماعة الكناني في كتابه تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، وما ذكره أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي في شرح الهداية في

فضل العلم وأهله، وما ذكره عبد الوهاب بن أبي الحسين التميمي الشهير بالقيسي في كتابه تحفة المريدين ورغبة السالكين؛ فجاء كتابا متضمنا لكثير من الأبعاد الإنسانية لعلوم التربية والتعليم، فحق له التعجيل بالنشر والإخراج، وذلك ما أردنا العمل عليه في إطار مشروعات البحث العلمي المتعلقة بالتراث التي أطلقتها جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية بأرض الخير والعطاء دولة الإمارات العربية المتحدة؛ وعلى الله قصد السبيل، وبه عز وجل التوفيق.

مقدمة

الحمد لله الكريم المنان، أمرنا بالبر والإحسان، وسكت عن أشياء رحمة بنا غير نسيان، ليكون لعباده بها الفُساحة في الدين وهناء الاطمئنان؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الإنسان، وعلى آله وأصحابه أولي العقلِ والعِرفان؛ أما بعد؛

فإن خليفة الله في الأرض هو الإنسان، جعله الخالق بعلمه مستخلفاً فيها وسخر له ما استطاع أن ينفذ إليه من جميع الأكوان، وأعطاه كل شيء وهداه إليه، وجعل الرسالة فيه وحفظه لتبليغها مِن خلفه وبين يديه،وهو الأمر العظيم الذي خُلق له، بشهادة من سيصير عدواً له، ففي الحديث : **«إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينا، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار - قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلِقْتَ لأمر عظيم»**[1].

---

(1) رواه أبو يعلى الموصلي في المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم : 6580؛ قال الهيثمي : وفيه إسماعيل بن رافع قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد (791/8).

ومن هذه الزاوية كان الإيمان بالإنسان سابقاً على غيره من قضايا الدين والفكر، لأن الفرد الإنساني لن يؤمن بالكون ورب الكون إن لم يؤمن بنوعه، إذ إننا لا ندرك الكون وربه إلا بعقل النوع الإنساني، فإذا أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا عقله، فلا يبقى لنا ما ندرك به الكون ورب الكون[1].

والحق كذلك أن الإنسان لا يمكن دراسته دون الأرض التي يفلحها أو البحار التي يجوبها، لأنَّ للبيئة الأثرَ الأعظم في تشكيل أعماله وغذائه وملبسه وأخلاقه ونظرته الدينية وأنظمته الاجتماعية[2]؛ فكانت الحاجةُ ماسّةً إلى وجوب الالتفات إلى علم الإنسان الذي هو علم قائم بذاته بالضرورة؛ لأن غايته أن يستقصي أنواع نشاطنا، ويسبر عالمنا الداخلي ويدرسه في أجزائه بأجمعها على أنه كلٌّ ووحدة[3].

إن الحديث عن الإنسان والعلوم المرتبطة به اليوم أصبح من آكد ما ينبغي شيوعه في عالم طغى فيه ما لا يجوز أن يكون من صراع وتشاحن

---

(1) عبد المنعم محمد خلاف، أومن بالإنسان، مكتبة النهضة المصرية، 5491م؛ (ص : ن / س).

(2) لويس إسكندر، الإنسان والبيئة، مطبوعات مكتبة النهضة المصرية، 6391م؛ (ص8).

(3) د. كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مع نظرات ودروس بقلم بولس سويد المخلصي، لبنان، 0491م؛ (ص83)

تجاوز في أغلبه حد المنطق والحكمة والعقل والإنسانية إلى الطغيان والسفاهة والجنون والبهيمية.

لقد كان محمد ﷺ إنساناً قبل أن يكون نبياً، فلمّا أظلته نبوته لم تبرحه إنسانيته، بل لقد زكت وتوهجت، وبقي إنساناً في جوانب حياته، تتصل أرومته بأرض البشر، وتسمو روحه إلى الملأ الأعلى؛ وكذلك كان دين الإسلام إنسانيا، من فهم أسراره من الناس لم يَرِبْه منه شيء؛ فإنه واجدٌ فيه وشائج النفس البشرية في أطوارها ومنازعها، وواجد فيه مع ذلك سمواً بهذه النفس البشرية إلى الأوج الرفيع[1].

وهو ما أردنا القولَ فيه مُتناولينَ تحقيق المختار من هذا السِّفر المعرفي البهيجِ الذي تضمَّن العديد من الأحوال النفسية للعالم والمتعلم، والذي هو بعنوان :

الدُّرُّ الفَاخِرُ فِي شَرْحِ عُقُودِ الجَوَاهِرِ وَمُرْشِدِ السَّامِعِ وَالمُتَكَلِّمِ إِلَى أَدَبِ العَالِمِ وَالمُتَعَلِّمِ

لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي المتوفى رحمه الله بعد سنة 838هـ، مقترحين أن تكون أداة ذلك التناول بحسب الهيئة التالية :

أولا : في التعريف بيوسف بن إبراهيم الوانوغي

ثانيا : في التعريف بكتاب الدر الفاخر

(1) - محمود تيمور، النبي الإنسان ومقالات أخر، المطبعة النموذجية، (ص41-51).

ثالثا : في الأحوال النفسية للعالم والمتعلم من خلال الكتاب

رابعا : في بيان منهج ضبط النص

خامسا : النص المرقوم

وفي الختام لابد من التنبيه إلى أنَّ بعض الأفكار الواردة في الكتاب ربما كانت في زمان المؤلف مناسبة حسب ما يلابسها من الأوضاع؛ لكنها ليست كذلك في زماننا، إذ لكل زمان أحواله وأحكامه؛ فلا يجوز تنزيلها أو تعديتها، بل يجب إبقاؤها على ما كانت عليه في أوانها شأن الأفعال الجامدة التي لا تنصرف.

وبرحمة الله سبحانه وتعالى الاستغاثة، وإليه المفزع والإنابة.

أولاً: في التعريف بيوسف بن إبراهيم الوانوغي

لم يرد للمؤلِف ذِكْر في كتب التاريخ والتراجم وما يتصل بها بعد الذي تيسر من التحري والتفتيش إلا في كتاب السخاوي الذي لمع ضوؤه فيه، وكان قبساً ومصدراً للمعاصرين من المتأخرين في ترجمته وجمع أوضاعه.

قال رحمه الله: يُوسُف بن إِبْرَهِيمُ الوانوغي المغربي الْحَنَفِيّ؛ قدم دمشق فَكَانَ بواباً فِي بعض طواحينها، والفضلاء يَأْخُذُونَ عَنهُ فنون الْعلم، بل شرح شَوَاهِد الزّجاج وانْتهى من تصنيفه فِي سنة أَربع وَعشْرين؛ وَمِمَّنْ قَرَأَ عَلَيْهِ الشّرف ابن عِيد فِي التصوف وَغَيره[1].

ولما كان كتاب السخاوي هو المصدرَ الوحيد في ترجمة الوانوغي على اختصارها، كان لابد من الإشارة إلى نكت وفوائد من شأنها الإيضاح والشرح والتفصيل.

---

(1) محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع؛ دار مكتبة الحياة - بيروت، (10/293).

فمن ذلك أن نسبة الوانوغي قد تكون دليلاً على أنَّ المقصود بنسبة المغربي أنه تونسي، لا النسبة إلى المغرب الأقصى، على عادة المشارقة الذين يُعَدّ المصريون منهم في إطلاق اسم المغرب على ما وراء مصر من جهة الغرب، فيشمل ذلك المغرب الأدنى والأوسط والأقصى.

ويدل على ذلك أيضا أن المذهب الحنفي كان سائداً بتونس إلى جانب المذهب المالكي بخلاف المغرب الأقصى الذي لم يختلط فيه المذهب المالكي في الأغلب الأعم بغيره من المذاهب الفقهية الأربعة الباقية.

كما يستأنس لذلك أيضا بأن هذه النسبة أعني الوانوغي قد أطلقت أيضا على غير المؤلف من العلماء التونسيين، مثل أبي عبد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمَان بن عمر التّونسِيّ الوانوغي نزيل الْحَرَمَيْنِ؛ ولد سنة تسع وَخمسين وَسَبْعمائة بتونس وَنَشَأ بهَا، وَمَات بِمَكَّة المشرفة فِي سحَر يَوْم الْجُمُعَة التَّاسِع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرَة وَثَمَانمِائَة[1].

ومن ذلك أنَّ العالِم إذا نبغ وأخذ عنه الآخذون لا يضره مع عِلمه وإفادته لغيره أن لا يكون مرتسماً في التراتيب الإدارية والمناصب العلمية التي يتقلدها العلماء عادة، مثل القضاء والإمامة والخطابة والتوثيق والشورى والتدريس الرسمي.

(1) جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة (1/31).

فما عاب الوانوغيَّ وهو الغريب عن بلده كونُه على تفننه حارساً لبعض الطواحين في دمشق، وربما يكون ذلك باختياره وإرادته طمعاً في السلامة واشتغالاً بالحقائق، وقطعاً لحبل النفس عن ركوب العلائق.

ويؤيد ذلك ميل المؤلف إلى التصوف الذي أخذه عنه كما سبق في ترجمة السخاوي الشرف ابن عيد، وهو مُوسَى بن أَحْمد الشّرف أَبُو البركات بن الشهَاب العجلوني الأَصْل الدِّمَشْقِي الْحَنَفِيّ وَيعرف بِابْن عِيد، ولد بعد الثَّلَاثِينَ وَثَمَانمِائَة تَقْرِيبًا بِدِمَشْق، وَنَشَأ بهَا فحفظ الْقُرْآن وكتباً، وَأخذ الْفِقْه وأصوله عَن قُضَاة البلد مثل الشَّمْس الصَّفَدِي ويوسف الرُّومِي، وَدرس الْمنطق على الشَّمْس الكريمي حِين قدم عَلَيْهِم دمشق بل أنزلهُ عِنْده، وَأفْتى وناب فِي الْقَضَاء، ثم ولاه الْأَشْرَف قايتباي حِين اجتيازه بِالشَّام قضاءها الْأَكْبَر مسئولا فِيهِ بعد الْعَلَاء بن قَاضِي عجلون وحمدت سيرته وصمم فِي كثير من القضايا مَعَ استمراره على مُلَازمَة الِاشْتِغَال والإشغال؛ توفي يَوْم الْأَحَد سَابِع عشر الْمحرم سنة 886هـ[1].

لم تُحفظ سنة وفاة الوانوغي لتصوفه وانقطاعه، لكنه ترك من الكتب المصنفة ما يحفظ له مكانته في العلم والدين، ومنها مما ذكره الذاكرون سوى

(1) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع؛ (10/179- 180).

ما سبق في مفردة الترجمة[1] :

- غاية التحرير الجامع وكفاية النحرير المانع المختصر من فصول البدائع لشمس الدين الفناري[2].
- كشف الشوارد والموانع وضبط غرر الفوائد واللوامع في شرح غاية التحرير الجامع[3].
- كِفَايَة الناسك فِي علم الْمَنَاسِك[4].
- الدر الفاخر في شرح عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلّم إلى أدب

---

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون (2/1502)؛ البغدادي، هدية العارفين (2/559).

(2) سجلت دراسته وتحقيقه لنيل الدكتوراة في كلية الشريعة بالرياض، ش

(3) منه نسخة في سفرين الرابع والخامس، الخامس وهو الأخير في شستربيتي، بإيرلندا، رقم الحفظ: 2/3317، والرابع في مكتبة ليدن بهولندا، وضعت نماذج لهما مرفقة بهذا البحث.

(4) أوله: "الحمد لله الذي خلق الخلق، ودعاهم إلى دار السلام"؛ اختصر فيه كتاب الحج من شرح الهداية المسمى بغاية النهاية للشيخ السروجي؛ ونقل غالب ما فيه من الحكايات من شرح الأسماء الحسنى لعبد السلام، وروض الرياحين، والروض الفائق؛ ويشتمل على مقدمة، وعشرة أبواب، المقدمة في بيان الحج، وأركانه، وواجباته، وسننه، والباب الأول في الإحرام، والمواقيت؛ والثاني في القران؛ والثالث في التمتع؛ والرابع في الإفراد؛ والخامس في العمرة؛ والسادس في الجنايات؛ والسابع في الإحصار؛ والثامن في الفوات؛ والتاسع في الحج عن الغير، والعاشر في اللواحق؛ وفرغ منه في رمضان سنة 825هـ. كشف الظنون (2/1502).

العالم والمتعلم.

وبالجملة فقد حُلِّي المؤلف في نسخة من كتابه الدر الفاخر بالشيخ الإمام العالم العلامة فريد دهره، ووحيد عصره، جامع أشتات الفضائل، وعين أعيان السادة الأفاضل، لسان الأدب، وحجة العرب، جمال الدين أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي الحنفي، عامله الله بلطفه الخفي، وأورده من عفوه أهنى الموارد، وبلغه مما يرجوه أسنى المقاصد، وغفر له ولوالديه ولأحبائه ولجميع المسلمين، آمين، آمين، آمين.

ثانياً: في التعريف بكتاب الدر الفاخر

كتاب الدر الفاخر في شرح عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم عبارةٌ كمَا يَسْتَوشِيه عُنوانُه عن شرح لمنظومة لامية بعنوان عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم لأبي المحاسن حسام الدين الرُّهَاوي(1).

جمع إليه الشارح ما ذكره ابن جماعة الكناني في كتابه تذكرة السامع

(1) - من شيوخ بدر الدين العيني الحنفي ذكره فقال : " ثَبت بالتواتر عَن جمَاعَة من طلبة الْعلم الثِّقَات أنهم كَانُوا مَعَ الشَّيْخ الإِمَام الْعَلامَة حسام الدّين الرهاوي مُصَنف الْبَحْر وَغَيره فِي وَلِيمَة بِمَدِينَة عينتاب وَكَانَت فِي لَيْلَة مظْلمَة شاتِيَة فَلَمَّا تفرقُوا أَرَادَ جمَاعَة أَن ينوروا على الشَّيْخ إِلَى بَاب دَاره لشدَّة الظلمَة فَمَا رَضِي بذلك فَرَجعُوا وَتَبعهُ جمَاعَة من بعد فَقَالُوا وهم يحلفُونَ أَنهم شاهدوا نورين عظيمين مثل الفوانيس أحدهمَا عَن يَمين الشَّيْخ وَالْآخر عَن يسَاره فَلم يَزَالا مَعَه إِلَى أَن وصل إِلَى بَاب دَاره فَلَمَّا فتح الْبَاب وَدخل الشَّيْخ ارْتَفع النوران وَلَقَد أخبروا عَنهُ بكرامات أُخْرَى غير ذَلِك وَهُوَ أحد مشايخي الَّذين أخذت عَنْهُم الْعلم وانتفعت بهم". بدر الدين العيني، عمدة القاري (4/242).

والمتكلم في أدب العالم والمتعلم[1]، وما ذكره أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي في شرح الهداية[2] في فضل العلم وأهله، وما ذكره عبد الوهاب بن أبي الحسين التميمي الشهير بالقيسي في كتابه : تحفة المريدين ورغبة السالكين[3]؛ وفيه بالإضافة إلى ذلك زيادات للمؤلف مفيدة، ونكت سديدة، وإشارات عديدة.

وكذلك مقدمة الكتاب أَوْشَت موضوعَه، ونص ما جاء في أولها:

بسم الله الرحمن الرحيم، رب يسر وتمم بالخير يا كريم

الحمد لله الذي خلق الخلق ودعاهم إلى دار السلام، وهدى أهل السعادة منهم بمقتضى مشيئته للإيمان والإسلام، فأوضح بالحجج البالغة محجة الجنة، وأسس مباني الدين على الكتاب والسنة؛ والصلاة والسلام على خير البرية محمد صاحب المواهب السنية المبعوث بالآيات الساطعة المؤيد من عند الله بالمعجزات القاطعة، وعلى آله الأطهار وخلفائه من الأختان والأصهار صلاة تخص المؤمنين وتعم المهاجرين والأنصار.

---

(1) - طبع عدة مرات.

(2) - الغاية في شرح الهداية لقاضي القضاة أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي (ت710هـ)، طبع حديثا في 15 مجلدا عن دار أسفار لنشر نفيس الكتب والرسائل، الكويت.

(3) - لم أقف عليه ولا على ذكر مؤلفه.

أما بعد فإن أهم ما يبادر به اللبيب شرخ شبابه ويُدْئِبُ نفسه في تحصيله واكتسابه حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة، وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة؛ أهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء لعلمهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف[1].

وقيدُ فراغ المؤلفِ مِن الكتاب حَفِظَتْه نسخةُ أيا صوفيا التي جاء في آخرها: تم كتاب الآداب بعونه، وله المرجع والمآب، وكان الفراغ من كتابته عشية الجمعة لسبع ليال بقين من شعبان المكرم أحد شهور سنة سبعة وعشرين وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم على يد جامعه العبيد الفقير إلى الله الغني يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي الحنفي غفر الله له ولوالديه ولمن نظر فيه ودعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين آمين، يا رب العالمين.

وأما نسخ الكتاب فقد تأدى إلينا في ست منها، وربما تكون أكثر من ذلك بالبحث والتفتيش؛ الأولى في مكتبة برلين بألمانيا، رقم: 103، والثانية في المكتبه الوطنية بباريس، رقم: 2/644، والثالثة في الجمعية الأسيوية بالهند، رقم: 4071، والرابعة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم: 3/97،

(1) - الدر الفاخر، (2/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم: 4071).

والخامسة في مكتبة برنستون، رقم: 930؛ والسادسة في مكتبة أيا صوفيا باسطنبول رقم : 4071.

ولا حاجة إلى التطويل بذكر الأوصاف المعتاد حَشْرُهَا في هذه المناسبة لكل نسخة، إلا أن في كل واحدة منها فوائدَ ونكتاً وأشعاراً زادها النساخ استملاحا لها، فمن ذلك ما وُجد في أول نسخة باريس من هذه الأبيات التي أثبتها الناسخ لبعضهم :

شتان بيني وبين الناس كلهم
إلا الذي حاله حالي من الناس

أبيت أنفي الكرى بالعلم مجتهداً
في ساعة لا يرى في النوم من باس

فقهوتي الحبر والمزمار في قلمي
والعلم فاكهتي والكتب جلاسي

ثالثاً: في الأحوال النفسية للعالم والمتعلم من خلال الكتاب

تضمن هذا المصنفُ نصوصا فاردة من حر كلام المؤلف فيما يعتري النفسَ الإنسانيةَ من نوازعِ الخير أو أوازمِ ضده، وهو ما سعى إلى بيانه باعتباره شيخاً في التربية أخذ عنه الآخذون كما سبق عند السخاوي، ولذلك سَمَت همتُه إلى شرح إشارات وتنبيهات تتصل في عمقها بالإنسان روحاً وجسداً.

فمن ذلك قوله رحمه الله: "والأدب تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار أديباً، ولا يتكامل الأدب في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخَلق، فالخَلْق في صورة الإنسان، والخُلُق معناه؛ وقال بعضهم: الخُلق لا سبيل إلى تغييره كالخَلق... والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخَلق...وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد، وجعله أهلا لاكتساب الأدب ومكارم الأخلاق، فإذا زكت النفس تدبرت بالعقل، واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذبت الأخلاق، فالأدب استخراج

ما في الهيئة والخَلق إلى الفعل، وهذا يكون لمن رُكبت السجية الصالحة فيه، والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها، فهذا الأدب منبعه السجايا الصالحة والمنح الإلهية"(1).

وقال رحمه الله مبيناً واجبات العلماء بحسب تفننهم: "فما اضطراب الطبائع إلا لأضرب من الجهل، فقلوب العلماء وعت لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد انفتحت مسام بواطنهم وسمعت آذان قلوبهم، وأعانهم على ذلك زهدهم في الدنيا، فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علماً بالكتاب والسنة، واستنبطوا منهما الأحكام وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص، وحمى الله تعالى بهم الدين، وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ومذهب العرب في اللغة وغرائب النحو والتصريف والمعاني والبيان ومحاسن البديع وأصول القصص واختلاف وجوه القراءات، وصنفوا في ذلك الكتب، فاتسع بطريقهم علوم القرآن على الأمة، وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان؛ وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامي الرجال، وحكموا بالجرح والتعديل ليتبين الصحيح من السقيم، ويتميز المعوج من المستقيم، فتحفظ بطريقهم طرق الرواية والإسناد حفظا للسنة، وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع

---

(1) - الدر الفاخر، (3/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم: 4071).

في المسائل ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص، وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه، إلى شيء من علم أصول الدين، وكان من علمهم علم الفرائض، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة؛ فتمهدت الشريعة وتأيدت، واستقام الدين الحنيفي، وتفرع وتأصل الهدي النبوي المصطفوي، فأنبتت أراضي قلوب العلماء الكلأ والعشب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم"[1].

إنه حديث من المؤلف عن مفتاح دار السعادة الذي هو العلم حسب ما ينتمي إليه من الفنون، وذلك وحده لا يكفي حتى يُضم إليه الظفرُ بمنشور الوَلاية التي يتحقق بها أهل الإرادة الناهين الأنفسَ عن الهوى، ومن درر نصوصه في هذا الباب قوله رحمه الله : "وقيل : النفس لطيفة مودعة في القالب منها الأخلاق والصفات المذمومة، كما أن الروح لطيفة مودعة منها الأخلاق والصفات المحمودة، كما أن العين محل الرؤية، والسمع محل الأذن، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق؛ هكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف المحمودة، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين : أحدهما الطيش والثاني الشره، وطيشها من جهلها، وشرهها من حرصها، وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان

(1) - الدر الفاخر، (11/بنسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

أملس مَصُوبٍ[1]، لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها، وشبهت في حرصها بالفراش الذي يلقي نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه، فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر والصبر جوهر العقل والطيش صفة النفس وهواها؛ فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر دواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل وهو رعاية طرفي الإفراط والتفريط، ثم بذلك تقوى إنسانيته ومعناه[2].

ومع هذا كله لا يجوز هضم النفس بمنعها حقها الذي أعطي لها، إذ إن لصاحب الحق مقالاً ولجاً، ومن نصائح الكتاب في هذا الباب قول مؤلفه : وأن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الردية، ويعمره بالأخلاق المرضية...ودوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادات والاشتغال قراءةً وإقراءً ومطالعةً وفكراً وتعليقاً وحفظاً وتصنيفاً وبحثاً ولا يضيع شيئا من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة لملل أو أداء زوجه أو زائر أو تحصيل قوت وغيره مما يحتاج إليه أو لألم أو غيره مما يتعذر معه الاشتغال[3].

(1) - صاب يصوب إذا انحدر، لسان العرب، مادة : صوب.

(2) - الدر الفاخر، (48/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

(3) - الدر الفاخر، (122/ب- نسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

وبعد هذا القول الذي رمنا به التمهيدَ والفرش؛ نخلص مذاكرين إلى فحوى الخطاب في هذا المطلب الذي نرجو أن يكون مبيّنا غير مطالبين فيه بعيب أو أداء أرش، وهو منكسر على هذا العنوان : الأبعاد الإنسانية في واجبات العالم والمتعلم.

قال المؤلف : وأما شفقة العالِم على تلامذته ومساواته لهم فكما روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه عن شريك بن عبد الله أن الإمام كان كثير التفكر دقيق النظر لطيف الاستخراج في العلم والعمل والبحث والصبر مع المتعلم إذا كان فقيراً أغناه وأجرى عليه رزقاً وعلى عياله وإذا تعلم قال له : وصلت إلى الغنى الأكبر بعلم الحلال والحرام،وكان يبرهم من عنده، وكان يبعث إلى كل واحد منهم على قدر منزلته؛ وأن يرغب الطلبة في العلم وطلبه في أكثر الأوقات بذكر ما أعد الله للعلماء من منازل الكرامات وأنهم ورثة الأنبياء، وعلى منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء ونحو ذلك مما ورد في فضل العلم والعلماء من الآيات والأخبار والآثار والأشعار ويرغبه مع ذلك بتدرج على ما يعين على تحصيله من الاقتصار على الميسور وقدر الكفاية من الدنيا والقناعة بذلك عن شغل القلب بالتعلق بها وغلبة الفكر وتفريق الهم بسببها، فإن انصراف القلب عن تعلق الأطماع بالدنيا والإكثار منها والتأسف على فائتها أجمع لقلبه وأروح لسره وأشرف لنفسه وأعلى لمكانته وأقل لحساده وأجدر لحفظ العلم وازدياده، ولذلك قل من نال من العلم نصيباً وافراً إلا من كان في مبادئ تحصيله على ما ذكرنا من الفقر والقناعة

والإعراض عن طلب الدنيا وغرضها الفاني[1].

وقال أيضا : وينبغي أن يعتني بمصالح الطالب ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الشفقة والإحسان إليه والصبر على جفائه ربما وقع منه نقص لا يكاد يخلو الإنسان عنه وسوء أدب في بعض الأحيان ويبسط عذره بحسب الإمكان ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف لا بتعنيف قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه، فإن عرف ذلك لذكائه بالإشارة فلا حاجة إلى صريح العبارة، وإن لم يفهم ذلك إلا بصريحها أتى به وراعى التدرج في التلطف، ويؤدبه بالآداب الشرعية، ويحرضه على الأخلاق المرضية، ويوصيه بالأمور العرفية على الأوضاع الشرعية...وأن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهيمه لا سيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه وجودة ذهنه ويحرضه على ضبط الفوائد وحفظ النوادر والفرائد ولا يذخر عنه من أنواع العلوم ما يسأله عنه وهو أهل له لأن ذلك ربما يوحش الصدر وينفر القلب ويورث الوحشة، وكذلك لا يلقي إليه ما لم يتأهل له لأن ذلك يبدد ذهنه[2]، ويفرق فهمه فإن سأله الطالب شيئا من ذلك لم يجبه ويعرفه أن ذلك يضره، ولا ينفعه إن منعه إياه منه شفقة عليه ولطفاً به لا بخلاً عليه، ثم يرغبه عند ذلك

---

(1) - الدر الفاخر، (127/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

(2) - الدر الفاخر، (136/ب- نسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

في الاجتهاد والتحصيل ليتأهل لذلك وغيره...وأن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار لا يحتمله ذهنه أو بسط لا يضبطه حفظه ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره ويبدأ بتصوير المسائل ويوضحها بالأمثلة وذكر الدلائل ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها ويذكر الأدلة والمآخذ لمحتملها، ويبين له معاني أسرار حكمها وعللها وما يتعلق بتلك المسألة من فرع وأصل، ومن وهم فيها في حكم وتخريج ونقل بعبارة حسنة الأداء بعيدة عن تنقيص أحد من العلماء ويقصد ببيان ذلك الوهم طريق النصيحة وتعريف النقول الصحيحة ويذكر ما يشابه تلك المسألة ويناسبها وما يفارقها ويقاربها ويبين مأخذ الحكمين والفرق بين المسألتين ولا يمتنع من ذكر لفظة يستحي من ذكرها عادة إذا احتيج إليها ولن يتم التوضيح إلا بذكرها[1].

وقال كذلك : وأن يراقب أحوال الطلبة في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطنا وظاهرا، فمن صدر منه من ذلك ما لا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه أو ما يؤدي إلى فساد حال أو ترك اشتغال أو إساءة أدب في حق الشيخ أو غيره أو كثرة كلام بغير توجيه ولا فائدة أو حرص على كثرة الكلام أو معاشرة من لا تليق عشرته أو غير ذلك- عرض الشيخ بالنهي عن ذلك

(1) – الدر الفاخر، (137/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

بحضور من صدر منه غير معرض به ولا معين له، فإن لم ينته نهاه عن ذلك سراً ويكفي بالإشارة ممن يكتفى بها، فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهراً ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره ويتأدب به كل سامع فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع ولا سيما إذا خاف على بعض رفقائه وأصحابه من الطلبة موافقته وكذلك يتعاهد ما يعامل به بعضهم بعضا من إفشاء السلام وحسن التخاطب في الكلام والتحابب والتعاون على البر والتقوى وعلى ما هم بصدده، وبالجملة فكما يعلمهم مصالح دينهم لمعاملة الله تعالى يعلمهم مصالح دنياهم لمعاملة الناس ليكمل لهم فضيلة الحالتين، وأن يسعى في مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما يتيسر عليه من جاه أو مال عند قدرته على ذلك وسلامة دينه وعدم ضرورته... ولا سيما إذا كان ذلك إعانة على طلب العلم الذي هو من أفضل القربات، وإذا غاب بعض الطلبة أو ملازمي الحلقة زائداً على العادة سأل عنه وعن أحواله وعن من يتعلق به، فإن لم يخبر بشيء أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل فإن كان مريضاً[1] ، وإن كان في غم خفض عليه وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به وسأل عنهم وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه وإن لم يكن شيء من ذلك تودد إليه ودعا له...وكذلك ينبغي أن يترحب بالطلبة إذا لقيهم وعند إقبالهم عليه، ويكرمهم إذا جلسوا إليه، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلق

(1) – الدر الفاخر، (138/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم : 4071).

بهم بعد رد سلامهم ويعاملهم بطلاقة الوجه وظهور البشر وحسن المودة وإعلام المحبة وإظهار الشفقة لأن ذلك أشرح لصدره وأطلق لوجهه وأبسط لسؤاله ويزيد في ذلك لمن يرجى[1] فلاحه ويظهر صلاحه.

وأما آداب المتعلم في نفسه فهي أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه...وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ولا يزيد في نومه اليوم والليلة على ثمان ساعات وهو ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل وإن لم يحتمل فلا بأس أن يريح نفسه بقدر ما تجد فيه راحتها، ولا بأس أيضاً أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كل شيء من ذلك أو ضعف بتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع عليه ولا بأس بمعاناة المشي ورياضة البدن به، فقد قيل: إنه ينعش الحرارة ويذيب فضول الأخلاط وينشط البدن ولا بأس أيضا بالوطر الحلال إذا احتاج إليه فقد قال الأطباء بأنه يخفف الفضول وينشط ويصفي الذهن إذا كان عند الحاجة باعتدال...وبالجملة فلا بأس أن يريح نفسه إذا خاف مللاً وكان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن النزه في بعض أيام السنة ويتمازحون فيما لا ضرر عليهم في دين ولا عرض[2].

---

(1) - الدر الفاخر، (138/ب- نسخة أيا صوفيا، رقم: 4071).

(2) - الدر الفاخر، (164/أ- نسخة أيا صوفيا، رقم: 4071).

رابعاً: في بيان منهج ضبط النص

حرصنا في عملنا على ضبط النص أن يكون كِتَاباً مَرْقُوماً وهو كما قال ابن منظور ما قَدْ بُيِّنتْ حُرُوفُهُ بِعَلَامَاتِهَا مِنَ التَّنْقِيطِ[1].

ولابد هاهنا من التنبيه على أن مصطلح تحقيق المخطوط لا يعني بالضرورة في نظرنا وجوب شَكْلِه أو ترقيمه أو التعليق عليه بعزو آياته وتخريج أحاديثه[2] وتوثيق نقوله والتعريف بأعلامه كما اشتهر عند المتأخرين تبعا للمستعربين.

وإنما يعني بالدرجة الأولى إحياءَه بضبط نصه ومقابلته بأصله، وما عدا ذلك فهو داخل في خدمته لا في تحقيقه، وليس بفرض عينيٍّ ولا كفائي، وإنما هو محض تطوع لا غير.

ودليلنا على ذلك ما نقله التنبكتي عن بعض المغربيين من القول: القراءة

---

(1) - ابن منظور؛ لسان العرب، مادة: رقم؛ (ج12/248).

(2) ورد في الكتاب أحاديث موضوعة ومنكرة غير يسيرة؛ لكن عادة ما يتساهل العلماء لا سيما من لم يكن منهم محدثا في إيرادها من باب الاستئناس.

تصحيح المتن، وتبيين ما أشكل، وتتميمُ ما نقص، وما زاد عليه فضرره على المتعلم أكثر من نفعه[1].

وهو ما ارتضيناه منهجاً في هذا الكتاب، لسببين :

أولاً : سهولة الوصول إلى المعلومات بنقرة واحدة في زمن الذكاء الاصطناعي المعاصر على خلاف ما كان عليه الواقع قبل ذلك من صعوبة الظفر بتلك المعلومات؛ فكان لزاما تسهيلها بالتعليقات والحواشي. ثانياً : حتى لا نُظْلِمَ الكتابَ بتكثير الحواشي كما هي عبارة مؤلفه الذي قال فيه: "ولا ينبغي تكثير الحواشي لئلا يُظْلِمَ الكتابُ أَو تَضِيعَ مَواضعُها على الطالب"؛ وذلك هو المقصود اليومَ بعبارة تضخيم الكتب أو نفخها.

وفي نهاية هذا التقديم الذي هو على نُجْزِ التمامِ يسرنا أن نشكر الساهرين على مجال البحث العلمي في رحاب هذه الجامعة المنيفة التي تشرف باسم سيدي صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان رئيس الدولة حفظه الله وأطال عمره، سائلين المولى عز وجل أن يشملنا بعفوه وكرمه وجوده وإحسانه، وأن يحشرنا مع أهله وخاصته الذين هم عياله وأحب الناس إليه أنفعهم لعياله، والحمد لله رب العالمين.

د. رضوان الحصري		د. محمد عبد الله السيد

(1) - التبكتي؛ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (ص89).

نماذج النسخ

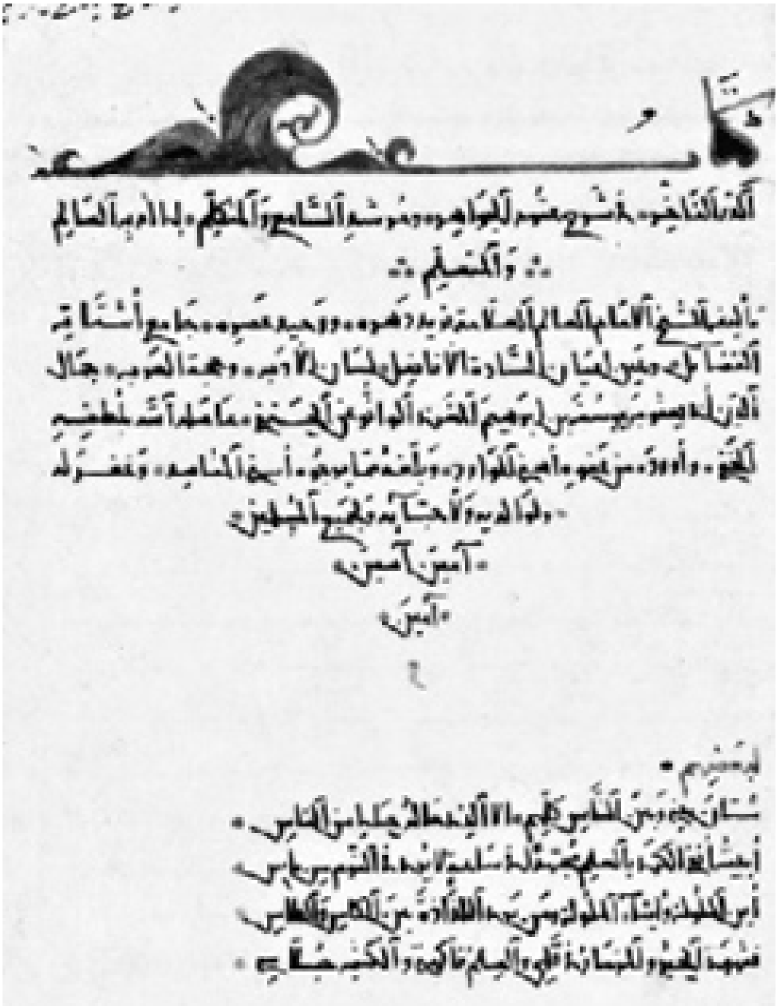

الدر الفاخر نسخة المكتبة الوطنية بباريس ورمزها (ب)

٤٠٧١

كتاب

الدر الفاخر في شرح عقود الجواهر

الدر الفاخر نسخة مكتبة أيا صوفيا – إستانبول ورمزها (ص)

كشف الشوارد نسخة تشستربيتي بإيرلندا

كشف الشوارد نسخة ليدن بهولندا

النص المرقوم

النص المرقوم

بسم الله الرحمن الرحيم رَبِّ يَسِّر وَتَمِّم بخير[1] يا كريم

الحمدُ لله الذي خلقَ الخلقَ وَدَعاهم إلى دارِ السلام، وَهَدَى أهلَ السعادةِ مِنهم بمقْتَضَى مَشِيئَتِه للإيمانِ والإسلامِ، فأوضحَ بالحُجج البالغةِ مَحَجَّة الجنة، وَأَسَّسَ مَبَانِيَ الدِّين على الكتابِ والسُّنة.

والصلاةُ والسّلام على خيرِ البريَّة، محمدٍ صاحبِ المواهبِ السَّنيةِ، المبعوثِ بالآياتِ الساطعةِ، المؤَيَّدِ مِن عِند الله بالمعجزاتِ القَاطعةِ، وعلَى آلِه الأطهارِ، وَخُلفائِه مِن الأَخْتانِ والأَصْهارِ، صلاةً تخصُّ المؤمنين، وتعمُّ المهاجرين والأنصار.

أما بعد؛ فإنَّ أهم مَا يبادرُ به اللبيبُ شَرْخَ شَبابه، ويُدْئِبُ نَفسَه في تحصيله واكتسابه، حسنُ الأدب الذي شهد الشرعُ والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكرِ أهلِه.

---

(1) في (ص) : بالخير.

وإنَّ أحقَّ الناس بهذه الخصلة الجميلة، وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة، أهلُ العلم الذين حَلُّوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وِراثة الأنبياء، لِعلمهم بمكارمِ أخلاق النبي ﷺ وآدابِه، وحسنِ سيرةِ الأئمةِ الأطهارِ مِن أهل بيتِه وأصحابِه، وبما كانَ عَليه أئمةُ عُلماء السلف، وَاقتدى بهديهم فيه مشايخُ الخلف.

قال ابنُ سيرين: كانوا يتعلمون الأدب كما يتعلمون العلم.

وقال الحسن: إنْ كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنينَ ثم السنين.

[وقال سفيان بن عيينة : إن رسول الله ﷺ هو الميزانُ الأكبر، وعليه تعرض الأشياء، على خلقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل] (1) .

وقالَ حبيبُ بنُ الشهيد لابنه: يا بُني، اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلَّم منهم، وخذ من أدبهم؛ فإن ذلك أحب إليَّ من كثير من الحديث.

وقال بعضهم لابنه: يا بُني، لأَن تَتعلّم باباً من الأدب أحبّ إليَّ من أن تتعلم سبعين باباً من العلم.

وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منَّا إلى كثير من الحديث.

---

(1) سقط من (ص).

وقال الثوري: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وقيل للشافعي رحمه الله تعالى : كيف شهوتك للأدب؟ فقال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه، فَتَوَدُّ أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به، قيل: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليسَ لهَا غيرُه.

قال العبد الفقير إلى الله الغني يوسف بنُ إبراهيم المغربي الوانوغي الحنفي عامله الله بلطفه الخفي : ولما بلغتْ رتبةُ الأدب إلى هذه المزية، وكانت مدارك مُفَصَّلاته خفية؛ دعاني ما رأيت مِن احتياج الخاصة والعامة إليه، وَعُسرِ تَكْرار توقيفِ الطلبة عليه؛ إما لحياءٍ فيمنعهم الحضورَ، أو لجفاء فيورثهم النفورَ؛ أن أَشْرَحَ[1] عقودَ الجواهر ودرر المفاخر، مِن مؤلفات الشيخ الإمامِ العلامة الحبر الهمامِ الفهامة جامع الأصول والفروع وناظمِ درر المعقول والمشروع أسوةِ المحققين قدوةِ المدققين الشهيدِ الشيخ حسامِ الدين الرهاوي ناظمِ البحار في الخلافياتِ تَغَمَّده الله تعالى بغفرانه، وأسكنه غرفَ جِنانه.

وَهُو معَ صِغَر حَجْمه وَوَجَازة نظمه لم يسبق له مثالٌ، ولم ينسج كتاب على ذلك المنوال، وقد طابق اسمه مسماه، ووافق لفظه فحواه؛ شرحاً يدقق حقائقه، ويحقق دقائقه، ويذلل من اللفظ صعابه، ويكشف عن وجه المعاني نقابه، ويفتح معضله، ويسد خلله، ويحرر قواعده، ويقرر معاقده؛

(1) في (ص) : إلى شرح.

ساعياً في بسط موجزه، وحل مُلْغَزه، متعرضاً لتقييد مرسله، وتفصيل مجمله.

وَقَد جمعت إليه ما ذكره الإمامُ العلامة أقضى القضاة والحكام حجة الله تعالى على الأنام بدرُ الدين لسان المتكلمين زينُ المدرسين أبو عبد الله محمد بنُ الشيخ الصالح برهانِ الدين أبي إسحاقَ إبراهيمَ بنِ سعد الله بنِ جماعة الكناني الشافعي تَغَمده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جنته في كتابِه المسَمَّى بتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم.

وما ذكره الشيخ الإمام والحبر الهمام أقضى القضاة وجمالُ الحكام أبو العباس أحمدُ بن مولانا برهان الدين أبي إسحاقَ إبراهيمَ بنِ عبد الغني الحنفي الشهيرُ بالسروجي رحمه الله تعالى في شرحه للهدايةِ في فضل العلم وأهلِه.

وَما ذَكَره الشيخ الإمام العالم العامل قطبُ الأولياء والعارفين عبدُ الوهاب بنُ أبي الحسين التميمي الشهيرُ بالقَيسي رحمه الله تعالى وَرحم سَلَفه في كتابه المسمى بتحفة المريدين ورغبة السالكين.

وَسَمَّيْتُه بالدر الفاخر في شرح عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم.

والمرجوُّ ممن كانَ الإنصافُ سَجِيَّته، والعدولُ عَن الاعتسافِ طَوِيَّته أَن يُشْرِكَنا في صالح دعائه، لا سيما في الأماكنِ المشَرَّفة، والأوقاتِ المعظَّمَةِ؛

واللهُ تعالى يجمعنا بكرمه في دوائر الحَضْرات القدسية، والمواطنِ الروحانية الأُنْسية، ويعصمُنا من الزلل والخلل في القول والعمل؛ إنه خيرُ مدعو وأكرم مُجيبٍ.

ويشتملُ علَى مقدمةٍ وأربعةِ أبوابٍ؛ أما المقدمةُ ففي فضلِ العلم وأهلِه، والبابُ الأول في آدابِ العالم في نفسِه ودرسِه ومعَ طَلَبتِه، والبابُ الثاني في أدبِ المتعلمِ في نَفْسه ومعَ شيخِه ورُفْقَتِه، والبابُ الثالثُ في آدابِ مُصاحبة الكُتب ومَا يتعلقُ بها، والبابُ الرابع في آدابِ سُكنى المدارسِ وَمَا يَتعلق بها.

أَمَّا المقدَّمة بفتحِ الدال وكسرها، اسمُ مفعول واسم فاعلٍ، بملاحظةِ أَمْرين مُختلفين، إنْ لاحظتَ أَن المقدمةَ تَقَدمت مَقصودَنا كَسَرْتَ الدالَ لأَنها فاعِلة، أَو نحن نُقَدِّمها لنبنيَ عَليها مقصودَنا فَتَحْتَ الدالَ لأنها اسم مفعول.

قالَ صاحبُ الصحاح وغيره : مُقدمة الجيش مكسورة الدال، وهي أول الجيش؛ ولم يذكر فيها خِلافا، فَكأَنها غَلَبَ عَليها اسمُ الفاعلِ مِن جِهة أَنها تَقَدَّمُ الجيشَ، والجيشُ يَتْبَعُها وهيَ تُشَجعه وَتَسْتَتْبِعه؛ [وهذَا البحثُ من نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي رحمه الله تعالى] (1).

(1) سقط من (ص).

قال المصنفُ رحمه الله تعالى:

ألا فابدأنْ باسم الإله مُحَمِّداً
وسَبْحل لتنزيه وأخلص مهللا

وما كل ذي بال من الأمر إن خلت
من البدء بالتحميد إلا تعطلا

وصل على خير الشفيع محمد
نبياً رسولا هاشمياً مبجلا

وأصحابه زهراً كأزهار أزهرت
ونَوْرٍ كأنوارٍ تُنَوِّرُ للفَلا

أقولُ: اعلم أنّ للفضلاء في ابتداء التأليف سبعَ طرائق[1] يستعملونها، ثلاثةٌ منها واجبة الاستعمال؛ البسملة أولاً لقوله ﷺ: «**كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أجذم**»، والأجذم بالذال المعجم هو الأقطع المحوق البركة.

والتعقيب بالحمد للتأسي بالكتاب العزيز، حيث ذكر الحمد بعد البسملة، ولقوله ﷺ: «**كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بالحمد لله فهو أبتر**»؛ وقيل: قدمت البسملة على الحمدلة بالإجماع، لأنه [وقع التعارض بين

(1) في (ص): طرق.

الخبرين ظاهراً، لأن البداية بأحدهما يخل بالابتداء بالآخر لكنه][1].

إذا وقع التعارض بين الآيتين يصار إلى السنة، وإذا وقع بين السنتين يصار إلى أقوال الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو إلى القياس على اختلاف العلماء في ذلك، [وهنا قد ورد في كل من البسملة والحمدلة خبر عن النبي ﷺ بالبداءة بكل منهما، فما بقي لنا إلا الإجماع على تقديم البسملة على الحمدلة][2].

ويمكن أن يُستدل على تقديمها بالقياس أيضاً، تأسياً بكتاب الله تعالى مع أن بعض العلماء قال: إن البسملة أنزلت للفصل بين السور، ولهذا يجب على التالي أن يصلها بأول السورة من غير عكس، أي لا يجوز له أن يصلها بآخر السورة ويبتدئ أولَ السورة من غير بسملة لهذه الدقيقة [فافهم؛ فحاول المصنف أن يجعل الحمد قيداً للابتداء حالاً عنه، كما وقعت البسملة كذلك، إلا أنه ترك العاطف لئلا يشعر بالتبعية فيخل بالتسوية؛ وقد أمكن الجمع بينهما بأن يقدم أحدهما على الآخر فيقع الابتداء حقيقة وبالآخر بالإضافة إلى ما سواه] [3].

(1) سقط من (ب).

(2) سقط من (ص).

(3) سقط من (ب).

والتثليث بالصلاة على النبي ﷺ للتنبيه على أن المؤلف من المؤلفات الإسلامية، وأربعة منها جائزة الاستعمال: ذكر الباعث للتأليف، وتسمية الكتاب، ومدح الفن الذي فيه التأليف، وذكر كيفية وقوع المؤلف إجمالاً. إذا تحقق هذا فقد نقل عن السلف الصالح معنى الحمد بأربع معان: الثناء على الله تعالى بكل أفعاله فهي جميلة، والشكر على نعمائه فهي جزيلة، والرضا بأقضيته فهي حميدة، والمدح بكل صفاته فهي جليلة، ثم الحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم، وهو يقتضي سابقة الإنعام، لأنه ثناء بعد الإحسان.

وقيل: هو الثناء على الجميل الاختياري قصداً مطلقاً، أي سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل؛ فالثناء هو القدر المشترك بين المفهومات الثلاثة، وهو الإتيان بما يُشعر بتعظيم المنعم مطلقاً، يتناول أصناف الشكر والمدح، فقيد الإطلاق يخرج الشكر، لأنه يقع على النعمة خاصة؛ ويعم اللسان والقلب والجوارح قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجبا

وقيد الاختياري لتحقيق ماهية الحمد، فإنه لا يستعمل في غير الاختياري، والمدح هو الثناء مطلقاً سواء كان عن اختيار أو غيره؛ يقال: حمدته على صباحة وجهه ورشاقة قدّه، وإنما اختار الحمد دون الشكر لقوله

ﷺ : «**الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده**»؛ وهذا لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على منعمها أدل على تعظيمه وأظهر من الاعتقاد لخفاء عمل القلب.

[وقيل : الحمد على الخلقة والشكر على النعمة، وقيل : الحمد الثناء بعموم النعمة، والشكر ثناء بخصوصها، وقيل : الحمد يكون ابتداء ومكافأة، والشكر لا يكون إلا مكافأة] (1).

واعلم أن المستحق لجميع المحامد التي تتعلق بالأعيان والأعراض هو الله وحده، ومن مدح غيره فهو الممدوح في الحقيقة، فإن من مدح نقشاً عجيباً أو دائرة عجيبة فهو مادح للنقاش كما قال بعضهم وأجاد:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة
لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

وَاعلم أَنّ الخلاف المذكور في معنى الحمد إنما نشأ من الخلاف الواقع في معنى اللام، لأنها للاستغراق عند الجمهور، وللجنس والماهية عند صاحب الكشاف؛ [وهو مبني على أن الاستغراق إلى اللام أو إلى المقام،

---

(1) سقط من (ص).

فعند الجمهور إلى اللام وعنده إلى المقام، لأنه نقل عنه][1] أنّ اللام إنما كان للجنس، لأنه لا يفيد شيئاً سوى التعريف.

والاسم لا يدل إلا على نفس الماهية المعبر عنها بالحقيقة، فإذن لا يكون ثمة استغراق مستفاد من اللام، [وما قيل : إن هذه المسألة بناؤها على مسألة خلق الأفعال فيه نظر، لأن هذه المسألة بناؤها على الخلاف الواقع في معنى اللام كما ذكرنا.

وقيل : اللام للعهد وهو إشارة إلى الحمد الأزلي، وذلك أن الله تعالى لما علم عجز خلقه عن القيام بحق حمده حمد نفسه في أزله حمدا يليق بجلاله وصفاته كماله، فينبغي لمن يقول : الحمد لله أن يقصد ذلك الحمد المعهود، وهو الذي يوافي نعمه ويكافئ مزيده][2].

ثم لام التعريف لا تخلو من خمسة أضرب، إما لتعريف الجنس بأن يراد به ما في عقول الناس وأفهامهم من معرفة الجنس كقولك: الرجل خير من المرأة، وأهلك الناسَ الدينارُ والدرهم؛ وإما لتعريف الواحد من الجنس إذا كان ثمة معهود، كقولك: ضربت الرجل وأنت تريد واحداً بعينه مخصوصاً بعهد لنا به؛ وإما لتعريف الإشارة إلى خاص، كقولك: مررت بهذا الرجل ويا أيها الإنسان؛ وإما للزيادة كقولهم: الخمسة نصف عشرة، والذي والتي؛

(1) سقط من (ص).

(2) تأخرت هذه الفقرة في (ص).

وإما بمعنى الذي كما في الضارب والمضروب.

والصلاة لغةً الدعاء، وإذا استعملت في الله تعالى يراد بها الرحمة، وفي الملائكة الاستغفار، وفي المؤمنين الدعاء، ومن الله تعالى على النبي ﷺ يراد بها التشريف ورفع الدرجة، ومن الملائكة الاستغفار له والثناء عليه، ومن المؤمنين الدعاء له بنزول الرحمة وزيادة رفع الدرجة.

ولما ضمن الدعاء معنى النزول ذكرت كلمة[1] "على" التي للاستعلاء، كما في قوله: رحمة الله تعالى عليه، أي رحمة الله تعالى نازلة عليه، ومحمد عطف بيان، ومعناه البليغ في كونه محموداً، إذ التفضيل للمبالغة غالباً.

وقوله: مبجلاً؛ التبجيل التعظيم، وبكسر الجيم اسم فاعل، وبفتح الجيم مفعول له أو مصدر، وانتصب مبجلاً على الحال أي حال كونك مبجلاً معظماً للنبي ﷺ، فإن المراد من قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ مقارنة ذكر الله تعالى بذكره ﷺ، وفي هذا يقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه يمدحه ﷺ:

ألم تر أن الله أرسل عبده
ببرهانه والله أعلى وأمجد

(1) في (ص): أتي بكلمة على.

أغـر عليـه للنبـوة خاتـم
مـن الله مشـهود يلـوح ويشـهد

وضـم الإله اسـم النـبي مع اسـمه
إذ قـال في الخمـس المؤذن أشـهد

وشـق له مـن اسـمه ليجلـه
فـذو العـرش محمـود وذا محمـد

أورده الواحدي في الوسيط في تفسير ألم نشرح، والزهر جمع الأزهر وهو النير، ورجل أزهر أي أبيض مشرق الوجه، وأراد به كونهم هادين؛ قال النبي ﷺ: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**».

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب في مائية العلم والفقه وفضله

اعلم أن مائية الشيء عبارة عن ماهيته وحقيقته، واعلم أن العلماء رحمهم الله تعالى اختلفوا في العلم، هل هو مما يجب أن يدخل تحت الحد والرسم أم لا؟

فقال إمام الحرمين والغزالي رحمهما الله تعالى: لا يحد لعسره، أي سبب عدم تحديده بحدٍ حقيقي بعبارة محررة جامعة للذاتيات عسرُ الاطلاع على جميع ذاتياته المشتركة والمختصة من جنسه وفصله القريبين، فإن الاطلاع على الذاتيات والتمييز بينها وبين العرضيات مما يعسر جداً، فإن

أكثر الأشياء المدركة بالحس كرائحة المسك وطعم العسل التي هي أظهرها يعسر تحديدها.

فالإدراك الذي هو أمر معقول خفي عن الحواس أولى، وهذا لأن العلم قد يطلق على الإبصار والإحساس والتخييل والظن، وبحسب كل معنى له حد مغاير للآخر، ويطلق على علم الله تعالى على وجه أشرف مغاير لما سواه بالذات والحقيقة؛ فإنه معنى واحد يحيط بجميع التفاصيل، ولا تفاصيل ولا تعدد في ذاته.

ويطلق على إدراك العقل، وهو المقصود بالبيان، وربما يعسر تحديده على الوجه الحقيقي؛ فإنا لو أردنا تحديد رائحة المسك وطعم العسل، لم نقدر عليه؛ فإذا عجزنا عن حد المدركات فعن تحديد الإدراكات أولى، بل يعرف العلم بتقسيم ومثال.

وطريق تقسيمه تعريفه بالتقسيم : أن يؤخذ الأمر العام الموجود فيه وفيما يلتبس به من الظن والشك والجهل واعتقاد المقلد، ويقسم إلى هذه الأشياء، ويذكر تمييزها عن العلم حتى يحصل في العقل معنى العلم؛ فيقال : ربط القلب على شيء إما أن يكون مطابقاً لما في نفس الأمر أم لا، فإن لم يكن مطابقاً فهو الجهل، فلا يكون علماً لكونه غير مطابق؛ وإن كان مطابقاً فإما مع الجزم أم لا، فإن لم يكن مع الجزم فهو إما الشك أو الظن، وهما ليسا بعلم؛ لأن العلم فيه جزم.

وإن كان مع الجزم فإما لتقليد غيره أم لا، فإن كان لتقليد لا يكون علماً، لأنه قابل للتغير بتشكيل، والعلم لا يقبل ذلك، فإذا جرد النظر إليه يتميز العلم عن هذه الأشياء، ويحصل عنده ماهيته، فإن أمكن التعبير عنه بعبارة عرفه بها، وإلا لا يضره ذلك، فإن العقل يستقل بدَرْكِ المعقولات.

واعترض صاحب الأحكام وصاحب البديع على تعريف العلم بالقسمة، لأن القسمة إن لم تفد تمييزاً لم تفد تعريفاً، وإن أفادت تمييز العلم عما سواه فيكون رسماً له، وهو المراد بالحد؛ إذ لا معنى للتحديد بالرسم إلا هذا، فلا يصح نفي الحد عنه وجعله عسراً.

وأجيب عن هذا الاعتراض أنه غير وارد عليهما، لأنهما صرَّحا بنفي الحد الحقيقي المشتمل على جميع الذاتيات المشتركة والمختصة، لا مطلق الحد؛ ولا يلزم من نفي الحد المخصوص نفي مطلق الحد؛ فعلى تقدير أن تفيد القسمة تمييز العلم عما سواه يكون حداً رسمياً له، وهما ما نفيا عنه الحد على هذا الوجه؛ وإنما نفيا عنه الحد الحقيقي.

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى : إن سبب عدم تحديد العلم كونه ضرورياً، والضروري لا يمكن تحديده؛ واستدل على كونه ضرورياً بوجهين :

أحدهما : أنه لو لم يكن ضرورياً لكان كسبياً لعدم الواسطة بينهما، واللازم منتف؛ لأنه لو كان كسبياً يكون مكتسباً من غيره لامتناع

اكتساب الشيء من نفسه، فيتوقف تصوره على تصور ذلك الغير الذي يعرّفه، ولكن تصور ذلك الغير موقوف على تصور العلم، لأن تصور ما عدا العلم الذي هو حصول صورة العلم به موقوف على مطلق العلم، فلوقوف تصور العلم على غيره يلزم الدور، ويلزم منه توقف الشيء على نفسه، وهو محال، فثبت أنه لو كان كسبياً لكان تصوره محالاً، ولكنه يتصور لنا فلا يكون تصوره محالاً؛ فإذا لم يكن كسبياً تعين كونه ضرورياً، وهو المطلوب.

وثانيهما : أن التصديق بعلمنا بوجودنا، وهو قولنا : أنا عالم بوجودي ضروري، فيكون تصوراته التي يتوقف عليها هذا التصديق ضرورية، لأن ما يتوقف عليه الضروري أولى أن يكون ضرورياً، والعلم أحد تصوراته، فيكون ضرورياً؛ وهو المطلوب.

وَأورد أن الدور إنما يلزم أن لو كانت جهة توقف العلم على الغير، وجهة توقف الغير على العلم متحدين، وليس كذلك لأن جهة توقف غير العلم على العلم من جهة الإدراك، أي من جهة أن العلم إدراك لذلك الغير متعلق به، ولا شك أن الإدراك المتعلق به يتوقف تحقيقه على تعلق مطلق الإدراك الذي هو العلم بذلك الغير، وتوقف العلم على الغير من حيث إنه صفة مميزة للعلم عن غيره، وإذا اختلفت جهة التوقف لا يلزم الدور.

والثاني ليس بسديد، لعدم توقف التصديق البديهي على بداهة تصوراته، لأن التصديق البديهي ما يكون تصور طرفيه كافياً في الجزم والقطع بالنسبة بينهما، وحاصله أن حصول العلم فينا على الرأي الصحيح بخلق الله تعالى إياه فينا لا باختيارنا، فلا يلزم من حصوله سبق تصوره.

وقيل في حد العلم عند من قال بأنه مما يمكن تحديده واختاره صاحب الأحكام وابن الحاجب وصاحب البديع، وهو أنه صفة توجب لمن اتصف بها تمييزاً لا يحتمل النقيض في الخارج، فقوله: توجب تمييزاً؛ فصل عن مثل الحياة وبعض الصفات المشروطة بها، كالقدرة والإرادة والكراهة والشجاعة والحزن والفرح.

واحترز بقوله: لا يحتمل النقيض؛ عن الظن والشك والوهم، فإنها تحتمل النقيض، وزاد قوله: في الخارج؛ لئلا ينقض الحد بالعلم العادي، فإن العلم لا بد له من موجب، إما الحس أو غريزة العقل أو البرهان أو العادة؛ فالعلم إذا كان موجبه العادة يسمى عادياً؛ وزاد في التعريف من أخرج إدراك الحواس عن العلم.

قوله: في المعاني الكلية؛ فقال: العلم صفة توجب لمن اتصف بها في المعاني الكلية تمييزا لا يحتمل النقيض في الخارج؛ ليخرج إدراك الحواس عنه، لأن المعنى الكلي لا يطلق على المحسوسات، وهو غير موافق لمذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى؛ فإنه ذهب إلى أن إدراك الحواس داخل تحت العلم، لأن بدخولها يصير التعريف شاملاً للعلوم التي يستفيدها

العقل من الحس الظاهر والباطن، كالحكم بأن الشمس مضيئةٌ، والنار محرقةٌ؛ وكالحكم بأن لنا فرحاً وحزناً وجوعاً.

وبتقدير إيراد النقض بدون قوله : في الخارج؛ أن يقال : الحد غير منعكس لوجود المحدود في العلم العادي، كحكمنا بأن الجبل حجر، فإنه علم عادي مع عدم صدق الحد عليه، لأن متعلقه يحتمل النقيض؛ فإن الجبل يحتمل أن ينقلب ذهباً بقدرة الله تعالى، فإنه ممكن في ذاته؛ وبزيادة هذا القيد اندفع ذلك النقض؛ لأن العلم العادي وإن احتمل متعلقه النقيض عقلاً بالنظر إلى ذاته، لكنه لا يحتمل وقوع نقيضه في الخارج لصيرورته ممتنعاً عادة؛ فإن الجبل إذا تحقق كونه حجراً استحال أن يكون في تلك الحالة التي كان فيها حجراً ذهباً، ولا يلزم من الإمكان الذاتي إمكان الوقوع في الخارج، إذ الممكن بالذات يصير ممتنعاً بالغير؛ وهو استقرار عادة الله تعالى بخلق الجبال من حجر.

وفي هذا المقام أبحاث كثيرة لا طائل تحتها، وزبدتها ما ذكرناه؛ وفيه كفاية.

وينقسم العلم إلى قديم وحادث، فالعلم القديم هو ما لا يكون مسبوقاً بعدم، ولا يكون له أول كعلم الله تعالى[1]، وهو صفة له لا هو ولا

(1) في حاشية (ص) ما نصه : وهو لا يوصف بضروري ولا نظري لتعاليه عن الضرورة واسغنائه عن النظر وهو واحد محيط بجميع بالمعلومات على حقائقها

غيره، هذا مذهب أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى خلافاً للمعتزلة، فإنهم نفوا عنه أسماءه الحسنى وصفاته العلا التي نطق القرآن بإثباتها وبالأمر بالدعاء بها؛ قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

ومن أقوى أدلتهم الفاسدة أن قالوا إثبات صفات قديمة يؤدي إلى إثبات قدماء غير الله تعالى، قلنا : قد بينا أن صفاته تعالى لا هو ولا غيره، فلا يؤدي إلى إثبات قديمين فضلاً عن القدماء، لأن حد الغيرين ما يتصور وجود أحدهما عند عدم الآخر؛ وهذا ممتنع في حق الله تعالى مع صفاته، لأنه لا يتصور وجوده بدون صفاته، ولا وجود صفاته بدونه تعالى، مثاله في الشاهد أن الواحد من العشرة ليس هو غير العشرة ولا عين العشرة.

ولا يلزم قولهم : إذا لم تكن عينه ولا غيره يجب أن تكون بعضه استدلالاً بالشاهد، قلنا : هذا استدلال فاسد لأن ذلك مجرد ملازمة، وأنه لا يكفي لصحة الاستدلال، لأنه يفضي إلى محال، وقياسهم الشاهد بالغائب هنا فاسد.

علماً قديماً أزلياً قائماً بذاته تعالى له حكم الإحاطة بمعلوماتها من الكليات والجزئيات ولا يتعدد علمه تعالى بتعددها ولا يتغير بتغير معلوماته لأن التغير في تعلق العالم بالمعلوم صفة نسبية بين العالم والمعلوم والتغير في النسبة لا يوجب التغير في الذات ولا في شيء من الصفات الحقيقية بل المراد صفة وجودية توجب العالمية والعالمية حال لها تعلق بالمعلوم فلا تتعدد بتعدد المعلومات سواء كان واجباً أو جائزاً أو مستحيلاً لأن الموجب لعالميته تعالى ذاته الأعلى ونسبة ذاته إلى كل معلوم على السواء.

بيانُه أنا وجدنا كون الذات فاعلاً عن اختيار في الشاهد يلازم كونه جسماً، والله تعالى فاعل عن اختيار، وليس بجسم؛ وإنما الكافي لصحة الاستدلال الملازمة مع ضميمة حسن النسبة إليه دون غيره، كما ذكرنا في كونه عالماً مع قيام العلم به.

وقوله يجب أن يكون بعضه؛ قلنا هذا يتصور فيما يتجزأ ويتركب، والتركيب في حق البارئ تعالى محال، فامتنع التبعيض هنا، لا لكونه لا هو ولا غيره؛ بل لأنه لا يحسن إضافته إليه، ولا إطلاق المتركب عليه لعدم الإذن الشرعي.

وهذه المسألة عظيمة كبيرة، وليس هذا موضع استقصائها، وإنما أوردنا هذا البحث في هذا الكتاب وإن لم يكن محله؛ لأن العلم لما انقسم إلى قديم وحادث دعت الضرورة إلى هذه الفائدة لتكثير الفوائد فيه.

وأما العلم الحادث فإنه ينقسم إلى ضروري وهو الحاصل بلا كسب ولا استدلال، وقد يسمى بديهياً وفطرياً؛ وهو ثلاثة أنواع :

فالحاصل بالحواس الخمس ولا خلاف بين العقلاء في تحققه سوى السوفسطائية ولا اعتداد بخلافهم، لأن إنكارهم الحقيقة إقرار بتحقيق الإنكار، وما كان في نفيه إثباته يكون ثابتا ضرورة؛ وبيانه وهو أنه في إنكاره لا يخلو إما أن يقول : هو إنكار أو ليس بإنكار، فبأيهما تلفظ فقد ترك مذهبه.

والحاصل بالخبر المتواتر، وهو ما يرويه الجم الغفير الذي لا يتفق تواطؤهم على الكذب، فإنه يفيد العلم الضروري خلافاً للسمنية؛ فإنهم أنكروا وقوع العلم بما عدا الحواس، وأنه مكابرة نفس ومناكرة حس؛ فَهُم إلى العلاج أحوج منهم إلى الحجاج؛ وقال الكعبي : العلم الحاصل بالتواتر نظري لا ضروري، قلنا : لما اشترك فيه الصغير والكبير ومن له آلة ومن ليس له ذلك، بل يحدث في المحل من غير أن يكون للمحل كسب في تحصيله ولا قدرة على تركه وفعله، حتى شارك فيه غير العقلاء العقلاءَ كان ضروريا، ودعواه لا يخرجه عن كونه ضرورياً.

والحاصل ببدائه العقول، كعلم الإنسان بوجود نفسه، والحكم بأن الكل أعظم من الجزء؛ وأما الاكتسابي فهو العلم الحاصل بالنظر والاستدلال، ويسمى نظرياً وكسبياً، وهو ما يحدث في المحدث بإحداث الله تعالى وللمحل كسب في تحصيله، وقدرة على تركه وفعله.

وينقسم إلى نقلي وعقلي : فالعقلي ما يدرك بنظر العقل المحض، كحدث العالم وقدم الصانع ووحدانيته ونزاهته عن سمات الحدث، واتصافه بصفات الكمال والجلال؛ ويسمى هذا العلم أصول الدين؛ وأما النقلي فهو ما يدرك بالنقل بواسطة نظر العقل في طرق صحته وثبوته؛ وينقسم إلى قطعي : وهو الحاصل بالنص المفسر من الكتاب، والنص المفسر من السنة المتواترة والمشهورة، وإجماع الأمة؛ وإلى ظني كالآيات المؤولة، والعام المخصوص،

وخبر الواحد، والأقيسة الشرعية.

وهذا العلم بقسميه يسمى علم الشرائع وعلم الفقه والأحكام في عرف الفقهاء.

واعلم أن الفقه أيضا اختلف العلماء في تعريفه لغة واصطلاحاً؛ قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في المحصول : الفقه في اللغة فهم غرض المتكلم من كلامه، وأورد عليه أن المنقول عن أهل اللغة أن الفقه هو الفهم من غير قيد.

قال المازري في شرح البرهان : الفقه والفهم والطب والشعر والعلم خمس عبارات لمعنى واحد، غير أنه اشتهر بعضها في بعض أنواع الفهم، فاشتهر الطب في معرفة أحوال مزاج الإنسان، والشعر في معرفة الأوزان، والفقه في معرفة الأحكام؛ وإلا فالعرب تقول : رجل طب إذا كان عالماً، **قال الشاعر:**

فإن تسألوني بالنساء فإنني
بصير بأدواء النساء طبيب

أي عارف؛ وقال الله تعالى : ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي ما نفهم، وقال تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي لا تفهمون؛ وقال ﷺ : «**رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»؛ أي أفهم.

قال الشيخ أبو إسحاق في شرح اللمع : الفقه لغة فهم الأشياء الدقيقة، ولذا يقال : فهمت كلامك وفقهته، ولا يقال : فقهت أن السماء فوقنا والأرض تحتنا؛ وعلى هذا فسر الفقه بأنه الوقوف على المعنى الخفي، وعلى هذا لا يكون الفقه مرادفاً للعلم كما قاله المازري وغيره، إذ الأشبه تغايرهما، لأن العامي الفطن يسمى فهيماً ولا يسمى عالماً، ومسماه بعض مسمى العلم.

والمراد من الفهم مطلق الإدراك لا جودة الذهن، من جهة تهيئه لاقتناص ما يرد عليه من المطالب، والذهن عبارة عن قوة النفس المعدة لاكتساب الحدود والآراء؛ قال ابن عطية رحمه الله تعالى في تفسيره : يقال فقه وفقه وفقه بفتح القاف وكسرها وضمها، فبالكسر إذا فهم وبالفتح للمبالغة والمسابقة في الفقه والفهم، يقال فاقهته ففقهته أي غلبته في الفهم، وبالضم إذا صار الفقه له سجية فيكون على وزن فعل بالضم، لأنه شأن أفعال السجايا الماضية، نحو ظرف فهو ظريف وشرف فهو شريف وكرم فهو كريم؛ فاسم الفاعل من الأولين فاعل نحو سمع فهو سامع، وغلب فهو غالب؛ ومن الثالث فعيل نحو شرف فهو شريف وفقه فهو فقيه.

وفي اصطلاح الأصوليين قال الإمام فخر الدين الرازي في المحصول: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة.

فاحترز بقوله العملية؛ عن كون الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة؛ وبقوله المستدل؛ عما للمقلد من العلوم اليسيرة المتعلقة بالأحكام الشرعية العملية، لأنه إذا أفتاه المفتي بهذا الحكم وأن ما أفتى به المفتي حكم الله تعالى في حقه علم أن هذا حكم الله تعالى في حقه، مع أنه لا يسمى فقيهاً، لأنه لم يستدل على أعيانها.

وبقوله بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة؛ عن وجوب الصلاة والصوم، فإن ذلك لا يسمى فقهاً؛ وعليه سؤالان، أما أولاً فإن قوله العملية؛ يقتضي الاحتراز عن الأحكام الشرعية العملية الكائنة بالقلب دون عمل الجوارح، وعلى هذا يخرج بعض الفقه من الحد، لأن الفقيه كما يكون فقيهاً بالعلم بوجوب الصلاة والصوم يكون فقيهاً بالعلم بوجوب النية والإخلاص وتحريم الزنا والحسد وأمور كثيرة لا توجد إلا في القلب.

فقد تعلق الفقه بعمل الجوارح والقلب فإخراجه يقتضي إخراج بعض المحدود، فلا يكون الحد جامعاً؛ وأما ثانياً فإن قوله بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة عن وجوب الصلاة والصوم، فإن ذلك لا يسمى فقهاً، فتقول إذا كانت شعائر الإسلام ضرورة من الدين كيف بنفي بعد قولكم المستدل على أعيانها، فإن العلم الضروري إذا حصل بالشيء تعذر اكتسابه بالدليل، فحينئذ قد خرجت شعائر الإسلام بقوله المستدل على أعيانها، فيكون هذا القيد حشواً تأباه الحدود.

وقال ابن الحاجب : الفقه العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلته التفصيلية بالاستدلال.

فاحترز بقوله الأحكام؛ عن العلم بالذوات كالإنسان، وبالصفات الحقيقية كالقدرة، وبالأفعال كالتبريد، وبالعقلية كبراءة المجنون والصبي، وبالأصولية ككون القياس حجة، وعلم الله تعالى والملائكة؛ لأنه غير مكتسب، وعلم المقلد كاعتقاد المستفتي، فإنه بلا دليل تفصيلي.

قيل : وأورد إن كان المراد بالبعض لم يطرد لدخول المقلد، وإن كان الجميع لم ينعكس لثبوت لا أدري؛ وأجيب بالبعض ويطرد، لأن المراد بالأدلة الأمارات وبالجميع وينعكس، لأن المراد تهيئه للعلم بالجميع.

واعلم أن هذا سؤال مشهور أورد على حد الفقه، وتوجيه إيراده أن يقال : هذا الحد مدخول، لأنه إما غير مطرد أو غير منعكس، وذلك لأن المراد بالأحكام في قولكم الفقه هو العلم بالأحكام إن كان البعض أي ما يصدق عليه البعض، وإن كان واحداً لم يطرد الحد، أي لا يلزم من صدقه صدق المحدود، إذ لو اطرد دخل المقلد في حد الفقيه لصدق الحد على هذا التفسير على علم المقلد، لأنه قد يعلم بعض الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية بالاستدلال، وهو باطل بالإجماع.

وإن لم يكن المراد البعض لم ينعكس الحد، أي لم يلزم من كذبه كذب المحدود لانحصار المراد على ذلك التقدير في الجميع بالضرورة،

واستلزامه عدم الانعكاس، إذ لو انعكس لما كانت الأئمة فضلاً عن غيرهم فقهاء؛ وذلك لثبوت لا أدري عنهم الدال على عدم العلم بالجميع، كما نقل عن مالك رحمه الله تعالى أنه سئل عن أربعين مسألة، فقال في ستة وثلاثين منها : لا أدري.

قلنا : إن أردت بالجميع جميع الأحكام بالفعل، فلا نسلم أن المراد لو لم يكن البعض كان الجميع بالفعل، لجواز أن يكون بالقوة، وإن أردت به الجميع بالقوة القريبة من الفعل؛ فلا نسلم عدم الانعكاس، لأن المراد من كونه عالماً بالجميع بالقوة أن يكون متهيئاً للعلم بالجميع، وعلى هذا ينعكس لأن ثبوت لا أدري إنما يقدح أن لو كان المراد الجميع بالفعل لا بالقوة، إذ لا منافاة بين علمهم بالجميع بالقوة وعدم علمهم بالجميع بالفعل.

فإن قيل : إن أراد بالتهيؤ الاستعداد القريب يلزم أن لا يكون من لم يتهيأ للعلم بالجميع بهذا التفسير فقيهاً، والعرف يكذبه؛ وإن أراد به الاستعداد البعيد أو مطلق الاستعداد؛ فالكل فقهاء، وهو باطل أيضاً.

وأجيب بأن المراد بالعرف العرف الخاص، وهو عرف المتشرعة؛ فلا نسلم تكذيبه، إذ في عرفهم لا يطلق الفقيه إلا على من تهيأ للعلم بالجميع بالقوة القريبة من الفعل، وأما لو أريد بالعرف العرف العام فتكذيبه مسلم، لكن لا اعتبار به، لأن إطلاق الفقيه في هذا العرف على من هذا حاله مجاز؛ وكلامنا في الحقيقة.

وقال صاحب الأحكام وصاحب البديع : الفقه هو العلم بجملة غالبة من الأحكام الشرعية الفرعية الاستدلالية بالتفصيل، فقولنا بجملة غالبة فصل عن العلم بحكم أو حكمين وعن التعميم المشعر بأن ما دون جملة الأحكام لا يكون فقهاً.

وإنما لم يتعرضا لبيان أن الأحكام عبارة عماذا؟ فقيل الحكم إسناد أمر إلى آخر، فخرج به العلم بالذوات والصفات والأفعال، وهذا لأن العلم لا بد له من متعلق؛ وهو منحصر في أربعة أشياء، لأنه إن كان قائماً بنفسه فهو الذات، وإلا فإن كان مبدأ للتغير في غيره كالضرب والقتل فهو الفعل، وإلا فإن كان قيدا للنسبة فهو الحكم، وإلا فهو الصفة؛ فإذا قيد العلم بالأحكام أخرج الثلاثة الباقية وفيه نظر.

لأن المراد بالعلم ههنا إما التصديق الجازم المطابق الموجب، أو الاعتقاد الراجح؛ وعلى التقديرين فإما إن أراد بالعلم بالذوات والأفعال والصفات تصور مفهوماتها فهو لا ينفك، فلا يمكن إخراجه بقيد الأحكام، وإن أراد به التصديق بها بإثباتها لشيء آخر أو إثبات شيء بها، فتكون هي داخلة تحت الأحكام، والعلم بها تحت العلم بالأحكام، فلا تخرج أيضاً بقيد الأحكام.

وهذا التعريف الذي ذهبا إليه هو أحسن التعاريف بقولهما بجملة غالبة، لأن هذا مجمع عليه عند أرباب هذا الفن؛ فإن قيل الفقه من باب

الظنون فكيف جعلته علماً؟ لأنه مستفاد من الأدلة السمعية الظنية، والمستفاد من الظني ظني، وإذا كان من باب الظن فينبغي أن يقال الفقه هو الظن بالأحكام، فإيراد العلم المقابل للظن في مقام الظن يكون إيراداً لمقابل الجنس في مكان الجنس في الحد فيكون باطلاً، لأنه يلزم منه عدم الانعكاس.

أما أن المستفاد من الظني ظني فظاهر، وأما أن الفقه مستفاد من الأدلة السمعية الظنية فلأن الأدلة السمعية إما مختلف فيها أو متفق عليها بين الأئمة الأربعة، والأولى ظنية عند من يقول بها ولا تفيد أصلاً عند من لا يقول بها؛ والثانية إما القياس وهو لا يفيد إلا الظن، وإما الإجماع، وغير الصريح منه لا يفيد إلا الظن والصريح منه غير متحقق أو نادر ولم ينقل إلينا نقلاً متواتراً فلا يفيد إلا الظن.

وأما السنة فالآحاد منها وهو الغالب لا يفيد إلا الظن، والمتواتر قليل جداً؛ وأما الكتاب وهو والسنة المتواترة مقطوعان بحسب المتن مظنونان بحسب الدلالة، لوجود الاحتمال المانع من القطع مثل الاشتراك والمجاز والحذف والإضمار والنسخ وغيرها، وإفادتها باعتبار الدلالة فلا يفيد إلا الظن، فلو فرض ما تكون دلالته بحسب القطع للقطع بانتفاء المعارض المانع من القطع يكون من الضروريات التي لا يعد العلم بها من الفقه، فثبت أن الفقه مستفاد من الأدلة السمعية الظنية.

وأجيب عنه من وجهين: أحدهما أن الأحكام الشرعية معلومة لوجهين: أحدهما أن كل حكم شرعي ثابت بقياس مركب من مقدمتين قطعيتين، لأن المجتهد إذا ظن الحكم حصل عنده مقدمتان قطعيتان إحداهما أن هذا الحكم مظنون، الثانية أن كل مظنون من الأحكام فهو حكم الله تعالى في حقه وحق من يقلده، الأولى وجدانية والأخرى إجماعية؛ وكل منهما قطعي.

فثبت أن هذا الحكم حكم الله تعالى في حقه وحق من يقلده، وثانيهما أن كل حكم شرعي ثابت بالإجماع، وكل ما هو ثابت بالإجماع فهو معلوم؛ أما الصغرى فبيانها أن الأحكام الشرعية قسمان متفق عليه ومختلف فيه، أما المتفق عليه فهو ثابت بالإجماع، وكذا المختلف فيه؛ لانعقاد الإجماع على أن كل مجتهد إذا استفرغ جهده في طلب الحكم وغلب على ظنه حكم فهو حكم الله تعالى في حقه وحق من قلده، فتكون الأحكام في مواضع الخلاف ثابتة بالإجماع، فثبت أن كل حكم شرعي متفق عليه أو مختلف فيه ثابت بالإجماع.

وأما الكبرى فلأن كل ما هو ثابت بالإجماع يكون ثابتاً بما هو معصوم عن الخطأ، فثبت أن كل حكم شرعي معلوم قطعاً، فثبت أن الفقه هو العلم بالأحكام؛ الوجه الثاني أن المراد من قولنا العلم بالأحكام العلم بوجوب العمل بالأحكام، وهو قطعي لأنه ثابت بدليل قطعي؛ وذلك لأن المجتهد إذا ظن الحكم حصل عنده مقدمتان قطعيتان؛ إحداهما أن هذا

الحكم مظنون، وهي ضرورية وجدانية؛ والثانية أن كل مظنون يجب العمل به وهذه استدلالية قطعية.

والاستدلال عليها من وجهين؛ أحدهما أن الإجماع منعقد على أن المجتهد يجب عليه متابعة ظنه، وثانيهما أن الظن هو الاعتقاد الراجح من اعتقادي النقيضين، وحينئذ فإما أن يعمل بهما، فيلزم الجمع بين النقيضين، أو لا يعمل بواحد منهما؛ فيلزم رفع النقيضين، أو يعمل بالمرجوح فقط وهو خلاف العقل؛ فتعين العمل بالراجح قطعاً.

ويلزم من المقدمتين قولنا هذا الحكم يجب العمل به قطعاً، إلا أنه وقع الظن في طريقه؛ لأن المقدمتين طريق إلى المطلوب، والظن وقع في إحديهما محمولاً وفي الأخرى موضوعاً، ولا يلزم من وقوع الظن محمولاً في إحدى المقدمتين موضوعاً في الأخرى كون المقدمتين أو إحديهما غير قطعية، ولا كون المطلوب غير قطعي؛ والله تعالى أعلم، هذا تلخيص هذا البحث وزبدته وفيه كفاية.

- **فصل نذكر فيه نبذاً من فضائل العلم وأهله ليكون باعثاً على الاجتهاد في تحصيل العلم**

واعلم أنّ فضل العلم وأهله مستفاد من الكتاب والسنة والآثار والحكايات [والأشعار][1] .

---

(1) - زيادة من (ص).

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وقوله تعالى : ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾؛ فالحكمة قيل : هي معرفة الأشياء بحقائقها، وقيل هي الاقتداء بالخالق في السياسة بقدر الطاقة البشرية، فينزه العلم عن الجهل، والفعل عن الجور، والجود عن البخل، والحكمة عن السفه؛ فإذا نسبت إلى الله تعالى يراد بها خلق ما فيه منفعة للعباد في الحال أو المآل؛ وبالنسبة إلى الخلق هي اسم للعمل الصالح الحسن، وهي بالعلم العملي أخص منها بالعلم النظري، وفي العمل أكثر استعمالاً من العلم؛ يقال : أحكم العمل إذا أتقنه.

وقد ذكر الله تعالى العلماء في المرتبة الثانية في كتابه العزيز في آيتين؛ قوله تعالى : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم؛ وكفاهم ذلك شرفاً وفضلاً وجلالاً ونبلاً.

والثانية قوله تعالى : ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾؛ والمراد من أولي الأمر العلماء في أصح الأقوال، ثم إنه تعالى زاد في الإكرام فجعلهم في المرتبة الأولى في آياته؛ منها قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، إن عطفنا أو قطعنا عن العطف؛ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وقوله

تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾، وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، وقوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ إلى قوله : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾.

فاقتضت الآيتان أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية؛ فينتج أن العلماء هم خير البرية، وقوله تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾؛ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : للعلماء فوق باقي المؤمنين بسبع مائة درجة، ما بين الدرجتين خمسمائة عام.

وقال تعالى :﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كشف أحكام الله تعالى على حسب ما يليق بهم وما تفضل به عليهم.

وأما السنة فمن وجوه من ذلك في عدة أحاديث :

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : «**من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً يوم القيامة**».

الحديث الأول: روى مالك رحمه الله في الموطأ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»، وزاد غيره: «**ويلهمه رشده**»؛ وتنكير الخير للتكثير والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

الحديث الثاني: ما رواه أبو داود السجستاني عن كثير بن قيس قال: كنت جالساً في مسجد دمشق مع أبي الدرداء رضي الله عنه فجاءه رجل وقال: يا أبا الدرداء، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك تحدث به عن رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء: ما جاءت بك حاجة ولا تجارة، ولا جئت إلا لطلب الحديث؛ فقال الرجل: بلى؛ فقال: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقاً يلتمس فيها علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**».

وحسبك بهذه الدرجة مجداً وفخراً، وبهذه الرتبة شرفاً وذكراً؛ فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة، فكذا لا شرف فوق شرف وارث تلك المرتبة.

واختلف العلماء في معنى وضع الملائكة أجنحتها، فقيل: تكف

عن الطيران لتجلس إليه وتسمع منه العلم، وقيل: تكف عن الطيران توقيراً له، وقيل: تبسط له بالدعاء، وقيل غير ذلك؛ ولو لم تعلم الملائكة أن منزلته عند الله تعالى تستحق ذلك لما فعلته، وأحدنا يقطع البلاد البعيدة لأجل دعاء رجل صالح، فكيف بدعاء قوم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

الحديث الثالث: ما رواه الترمذي أنه ﷺ ذُكر لَه رَجلان: عالم وعابد؛ فقال عليه السلام: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»؛ انظر إلى هذا الفضل العظيم، هذا وإن العابد لا يخلو عن علم العبادة التي يواظب عليها، وإلا فهو بطال مغرور عامل على هواه، ثم قال عليه السلام: «**إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها يصلون على معلم الخير**»؛ وهذا الحديث أبلغ من الأول بكبير جدا، فإن فضله عليه السلام على أدناهم أفضل من فضل القمر على الكواكب أضعافاً مضاعفة.

الحديث الرابع: عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»، وطالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر؛ رواه ابن عبد البر رحمه الله تعالى، وأما إلهام الحيوانات بالاستغفار لهم؛ فقيل: لأنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم، والعلماء هم الذين بينوا ما يحل منها وما يحرم، ويوصون بالإحسان إليها ونفي الضرر عنها.

الحديث الخامس : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه**».

الحديث السادس : عن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه إلا غشيتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**».

الحديث السابع : عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر**»؛ ذكر هذه الأحاديث أبو عمر في الجامع.

الحديث الثامن : عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه: قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث حالات فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره عيوبه**».

الحديث التاسع : قال عليه السلام : «**إن الله تعالى يجمع العلماء في صعيد واحد فيقول إني لم أوتكم علمي وحكمتي إلا لخير أردته بكم أشهدكم أني قد غفرت لكم ما كان منكم**»؛ ذكر هذين الحديثين أبو عمر أيضا.

الحديث العاشر: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين، فو الذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب العالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة، وبنى له بكل قدم مدينة في الجنة، ويمشي على الأرض، والأرض تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفوراً له، وشهدت الملائكة لهم بأنهم عتقاء الله من النار**».

الحديث الحادي عشر: عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**يبعث الله عباده يوم القيامة، ثم يميز العلماء، ثم يقول لهم: إني لم أضع نوري فيكم إلا لعلمي بكم، ولا أضع علمي فيكم لأعذبكم، انطلقوا فقد غفرت لكم**».

الحديث الثاني عشر: قال عليه السلام: «**معلم الخير إذا مات بكى عليه طير السماء ودواب الأرض وحيتان البحر**».

الحديث الثالث عشر: قاله عليه السلام لعلي رضي الله تعالى عنه حين بعثه إلى اليمن: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما تطلع عليه الشمس وتغرب**».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله عليه السلام: «**من خرج يطلب باباً من العلم ليرد به باطلاً إلى حق، أو ضلالاً إلى هدى كان عمله عبادة أربعين عاماً**».

الحديث الخامس عشر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من طلب العلم يحدث به الناس ابتغاء وجه الله تعالى أعطاه الله أجر سبعين شهيداً**»(1).

الحديث السادس عشر: عن عامر الجهني مرفوعاً: «**يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهداء يوم القيامة فيرجح مداد العلماء**».

الحديث السابع عشر: عن أبي واقد الليثي أنه عليه السلام بينما هو جالس والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، أما أحدهم فرأى فرجة في الحلقة فجلس إليها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فإنه رجع وفرّ، فلما فرغ من كلامه قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؛ أما الأول فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الثاني فاستحى من الله فاستحى الله منه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه**»؛ ذكر هذه الأحاديث من العاشر إلى السابع عشر فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى.

الحديث الثامن عشر: قال عليه السلام: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً ينفق منه آناء الليل وآناء النهار**».

---

(1) في (ب): نبيا.

الحديث التاسع عشر: عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يجلس في مجالس الملوك، والحكمة السنة والفقه**»؛ ذكرهما أبو عمر.

الحديث العشرون: روي عنه عليه السلام أنه قال: «**ما جميع أعمال البر في الجهاد إلا كنقطة في بحر وما جميع أعمال البر والجهاد في طلب العلم إلا كنقطة في بحر**»؛ ذكره ابن أبي زيد بإسناده.

الحديث الحادي والعشرون: قال ابن عباس وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهما: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بليغة قبل وفاته بالمدينة فقال: «**من تعلم العلم وتواضع في العلم وعلمه عباد الله لم يكن في الجنة أفضل ثواباً منه، ولا أعظم منزلة منه، ولا درجة ترفع إلا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل**».

الحديث الثاني والعشرون: عن ابن عمر مرفوعاً: «**إذا كان يوم القيامة صفت منابر من ذهب، عليها قباب من فضة مفضضة بالدر والياقوت والزمرد، جلالها السندس والإستبرق، ثم ينادي منادٍ من الرحمن أين من حمل إلى أمة محمد علماً يريد به وجه الله، اجلسوا على هذه المنابر، فلا خوف عليكم اليوم حتى تدخلوا الجنة**».

الحديث الثالث والعشرون: عن النبي عليه السلام: «**ما اغبرت قدم في طلب العلم إلا حرم الله جسده على النار، واستغفر له ملكاه، وإن مات**

في طلب العلم مات شهيداً، وكان له روضة من رياض الجنة، ويوسع له في قبره مد بصره، وينور على جيرانه أربعين قبراً عن يمينه وأربعين قبراً عن يساره وأربعين قبراً أمامه وأربعين قبراً خلفه، ونوم العالم عبادة ومذاكرته تسبيح، وتنفسه صدقة، وكل قطرة نزلت من عينه من خشية الله تطفئ بحراً من جهنم، فمن أهان العالم فقد أهان العلم، ومن أهان العلم فقد أهان النبي ﷺ، ومن أهان النبي ﷺ فقد أهان جبريل عليه الصلاة والسلام، ومن أهان جبريل عليه الصلاة والسلام فقد أهان الله تعالى، ومن أهان الله تعالى أهانه الله يوم القيامة».

الحديث الرابع والعشرون: قال عليه السلام: «ألا أخبركم عن أجود الأجواد؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: إن الله تعالى أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم بعدي رجل عالم ينشرُ علمه، فيُبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاهد في سبيل الله تعالى حتى يقتل».

الحديث الخامس والعشرون: عن أبي هريرة مرفوعاً: «من نَفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يبتغي بها علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في مسجد من مساجد الله يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت

بهم الملائكة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»؛ قال فخر الدين ابن الخطيب: ذكره مسلم في صحيحه.

الحديث السادس والعشرون : عن النبي عليه السلام : «**يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء؛ فجعل العلم واسطة بين النبوة والشهادة**».

الحديث السابع والعشرون: عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال : «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به بعده أو ولد صالح يدعو له بالخير**».

الحديث الثامن والعشرون : قال عليه السلام : «**إذا سألتم الحوائج فاسألوها الناس، قيل : ومن الناس يا رسول الله؟ قال : أهل القرآن، ثم من؟ قال : أهل العلم؛ قيل : ثم من؟ قال : الصِّباح الوجوه**»، قيل : المراد بأهل القرآن من يعرف معانيه؛ وسئل بعض المحققين مَن الناس؟ فقال : العلماء العاملون، فقيل : من الملوك؟ فقال : الزهاد، فقال : من السفلة؟ فقال : الذي يأكل الدنيا بدينه، فقال : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم.

الحديث التاسع والعشرون : روي عن النبي عليه السلام أنه قال : «**من اتكأ على يده عالم كتب الله تعالى له بكل خطوة عتق رقبة، ومن قبل رأس عالم كتب الله تعالى له بكل شعرة حسنة**».

الحديث الثلاثون: روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بكت السماوات السبع ومن فيهن ومن عليهن، والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن لعزيز ذل وغني افتقر وعالم يلعب به الجهال**».

الحديث الحادي والثلاثون: روي عنه عليه السلام أنه قال: «**إن لله تعالى ألفَ رحمة على جميع خلقه، العاقلين البالغين وغير البالغين، فتسعمائة وتسع وتسعون رحمة للعلماء وطالبي العلم، ورحمة واحدة لسائر الناس**»؛ هكذا رواه ابن الخطيب في تفسيره.

الحديث الثاني والثلاثون: عنه عليه السلام أنه قال: قلت لجبريل عليه السلام: «**أي الأعمال أفضل لأمتي؟ قال: العلم، قلت: ثم أيّ؟ قال: النظر إلى العالم، قلت: ثم أيّ؟ قال: زيارة العالم، ثم قال: ومن كتب العلم لله وأراد صلاح نفسه وصلاح المسلمين ولم يرد به غرضاً فأنا كفيله بالجنة**».

الحديث الثالث والثلاثون: كان عليه السلام يحدث إنساناً، فأوحى الله تعالى إليه أنه لم يبق من عمر هذا الرجل إلا ساعة واحدة، وكان هذا وقت العصر، فأخبره النبي عليه السلام بذلك، فاضطرب الرجل وقال: يا رسول الله، دلني على أوفق عمل في هذه الساعة، فقال له: «**اشتغل بالتعلم**»، فاشتغل بالتعلم، فقبض قبل المغرب؛ فلو كان ثمة شيء أفضل من العلم لأمره النبي عليه السلام بذلك في هذا الوقت، وكذا روي أن محمد بن

سماعة وابن شجاع وإبراهيم بن رستم وجماعة من أصحاب أبي يوسف رحمه الله تعالى دخلوا عليه في مرضه يعودونه، فسألهم عن رمي الجمار أفضلها أن يرميها راكباً أو ماشياً؟ فقال بعضهم : يرميها راكباً، وقال بعضهم: ماشياً؛ فقال أبو يوسف: أخطأتم بل كل رمي بعده رمي يرميها ماشياً أفضل لأنه في أثناء العبادة، وكل رمي ليس بعده رمي يرميها راكباً أفضل لأنه قد فرغ من العبادة، وهو آخرها، ولهذا رمى النبي ﷺ جمرة العقبة راكبا، لأنه لا رمي بعدها، فخرجوا من عنده فوقع الصراخ في داره فقيل لهم : قضى أبو يوسف رحمه الله، أراد أن يكون آخر عهده من الدنيا الاشتغال بالعلم والسؤال عنه، فإن الإنسان يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

الحديث الرابع والثلاثون : قال عليه السلام : «**الناس كلهم موتى إلا العالمون**»، ذكر هذه الأحاديث من الحادي والعشرون إلى ههنا ابن الخطيب في تفسيره الكبير.

الحديث الخامس والثلاثون : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «**الناس معادن في الخير، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

الحديث السادس والثلاثون : عن علي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**سألت جبريل عليه السلام عن صاحب العلم؟ فقال : «إن الله تعالى يقول أولئك سرج أمتك في الدنيا والآخرة، طوبى لمن عرفهم**

وأحبهم، والويل لمن أنكر معرفتهم وأبغضهم، اشهدوا يا ملائكتي أن مُحبهم في الجنة، ومبغضهم في النار».

الحديث السابع والثلاثون : عن علي رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : «**جلوس ساعة عند العالم في مذاكرة العلم خير له من مائة ألف ركعة تطوعاً، وخير له من مائة ألف تسبيحة، وخير له من عشرة آلاف فرس يغزو بها المؤمن في سبيل الله تعالى**»؛ ذكر هذه الأحاديث في روضة العلماء.

الحديث الثامن والثلاثون : عن سخبرة[1] قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**طلب العلم كفارة لما مضى**».

الحديث التاسع والثلاثون : عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**ليس الملق والحسد في خلق إلا في طلب العلم**».

الحديث الأربعون : عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من كتب عني علماً فكتب فيه صلاة علي لم يزل في أجر ما قرئ بذلك أو عمل بذلك العلم**»؛ خرج هذه الأحاديث الثلاثة أبو العباس المرهبي[2] في كتاب العلم وفضلِه؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(1) في الأصول : شجيرة، وهو تصحيف.

(2) في الأصول : الذهبي، وهو تصحيف.

وأما فضل العلم على العبادة فمن وجوه :

أولها : عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**قليل العلم خير من كثير العبادة**».

وثانيها : عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من أدى الفريضة وعلم الناس الخير كان فضله على المجاهد العابد كفضلي على أدناكم رجلاً**».

ثالثها : عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «**فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة**».

رابعها : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «**يبعث الله العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اشفع في الناس كما أحسنت أدبهم**»، قال شبل : يعني تعليمهم.

خامسها : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**العلم خير من العبادة وملاك الدين الورع**».

سادسها : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «**لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة**».

سابعها : عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : «**إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات**

شهيداً».

ثامنها : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»(1).

قال الغزالي رحمه الله : الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال : رجل طلبه للهداية ليتخذه زاداً لمعاده، ولم يقتصد به إلا وجه الله تعالى فهو من الفائزين وهو الذي أثنى عليه سيد المرسلين بقوله ﷺ: «**لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه**».

وقيل : العلماء ثلاثة عالم بالله غير عالم بأمر الله، وهو الذي استولت المعرفة الإلهية على قلبه فلا يتفرغ لعلم الأحكام إلا ما لا بد منه، وعالم بأمر الله غير عالم بالله وهو من يعرف الحلال والحرام والأحكام ولا يعرف أسرار جلال الله تعالى، وعالم بالله وبأمره فهو جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات، فهو تارة مع الله تعالى بالحب له، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة فهو مع الخلق كواحد منهم، فإذا خلا بربه اشتغل بخدمته كأنه لا يعرف الخلق، وهذه سبيل المرسلين والصديقين.

---

(1) في حاشية (ص) ما نصه : وقول عمر رضي الله عنه في بعض خطبه : أيها الناس عليكم بالعلم، فإن لله رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه، فإن أذنب ذنباً ليستعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك، وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت؛ وقال علي رضي الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلفه.

فالمراد بقوله عليه السلام : «**سائل العلماء**»، أي العلماء بأمر الله، بأن يستفهمهم في الأحكام؛ «**وخالط الحكماء**»، أي العالمين بالله تعالى وبأحكامه، ففي مجالستهم منافع الدنيا والآخرة، فلهؤلاء ثلاث علامات : علامة الأول أن يذكر الله تعالى باللسان دون القلب، وأن يخاف من الخلق دون الرب، وأن يستحي من الناس في الظاهر، ولا يستحي من الله تعالى في الباطن.

وعلامات العالم بالله أن يكون ذاكراً بالقلب خائفاً من الرياء لا من المعصية، مستحيياً مما يخطر على القلب لا من الظاهر، وأما العالم بالله وبأمر الله ففيه هذه الثلاث مع ثلاث أخر : جلوسه على الحد المشترك بين عالم الغيب والشهادة، وأن يحتاج الفريقان إليه، ويستغني هو عنهما؛ فمثله كالشمس لا يزيد ولا ينقص؛ ومثل العالم بالله تعالى كالقمر يزيد وينقص، ومثل العالم بأمر الله كالسراج يحرق نفسه ويضيء لغيره.

تاسعها : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**لكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بشيء أفضل من الفقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**».

عاشرها : عن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض وقبل أن يرفع، ثم قال : العالم والمتعلم شريكان في الأجر فلا خير في سائر الناس بعد**».

حادي عشرها: عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك**»، قال عطاء: قال لي مسعر بن كدام: يا عطاء، زدتنا في هذا الحديث زيادة لم تكن في أيدينا وإنما كان في أيدينا اغد عالماً أو متعلماً؛ قال عطاء: ويل لمن لم يكن فيه واحدة من هذه.

وقال أبو عمر: الخامسة التي فيها الهلاك معاداة العلماء وبغضهم، ومن لم يحبهم فقد أبغضهم، أو قال أبغض ربه وفيه الهلاك؛ خرج هذه الأحاديث أبو عمر ابن عبد البر في جامعه.

وقال فتح الموصلي: كما أن المريض إذا منع من الطعام والشراب يموت، فكذا القلب إذا منع من العلم والفكر والحكمة يموت؛ والله تعالى أعلم.

وأما تفضيل العلماء على الشهداء؛ فقد روي عن عثمان رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**»؛ وقد تقدم الدليل في رجحان مداد العلماء على دم الشهداء، هذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه، وأدنى ما للعالم مداده.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**للأنبياء على العلماء فضل درجتين، وللعلماء على الشهداء فضل درجة**».

وعنه عليه السلام: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون**

عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

ونقل القاضي حسين بن محمد رحمه الله تعالى في أول تعليقته أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال : «**من أحب العلم والعلماء لم تكتب عليه خطية أيام حياته**».

وقال عليه السلام : «**من صلى خلف عالم فكأنما صلى خلف نبي، ومن صلى خلف نبي غفر له**».

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**من طلب العلم فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب العلم فلم يدركه كان له كفل من الأجر**».

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : «**جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال العلم بالله تعالى : قال يا رسول الله أسألك عن العمل وتخبرني عن العلم؛ فقال رسول الله ﷺ : إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل**».

واعلم أن الشواهد العقلية في فضل العلم؛ فَهو أن شرف العلم مركوز في العقل بالضرورة، فأجهل الناس يستنكف من نسبة الجهل إليه، ويرتاح إذا نسب إلى العلم، حتى إن الحيوانات تهاب الإنسان وإن كانت في خلقتها أقوى منه لعقله، وإنما فضلها بالمرتبة النورانية واللطيفة الربانية التي بها

استعد لإدراك حقيقة الأشياء، وتأهل للعبادة.

ثم إنه بعد تحصيل هذه المرتبة ونيل المعارف يصير النفس الجاهلة عالمة، فيكون كالشمس في عالم الأرواح، وسبباً للحياة الأبدية وواسطة بين الله تعالى وعباده؛ قال الله تعالى ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

قال المفسرون : هو العلم والقرآن، فهو حياة الأرواح، وروح الروح، ونور القلب، ولب اللب، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا للدعوة بالحق، قال تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ قيل : هي العلم، وقد سماه الله تعالى حياة، قال تعالى :﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، وروحاً؛ قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، ونورا، قال تعالى : ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، فقد أكرمه بالعلم؛ لأن سعادة البدن أشرف من سعادة المال، فإذا أشرقت السعادة العلمية على البدنية؛ فعلى المالية أولى، والله تعالى أعلم.

وأما الآثار؛ فقد قال علي رضي الله عنه : كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه؛ وعنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : لا خير في الصمت عن العلم، كما لا خير في الكلام عن الجهل؛ وعنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : العالم بالتلميذ أرأف من الأبوين لأنهما يحفظونه من آفات الدنيا والعالم يحفظه من أمر الآخرة.

وقال بعض السلف : خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل؛ وقال أبو مسلم الخولاني : العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عنهم تحيروا، وقال أبو الأسود الدؤلي : ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

وقال وهب : يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه ديناً، والعز وإن كان مهيناً والقرب وإن كان قصياً، والغنى وإن كان فقيراً والمهابة وإن كان وضيعاً؛ وقال الفضيل بن عياض : عالم معلم يدعى كبيراً في ملكوت السماء.

وقال سفيان ابن عيينة : أرفع الناس عند الله تعالى منزلة من كان بين الله تعالى وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء؛ وقال أيضاً : لم يعط أحد في الدنيا شيئاً أفضل من النبوة وما بعد النبوة شيء أفضل من العلم والفقه؛ فقيل : عمن هذا؟ فقال : عن الفقهاء.

وقال سهل : من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلينظر إلى مجالس العلماء فاعرفوا لهم ذلك؛ وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء لله تعالى فليس لله تعالى ولي؛ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة.

وعن سفيان الثوري والشافعي رحمهما الله : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم، وعن الزهري : ما عبد الله تعالى بمثل الفقه، وعن أبي ذر

وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا : باب من العلم يتعلمه الإنسان أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً، وباب من العلم يعلمه الناس عمل به أو لم يعمل به أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً.

وقال أبو عمر بن عبد البر : أخبرت عن أبي يعقوب يوسف بن أحمد الصيدلاني المكي قال : حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي قال : حدثنا أبو علي عبد الله بن جعفر الرازي قال : حدثنا محمد بن سماعة قاضي القضاة عن أبي يوسف قاضي القضاة قال : سمعت أبا حنيفة رحمه الله يقول : حججت مع أبي سنة ثلاث وتسعين، فإذا شيخ قد اجتمع الناس عليه، فقلت لأبي : من هذا الشيخ؟ فقال: هذا رجل قد صحب النبي ﷺ، يقال له عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي؛ قلت لأبي : وأي شيء عنده؟ قال : أحاديث سمعها من رسول الله ﷺ، فقلت لأبي : قدمني بين يديه حتى أسمع منه، فتقدم أبي بين يدي وجعل يفرج لي حتى دنوت منه فسمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : «**من تفقه في دين الله تعالى كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب**».

وعن علي بن عاصم قال : حدثنا أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي قال : بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة الميزان وسيئاته في الكفة الأخرى فتسيل حسناته، فإذا أيس وظن بالنار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع مع حسناته فتسيل سيئاته فيقال له أتعرف هذا من عملك؟ فيقول : لا؛ فيقال : هذا ما علمت الناس من الخير

فعمل به بعدك.

وقال أبو عمر بن عبد البر في جامعه : روي أنه أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم؛ وروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه له عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الجنة؛ وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل في السراء والضراء؛ والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء؛ يرفع الله به قوماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه؛ والسماء ونجومها؛ لأن العلم حياة القلب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُلَم، وقوة الأبدان من الضعف؛ يبلغ به العبد منازل الأحرار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعد بالقيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، هو إمام العمل، والعمل تابعه، تلهمه السعداء وتحرمه الأشقياء**»؛ خرجه الحافظ أبو عمر عمر بن عبد البر في جامعه.

وعن مصعب بن الزبير قال لابنه : يا بني تعلم العلم، فإن لم يكن

لك مالاً كان لك جمالاً؛ وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً، وعن علي رضي الله تعالى عنه: العلم أفضل من المال من ستة أوجه: أولها أن العلم ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمال ميراث الفراعنة؛ ثانيها أن العلم لا ينقص بالإنفاق[1]؛ والمال ينقص؛ ثالثها أن العلم يحفظ صاحبه والمال يحتاج إلى حافظ؛ رابعها المال يحوزه المؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن؛ خامسها جميع الناس يحتاجون إلى العالم ولا يحتاجون إلى صاحب المال؛ سادسها العلم يقوي صاحبه على المرور على الصراط والمال يمنعه.

وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: لموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت العاقل البصير بحلال الله وحرامه؛ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الشياطين قالوا لإبليس لعنه الله تعالى: ما لنا نراك تفرح لموت العالم ما لا تفرح لموت العابد، فقال إبليس: انطلقوا بنا، فانطلقوا إلى عابد قائم يصلي، فقالوا: إنا نريد أن نسألك فقال له إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا؛ فقال لهم إبليس: أترونه كفر من ساعته؛ ثم قال: انطلقوا بنا إلى عالم في حلقته يضاحك أصحابه، فقال له إبليس لعنه الله تعالى: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: نعم؛ قال: كيف ذلك؟ قال: يقول: لذلك إن أراده كن فيكون؛ فقال إبليس: أترون ذلك عدو نفسه، وهذا يمنعني من

---

(1) في (ص): ببذله.

إفساد عالم كثير.

ولأن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها، والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرف بها؛ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: العالم أمين الله في الأرض.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لولده: يا بني؛ عليك بالأدب فإنه دليل المروءة، وأنيس في الوحشة، وصاحب في الغربة، وقرين في الحضر، وصديق في المجالس، ووسيلة عند انقضاء الوسائل، وغنى عند العدم، ورفعة للخسيس، وكمال للشريف، وجلالة للملك.

وقال عكرمة: إن لهذا العلم ثمناً؛ قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه في غير محله، وقيل: أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر؛ وقيل: علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت.

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: بم وجدت العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول؛ أسأل مسألة الحمقى وأحفظ حفظ الأذكياء؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «**العلم خزائن ومفاتيحها السؤال، فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والعالم والمستمع والمحب لهم**».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالباً فعززت مطلوباً، فلذلك قال ابن

أبي مليكة : ما رأيت مثل ابن عباس إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجهاً، فإذا تكلم فأعرب الناس لساناً وإذا أفتى فأكثر الناس علماً.

وقال ابن المبارك : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة، وقال بعض الحكماء : إني لأرحم أحد رجلين رجل يطلب العلم ولا يفهم ورجل يفهم ولا يطلب؛ وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وأما الحكايات فنذكر منها نبذاً؛ قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه الصلاة والسلام في أمر الهدهد : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ فلما جاءه قال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾؛ علماً؛ فاشتدت نفسُه، واستعلت كلمته؛ بما علّمه على سيّد أهل ذلك الزمان، ورسول الملك الديان مع عظم ملكه وهيبة مجلسه وعلم الهدهد بحقارة نفسه، وما تقرر عند سليمان عليه الصلاة والسلام من جريمته والعزم على عقوبته؛ فلولا أن العلم يرفع من الثرى إلى الثريا لما عظم الهدهد ولما أبدل له العقوبة بالإكرام النفيس، وأسبغ عليه خلع الرسالة إلى بلقيس.

وقال تعالى حكاية عن الملائكة عليهم السلام : ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾؛ افتخروا بالعلم، فرد الله تعالى عليهم وفضل آدم عليه السلام عليهم بالعلم؛ فقال تعالى : ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾؛ علم الله تعالى آدم عليه السلام الأسماء،

فوجد التحية من الملائكة، فمن علم ذات الخالق وصفاته لا يجد تحية الملائكة، بل يجد تحية الرب سبحانه وتعالى : ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

وحكي أن معاوية رضي الله عنه لما حج فاتخذ بالأبطح مجلساً، فجلس فيه ومعه زوجته فاطمة بنت عبد الله بن عمرو بن نوفل؛ فإذا هم بجماعة حول رجل يسألونه عن مناسك الحج، فبعضهم يقول : رميت قبل أن أحلق، وبعضهم يقول : حلقت قبل أن أرمي؛ فقال : من هذا؟ فقيل: هذا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما؛ فالتفت إلى زوجته وقال : هذا وأبيك الفخار، هذا والله شرف الدنيا وشرف الآخرة.

وحكي عن أبي الليث رحمه الله أنه قال : من جلس عند العلماء ولم يقدر أن يحفظ من علمهم شيئاً؛ فله سبع كرامات أولها : ينال فضل المتعلمين، ثانيها : أنه ما دام جالساً عندهم كان محبوساً عن الذنوب، ثالثها : إذا خرج من منزله طالباً للعلم نزلت عليه الرحمة، رابعها : إذا جلس في حلقة العلم كلما نزلت عليهم رحمة نزل له منها نصيب، خامسها : ما دام يستمع تكتب له طاعة، سادسها : إذا استمع ولم يفهم ضاق صدره لحرمانه عن إدراك العلم، فيصير ذلك سبباً إلى حضرة الله تعالى لقوله : (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي) سابعها : يرى إعزاز المسلمين للعالم وإذلالهم للجاهل، فينفر قلبه عن الجهل، ويميل إلى العلم؛ ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجالسة العلماء.

وقال النسابة البكري : إن للعلم آفة ونكدا وهجنة واستجاعة؛

فآفته نسيانه، ونكده الكذب فيه، وهجنته نشره في غير أهله، واستجاعته أن لا يشبع منه.

وحكي عن بعض الحكماء أنه قال: الدنيا بستان زين بخمسة أشياء: علم العلماء، وعدل الأمراء، وعبادة العباد، وأمانة التجار، ونصيحة المحترفين؛ فجاء إبليس لعنه الله بخمسة أشياء، فأقامها بإزاء هذه الخمسة، فجاء بالحسد فأقامه فركزه بإزاء العلم، وجاء بالجور فركزه بإزاء العدل، وجاء بالرياء فركزه بإزاء العبادة، وجاء بالخيانة فركزها بإزاء الأمانة، وجاء بالغش فركزه بإزاء النصح.

وقيل: فضل الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله على بعض الناس بخمسة أشياء: أولها أنه لم يكن أَمَرَ أحداً بشيء حتى عمله، الثاني أنه لم يَنْهَ أحداً عن شيء حتى انتهى عنه، الثالث كل من طلب منه شيئاً لم يبخل عليه لا من العلم ولا من المال، الرابع كان يستغني بعمله عن الناس، الخامس كانت سريرته وعلانيته سواء.

وحكي عن أبي الليث رحمه الله أنه قال: من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله تعالى ثمانية أشياء: من جلس مع الأغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها، ومن جلس مع السلطان زاده الله القسوة والكبر، ومن جلس مع النساء زاده الله الجهل والشهوة، ومن جلس مع الجهال ازداد من اللهو والمزاح، ومن جلس مع الفساق ازداد من الجراءة على الذنوب وتسويف التوبة، ومن جلس مع الصالحين ازداد رغبة في الطاعة، ومن

جلس مع العلماء ازداد العلمَ والورع في الدنيا.

وحكي عن الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى أنه قال : الرجال أربعة أصناف؛ رجل يدري ويدري أنه يدري فهو عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فهو نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فهو جاهل فعلموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهو شيطان فاجتنبوه.

وقيل : أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنف منها وإن كان أميراً، قيامه لأبيه، وخدمته لضيفه، وخدمته للعالم الذي يتعلم منه وينتفع به ويتبعه ويقلده، والسؤال عما لا يعلم مما لا ينبغي له أن يعلم ولا يستغني عن تعلمه، احترازاً عن السؤال عما لا يعنيه، فإنه يضيع عليه أوقاته ويفوته ما يعنيه ممن هو أعلم منه وممن يثق بقوله وفعله بعد أن اطلع على حسن سيرته ونصيحته لمن يتعلم منه، مع مجانبة الهوى والبدع ولزوم اعتقاد أهل السنة والجماعة.

وروي عن مقاتل بن سليمان رحمه الله أنه قال : وجدت في الإنجيل أن الله تعالى قال لعيسى عليه الصلاة والسلام : يا عيسى عظِّم العلماء واعرف فضلهم، فإني فضلتهم على جميع خلقي إلا النبيين والمرسلين؛ كفضل الشمس على الكواكب، وكفضل الآخرة على الدنيا، وكفضلي على كل شيء.

وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : صرير قلم العالم تسبيح، وكتابته للعلم والنظر فيه عبادة، وإذا أصاب من ذلك المداد ثوبه فكأنما أصابه دم الشهداء في سبيل الله، وإذا قطر منه على الأرض قطرة تلألأ نوره،

وإذا قام من قبره نظر إليه أهل الجمع فقالوا : هذا عبد من عباد الله، أكرمه الله وحشره مع الأنبياء عليهم السلام.

وحكي أن يوسف عليه السلام لما صار ملكاً احتاج إلى وزير، فسأل ربه عز وجل عن ذلك فقال جبريل عليه السلام : إن ربك يقول لك : لا تختر إلا فلاناً، فرآه يوسف عليه الصلاة والسلام في أسوأ حال، فقال : كيف يصلح لهذا العمل مع سوء حاله؟ فقال جبريل عليه الصلاة والسلام : إن ربك عينه لذلك لأنه ذب عنك حين قال: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ والنكتة فيه أن الذي ذب عن يوسف استحق الشركة في مملكته، فمن ذب عن الدين القويم بالبرهان المستقيم كيف لا يستحق من الله تعالى التبجيل مع التكريم.

وأربعة تطلب من أربعة : من المواضعة السلامة، ومن الصاحب الكرامة، ومن المال الفراغ، ومن العلم المنفعة، ولا تتم أربعة إلا بأربعة : الدين بالتقوى، والقول بالفعل، والمروءة بالتواضع، والعلم بالعمل.

وقال علي رضي الله تعالى عنه : قوام الدنيا أربعة : عالم يعمل بعلمه، وجاهل لا يستنكف من التعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه.

وقال بعض الحكماء : القلب ميت وحياته بالعلم، والعلم ميت وحياته بالطلب، والطلب ضعيف وقوته بالمدارسة؛ فإذا قوي بالمدارسة فهو محتجب،

وإظهاره بالمناظرة؛ وإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم، ونتاجه بالعمل؛ فإذا زوج العلم بالعمل توالد وتناسل ملكاً أبدياً لا آخر له.

وحكي أن هارون الرشيد تداعى خصمان بين يديه وعنده جماعة من الفقهاء وفيهم أبو يوسف رحمه الله تعالى، فادعى أحد الخصمين على الآخر أنه أخذ من بيته مالاً بالليل، وأقر الآخذ بذلك في المجلس، فاتفق الفقهاء على أنه يقطع، فقال أبو يوسف : لا يقطع، فقالوا : لم؟ قال : لأنه أقر بالأخذ، والأخذ لا يوجب القطع، بل لا بد من الاعتراف بالسرقة، فصدقه الكل في قوله، ثم قالوا للآخذ : أسرقتها؟ فقال أبو يوسف : لا يجب عليه القطع وإن أقر بالسرقة، لأنه قد وجب عليه الضمان بإقراره بالأخذ، وبالإقرار الثاني بالسرقة يبطل إسقاط الضمان عن نفسه، فلا يسمع منه؛ فتعجب الكل منه.

وقال الشعبي رحمه الله تعالى : كنت جالساً عند الحَجّاج، فجيء بيحي بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلاً بالحديد، فقال له الحجاج: أنت قد زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ، فقال : بلى؛ فقال له الحجاج : لتأتين بها واضحة بينة من كتاب الله تعالى وإلا قطعتك عضواً عضواً؛ فقال : آتيك بها واضحة بينةً من كتاب الله يا حجاج؛ قال : فتعجبت من جرأته بقوله : يا حجاج، فقال له: ولا تأتين بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾؛ فقال : آتيك بها

واضحة من كتاب الله، قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾؛ فمن كان أبو عيسى وقد ألحق بذرية نوح؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله عز وجل، حلوا وثاقه وأعطوه من المال كذا.

وحكي أنَّ جماعة من المدنيين جاؤوا إلى أبي حنيفة رضي الله عنه ليناظِروه في القراءة خلفَ الإمام ويبكتوه ويشنعوا عليه، فقال: لا يمكنني مناظرة الجمع، فَوِّضُوا المناظرةَ إلى أَعْلَمِكم لأناظرَه وَأُلزمه الحجةَ فأشاروا إلى واحد، فقال: هذا أعلمكم؟ قالوا: نعم، قال: وكيف؟ قالوا: لأنه قائم مقامنا، ورضينا به إماماً؛ فكان قوله قولنا، فقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: فنحن لما اخترنا الإمام في الصلاة كانت قراءته قراءة لنا، لأنا لما قدمنا علينا فهو قائم مقامنا، فأقروا له بالإلزام.

وحكي أن جماعة من المحدثين قالوا: اذهبوا بنا لنناظر أبا حنيفة في الإيمان، كيف يقول: أنا مؤمن من غير تعليق شرط، ومن قال: أنا مؤمن ولم يقل إن شاء الله؛ فليقل إني في الجنة؟ فقال أبو حنيفة لهم: من أين تجدون رقبة مؤمنة حتى تعتقوها عن كفارة، لأنهم لا يقولون: نحن مؤمنون، بل يقولون: مؤمنون إن شاء الله، ويدل على قوة ما ذهب إليه الإمام حديث الجارية، وفيه قال: «**من أنا**»؛ قالت: أنت رسول الله، قال: «**اعتقها فإنها**

مؤمنة»، انفرد بإخراجه مسلم، ولم يقل عليه الصلاة والسلام : مؤمنة إن شاء الله.

وحكي أن المنصور دعا أبا حنيفة رحمه الله تعالى، وكان عنده الربيع وكان ممن يتعصب على أبي حنيفة، فقال الربيع : يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يخالف جدك، يقول : الاستثناء المتصل لا يصح، فقال أبو حنيفة : هذا الربيع يقول ليس لك بيعة في رقاب الناس، فقال : كيف قال : لأنهم يعقدون لك البيعة ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل بيعتهم معك؟ فضحك المنصور، فقال : إياك يا ربيع وأبا حنيفة، فلما خرجا قال الربيع : سعيتَ في دمي، فقال : كنتَ البادئ وأنا الدافع.

ويحكى أنه دخل الغضبان على الحجاج وكان مغتاظاً عليه جداً، فقال: ما جواب السلام عليك؟ فقال : وعليكم السلام، فطن له الحجاج فقال: قاتلك الله يا غضبان، أخذت لنفسك أماناً، والله لولا الوفاء والكرم لما شربت البارد بعد ساعتك هذه.

قال الراوي : فانظر إلى فائدة العلم في هذه الصورة، فلله در العلم ومن به تردى، وتعساً للجهل ومن في أوديته تردى، وحكي مثله عن عمر رضي الله عنه أنه أتي بحربي بغير أمان، فأمر بضرب عنقه، فاستقى ماء وأتي به، فقال يا أمير المؤمنين : إني آمن حتى أشرب الماء الذي في هذا الكوز؛ فقال عمر رضي الله عنه : أنت آمن حتى تشربه، فضرب بالكوز الأرض فكسره، فأمر عمر رضي الله عنه بقتله،

فقال يا أمير المؤمنين : أعطيتني الأمان، فقال الحاضرون : نعم يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله تعالى عنه : أخذ العلج لنفسه أماناً، ولم يشعر به.

ويحكى عن أبي مسلم الخراساني صاحب دولة بني العباس أنه قال لسليمان بن كثير : بلغني أنك كنت في مجلس وقد جرى ذكري بين يديك، فقلت : اللّٰهُمَّ سود وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه، فقال : قلته، ولكن في كرم كذا لما نظرت إلى الحصرم، فاستحسن قوله وعفا عنه.

ويحكى أن المأمون بلغه أن غلاماً له عتب على بعض الفقهاء في أمر بلغه عنه، فغلظ عليه وحبسه وكتب بقصته، واستأذنه في عقوبته؛ فكتب إليه المأمون : أحق الناس بالرحمة عالم يجوز عليه حكم جاهل، فخلِّ سبيله، لا أَمْرَ لَك عليه.

ويحكى أن أعرابياً قصد الحسين بن علي رضي الله عنهما فسلم عليه وسأله حاجة، فقال سمعت جدك يقول : إذا سألتم حاجة فاسألوها من أحد أربعة : من عربي شريف، أو من مولى كريم، أو من حامل القرآن، أو من صاحب وجه صبيح؛ فأما العرب فشرفت بجدك، وأما الكرم فذاتك وسيرتك، وأما القرآن ففي بيوتك نزل، وأما الوجه الصبيح فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**إذا أردتم أن تنظروا إلي فانظروا إلى الحسن والحسين**»، فقال الحسين رضي الله تعالى عنه : ما حاجتك؟ فذكرها له، فقال الحسين : سمعت أبي علياً يقول:

قدر كل امرئ ما يحسنه، وسمعت جدي ﷺ يقول : «**المعروف بقدر المعرفة**»، وأسألك عن ثلاث مسائل، إن أجبت عن واحدة فلك ثلث ما عندي، وإن أجبت عن اثنتين فلك ثلثا ما عندي، وإن أجبت عن الثلاثة فلك كل ما عندي؛ وقد حمل إلي صرة من العراق فقال : قل لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال له : أي الأعمال أفضل؟ فقال الأعرابي : الإيمان بالله تعالى، فقال له : فما نجاة العبد من الهلكة؟ قال : الثقة بالله تعالى، قال : فما يزين العبد؟ قال : علم معه حلم، قال : فإن أخطأه ذلك؟ قال : فمال معه كرم، قال : فإن أخطأه ذلك، قال : ففقر معه صبر، قال : فإن أخطأه ذلك؟ قال : فصاعقة تنزل عليه من السماء فتحرقه، فضحك الحسين رضي الله عنه ورمى بالصرة إليه.

• فصل في مستحسنات حكاية بعض الشعراء

يحكى أن الفرزدق هجا بعض الناس فقال :

لقد ضاع شعري على بابكم
كما ضاع در على خالصة

وكانت خالصة معشوقة سليمان بن عبد الملك، وكانت ظريفة صاحبة أدب، فلما بلغها هذا البيت شق عليها، فدخلت على سليمان وشكت من الفرزدق، فأمر سليمان بإشخاصه على أفظع الوجوه مكبلاً مقيداً، فلما حضر قال له سليمان بن عبد الملك : أنت القائل هذا البيت؟ قال : ما هكذا قلته، إنما أُعَبِّر به على من أراد بي سوءاً، وخالصة من وراء الستر تسمع،

وإنما قلت :

لقـد ضـاء شـعري على بابكـم
كمـا ضـاء در على خالصـة

فلم تملك خالصة نفسها من وراء الستر أن ألقت على الفرزدق ما كان عليها من الحلي، وهو يزيد على ألف ألف درهم، فبعث سليمان حاجبه حتى اشترى الحلي من الفرزدق بمائة ألف درهم، وما رؤي بيت قلعتَ عينيه فأبصر إلا هذا البيت.

ويحكى عن عبد الملك بن مروان أنه بلغه قول الشاعر :

ومنـا سـويد والبطـين وقعنـب
ومنـا أمـير المؤمنـين شـبيب

فأمر به فأحضر، فقال له : أنت القائل : ومنا أمير المؤمنين شبيب؛ فقال : أنا قلت : ومنا أميرَ المؤمنين بالنصب، فناديتك واستغثت بك، فخلى عنه، وتخلص الشاعر من الهلاك بصنعة يسيرة، وعملها بعلمه، حول الضمة فتحة.

وروي أن النضر بن شميل حدثه المأمون عن هشيم بن بشير عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «**أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان في ذلك سداد من عوز**».

قال النضر بن شميل : قلت : يا أمير المؤمنين، صدق هشيم، حدثني عوف بن أبي جميلة قال : حدثني الحسن بن علي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم قال لي رسول الله ﷺ : «**أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان في ذلك سداد من عوز**»؛ قال : وكان متكئا فاستوى جالساً، ثم قال : يا نضر كيف قلت سداد بالكسر ولم تقل سداد بالفتح وما الفرق بينهما؟ وكان المأمون يتعصب لأهل العلم، ويكبر عنده الصغير بالأدب، قلت : يا أمير المؤمنين، السداد بالفتح القصد في الدين والسبل والطريق، والسداد بالكسر سد الثلمة، وكلما سددت شيئاً فهو السداد؛ قال : وتعرف ذلك العرب؟ قلت : نعم، **هذا العرجي يقول** :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسِداد ثغر
كأني لم أكن فيهم وسيطاً
ولم تك نسبتي في آل عمرو

فقال : قبح الله اللحن، فقلت : يا أمير المؤمنين، إنما لحن هشيم وكان لحنة، فقال لغلام على رأسه : أبلغ معه إلى الفضل بن سهل، وأمره أن يصرف له خمسين ألف درهم، ودفع له من عنده ثلاثين ألف درهم، قال النضر : فَرُحْتُ بثمانين ألف درهم لفائدة تحويل الفتحة إلى الكسرة، استفادها المأمون.

ويحكى أنه لما مات معاوية رضي الله تعالى عنه دخل الناس على ولده

يزيد بن معاوية، فلم يدروا أيهنونه أم يعزونه، فقام عصام بن صيفي الثعلبي فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قد رزئت خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، قضى معاوية نحبه، غفر الله ذنبه، وحزت الرياسة لأنك أعرف بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية، واشكره على أفضل العطية، فقال يزيد : ادن مني يا ابن صيفي، فدنا حتى جلس قريباً منه، ثم قام عبد الله بن مازن فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين رزئت خير الآباء، وسميت خير الأسماء، ومنحت أفضل العطاء، فهنأك الله العطية، وأعانك على الرعية، فقد أصبحت قريش مفجوعة بفقد سائسها، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة والعقبى بك بعده، **ثم أنشأ يقول** :

الله أعطـــاك الـــتي لا فوقهــا
وقـــد أجـــدوا وأرادوا عوقهـــا
وقـــد رأيـــت للمعـــالي توقهـــا
إليـــك لمـــا أن تشـــكت شـــوقها

قال يزيد : يا ابن مازن ادن مني، ثم قام عبد الله بن همام فقال مثل من تقدمه، فأمر لكل واحد بألف ألف درهم، وزاد في أرزاقهم؛ فانظر إلى الفضيلة كيف ترفع صاحبها وتؤهله.

• فصل في ذكر نبذ من فضائل الأئمة الأعلام وفقهاء الإسلام

الظاهرين اليوم ما يعلم به طريقهم، وأنهم لم يقصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى، وأنهم كانوا مشتغلين بعلم القلوب، ومراقبين لها؛ مع أنهم كانوا أيضاً مشتغلين بعلم الفتاوى والأحكام، وكل واحد منهم كان عابداً زاهداً عالماً بعلوم الآخرة، وفقيهاً في مصالح الخلق في الدنيا والآخرة، ومريداً بفقهه وجه الله تعالى.

وإن كان ما قدمناه يشير إلى هذا المنهج، ولكن نريد زيادة توضيح في ذلك بما ورد من أحوالهم وأقوالهم، ليقتدى بمنهجهم، وتسلك طريقتهم، ويعرف حقيقة الأمر في ذلك، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري رضي الله عنهم.

وإنما رتبناهم على هذا الترتيب لتقدم الأقدم فالأقدم، فأما أبو حنيفة رضي الله عنه فكان عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى خائفاً منه، مريداً بعلمه وجه الله تعالى؛ أما كونه عابداً فيدل عليه ما روى ابن المبارك أنه قال: كان أبو حنيفة له مروة وكثرة صلاة؛ وروى حماد بن سليمان أنه كان يحيي الليل كله،

وروي أنه كان في بدء أمره يحيي نصف الليل، فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لغيره: هذا يحيي كل الليل، فلم يزل بعد ذلك يحيي كل الليل؛ وقال: أنا أستحي من الله تعالى أن أوصف بما ليس فيّ من عبادته.

وأما زهده فقد روي عن الربيع بن عاصم قال: أرسلني يزيد بن عمرو بن هبيرة، فقدمت بأبي حنيفة عليه، فأراد أن يوليه على بيت المال، فأبى فضربه عشرين سوطاً؛ فانظر كيف هرب من الولاية، واحتمل العذاب.

وقال الحكم بن هشام الثقفي: حدثت بالشام عن أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة، وأراده سلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره، فاختار عقابهم على عذاب الله تعالى، وروي أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال: أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها، ففر منها.

وروي عن محمد بن شجاع أنه قيل لأبي حنيفة: قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم فما رضي أبو حنيفة، فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال صلى الصبح، ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم، فجاء رسول أبي جعفر بالمال فدخل عليه فلم يكلمه فقال بعض الحاضرين: ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة، أي هذه عادته فقال: ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته فقال لابنه: إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البدرة فاذهب بها إلى أبي جعفر، وقل له: هذه وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة، قال ابنه: ففعلت ذلك، فقال أبو جعفر: رحمة الله تعالى على أبيك لقد كان شحيحاً بدينه.

وروي أنه دعي إلى ولاية القضاء فقال: أنا لا أصلح، فقيل: لم؟ فقال: إن كنت صادقاً فلا أصلح له، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء.

وأما علمه بأمور الآخرة وطرق الدين ومعرفته بالله تعالى فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا؛ قال وكيع : كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس؛ وهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطن، والاشتغال بمهمات الدين؛ فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله، وفضائله كثيرة وورعه وتقواه وزهده أمور مشهورة، فدع عنك أقوال البطالين المغترين بظواهر الأشياء الموافقة لهواهم، ولا ينظرون إلى باطن الأمر والحقيقة.

وأما قوة حفظه للأصول والفروع وما فتح الله تعالى عليه من العلم في المحافل؛ فمن ذلك نبذ مما ذكره ابن الخطيب في تفسيره الكبير قال رجل لأبي حنيفة : إني حلفت ألا أكلم امرأتي حتى تكلمني، وحلفت بصدقة ما تملك أن لا تكلمني حتى أكلمها، فتحيرت الفقهاء فيه، فقال سفيان الثوري : من كلم صاحبه حنث، فقال أبو حنيفة : اذهب وكلمها ولا حنث عليكما، فذهب الرجل إلى سفيان الثوري وأخبره بما أفتى أبو حنيفة، فذهب سفيان إلى أبي حنيفة مغضباً وقال له : أتبيح الفروج؟ قال : وما ذاك؟ قال سفيان : أعيدوا السؤال على أبي حنيفة، فأعادوه فأعاد أبو حنيفة الفتوى، فقال سفيان: من أين؟ فقال أبو حنيفة : لما شافهته باليمين بعد ما حلف كانت مكملة له فسقطت عنه، فإن كلمها فلا حنث عليه ولا عليها، لأنه قد كلمها بعد اليمين، فسقطت اليمين عنها وعنه، فقال سفيان: إنه انكشف لك من العلم عن شيء كلنا عنه غافلون.

ويحكى أنه توفي لرجل جليل القدر ولد وحملت الجنازة، وتوسطت الطريق ولم تصل إلى الجبّانة؛ فرأى الرجل أم ولده الميت شاقة الوجه، فحلف بطلاقها الثلاث أنها ترجع، وحلفت بعتق عبدها وجواريها وصدقة ما تملك أنها لا ترجع حتى تصلي عليها، وكان في الجنازة كبار العلماء، فسألوا سفيان الثوري وغيره فقالوا : أحدهما حانث، فسألوا أبا حنيفة فقال : حطوا الجنازة فحطوها، فقال لها : صل على ابنك فصلت عليه، فقال لها : ارجعي فقد صليت على ابنك، وانحلت يمينك؛ فقال سفيان كمقالته الأولى.

وعن الليث بن سعد قال : جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال له : لي ابن ليس محمود السيرة، أشتري له الجارية فيعتقها، وأزوجه المرأة بالمال العظيم فيطلقها، قال : اذهب به إلى سوق النحاسين، فإن وقعت عينه على جارية فابتعها لنفسك وزوجها منه، فإن طلقها عادت إليك مملوكة، وإن أعتقها لم ينفذ عتقها؛ قال الليث : فأعجبني جوابه كما أعجبتني سرعته.

وروي أن رجلاً حلف ليقربن امرأته نهاراً في رمضان، فاستفتى من العلماء فلم يعرف أحد وجه الجواب؛ فقال أبو حنيفة : يسافر مع امرأته فيطأها نهاراً.

ومن بركة أبي حنيفة رضي الله عنه فتح على أصحابه في الفقه ما لا يحصى عدداً؛ فمن ذلك ما روي أن الرشيد قال لأبي يوسف يوماً : عند جعفر بن يحي جارية هي أحب الناس إلي وقد عرف ذلك مني فحلف لا يبيعها ولا يهبها

ولا يعتقها، وهو الآن يطلب حل يمينه؛ فقال : يهب النصف ويبيع النصف ولا يحنث.

وروي عن محمد بن الحسن رحمه الله أنه قال : كنت نائماً ذات ليلة، إذ أنا بالباب يقرع فقلت : انظروا من هذا؟ فقيل : رسول الخليفة يدعوك، فخفت على روحي، فقمت ومضيت؛ فلما دخلت عليه، فقال : دعوتك لمسألة أن أم محمد يعني زبيدة، قلت لها : إني إمام العدل وإمام العدل في الجنة، فقالت لي : إنك ظالم عاص قد شهدت لنفسك بالجنة وكذبت بذلك على الله وحرمت عليك، فقال : قلت يا أمير المؤمنين إذا أوقعت معصية فهل تخاف من الله في تلك الحالة أو بعدها فقال أخافه خوفاً شديداً، فقلت له : فأنا أشهد أن لك جنتين لا جنة واحدة؛ قال الله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾؛ فلاطفني وأمرني بالانصراف، فلما رجعت إلى داري رأيت البدر تتبادر إلي.

وروي أن أبا يوسف أتاه ذات ليلة رسول الخليفة فدق عليه الباب فخاف على نفسه، فلبس إزاره ومشى خائفاً وجلاً إلى دار الخليفة، فلما دخل عليه وسلم فرد عليه السلام، فعند ذلك سكن روعه، ثم قال له الرشيد : إن حُليا لنا غاب عن الدار فاتهمت به جارية من خواص الجواري، فحلفت لتصدقيني وإلا قتلتك، وقد ندمت فاطلب لي وجهاً، فقال أبو يوسف : فيأذن لي أمير المؤمنين بالدخول عليها، فأذن له قال : فرأيت جارية

كأنها فلقة قمر، فأخلى المجلس لها فقلت لها : أمعك الحلي، فقالت : لا والله، فقلت لها : احفظي ما أقول لك، ولا تزيدي عليه ولا تنقصي منه، فإذا دعاك أمير المؤمنين وقال : أسرقت الحلي؟ فقولي : نعم، وإذا قال لك : هاتيه فقولي : والله ما سرقته، ثم خرج أبو يوسف إلى مجلس الرشيد وأمرنا بإحضار الجارية فأحضرت، فقال للخليفة : سلها عن الحلي؟ فقال لها : أسرقت الحلي؟ فقالت : نعم، قال : فهاتيه؛ فقالت : والله ما سرقته؛ فقال أبو يوسف : قد صدقت يا أمير المؤمنين في الإقرار وفي الإنكار وانحلت يمينك فلا حنث عليك، فسكن غضب الرشيد وأمر أن يحمل إلى دار أبي يوسف مائة ألف درهم، فقيل : إن الخازن غائب فلو أخرنا ذلك إلى الغد، فقال : إن القاضي اعتسر الليلة فلا يؤخر عنه إلى الغد.

وتخاصم رجلان إلى ابن شبرمة فقضى على أحدهما، فأتى أبا حنيفة فأخبره بذلك فقال : هذا خطأ، وكتب له في ذلك كتابا بالذي كان ينبغي لابن شبرمة أن يحكم به، فأتاه الرجل بالكتاب وعنده ابن أبي ليلى، فاستحسناه واعترفا بأنه الصواب وقالا : من كتب هذا فقال : أبو حنيفة فوصلاه بالوقيعة فبلغ ذلك أبا حنيفة فأنشأ يقول:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم

قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

وكان يحي بن معين إذا سمع من يتكلم في أبي حنيفة رحمه الله تعالى

يقول :

حسـدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقـوم أعـداء له وخصـوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها
حسـداً وبغضـاً إنـه لذميم

وكلام العلماء بعضهم في بعض لا يلتفت إليه، لأن من صحت إمامته وعظمت بالعلم عنايته، لا يبالي من القيل والقال، ولا يتأثر لما رمي به من نقيصة بحال، فانظر كيف سمي أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى أصحاب الرأي نبزاً، وذلك لرسوخ علمهم وقوة عزيمتهم ووفور فهمهم، هذا وليس لهم بذلك اختصاص.

قال ابن قتيبة في كتاب المعارف له : أصحاب الرأي : محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ولي القضاء لبني أمية وبني العباس، وربيعة الرأي، والأوزاعي واسمه عبد الرحمن بن عمرو، وسفيان بن سعيد الثوري، ومالك بن أنس المدني، وزفر بن الهذيل بن قيس من بني العنبر يكنى أبا الهذيل وكان أبو الهذيل على أصبهان.

وأما مالك بن أنس رضي الله عنه فإنه أيضاً كان متحلياً بهذه الخصال، فإنه سئل: ما تقول في طلب العلم؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه، وكان رحمه الله في تعظيم الدين مبالغاً

حتى كان إذا أراد أن يحدث عن رسول الله ﷺ توضأ وتطيب وجلس وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث، فقيل له في ذلك؟ فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ.

وكان إذا حدث بحديث عن رسول الله ﷺ ترشح جبينه عرقاً هيبة وتعظيماً لحديث رسول الله ﷺ، وقال : العلم نور يجعله الله تعالى في قلب من يشاء، ليس ذلك بكثرة الرواية.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقال : شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري، ومن يريد بعلمه غير وجه الله تعالى فلا تسمح نفسه بأن يقر عليه أنه لا يدري ولا سيما إذا كان إماماً مشهوراً.

وروي أن أبا جعفر الخليفة منع مالكاً من روايته في الحديث في طلاق المكره، وقال له : لا تحدث بذلك أحداً ثم دس عليه من سأله عن ذلك سراً فروى على ملأ من الناس بصوت جهير : ليس على مستكره طلاق، ولم يلتفت إلى قول الخليفة في ذلك ولا عَبَأ به، فضربه بالسياط؛ وبعد ذلك كله لم يترك روايته في الحديث.

وكان الضارب له من أهل بيت رسول الله ﷺ فكان كلما ضربه سوطا حرك مالك شفتيه، فقيل له في ذلك بعد الضرب؟ فقال : جعلت الضارب في حل، فإني أخاف أن يعذب أو يعاقب أحد بسببي من أهل بيت رسول الله ﷺ.

ولم يكن لمالك رحمه الله في المدينة دار يملكها، وكان يسكن بالكراء؛ فهذا يدلك على زهده رحمه الله، ولقد سأله الرشيد : هل لك دار؟ فقال : لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال : اشتري بها داراً فأخذها ولم ينفقها.

فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك : ينبغي أن يخرج معنا فإني عزمت أن أحمل الناس على موطأك كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا، فعند أهل كل مصر علم، وقد قال رسول الله ﷺ : «**اختلاف أمتي رحمة**».

وأما الخروج معك فلا سبيل إليه، وقال رسول الله ﷺ : «**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**»، وقال عليه السلام : «**المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد**».

وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها؛ يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته لدي، فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ؛ وهذا أيضا يدلك على زهده.

ومما يدل على زهده وسخائه وقلة حبه الدنيا واستحقاره لها أنه لما حمل إليه الأموال الكثيرة من أطراف البلاد لانتشار علمه كان يفرقها جميعا في وجوه الخير، ولقد قال الشافعي : إني رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر لم أر أحسن منها، فقلت لمالك : ما أحسنها؟ فقال :

هي هدية لك مني يا أبا عبد الله، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال : إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة، وكان يمشي على قدميه توقيراً لتربة المدينة إجلالاً لرسول الله ﷺ.

وما روي عنه أنه قال : دخلت على هارون الرشيد، فقال : يا أبا عبد الله، ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، فقال له مالك : العلم يؤتى ولا يأتي، فقال : صدقت أخرجوا أولادي إلى المسجد، فكانوا يسمعون مع الناس ليس لهم مزية على غيرهم أصلاً.

وقال سفيان بن عيينة : مالك رحمه الله تعالى هو المعني والمشار إليه في قوله ﷺ : «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة**»؛ وناهيك بهذا شرفاً.

وقد روي أن بعض العباد المشهورين بالخير والصلاح كتب إلى مالك رحمه الله يحثه على الانفراد للعبادة وترك مجالسة الناس، فكتب إليه مالك رحمه الله : إن الله تعالى قسم بين عباده الأعمال كما قسم بينهم الأرزاق، فرب رجل فتح له في كذا، ولم يفتح له في كذا؛ ورب رجل فتح له في كذا، ولم يفتح له في كذا، فَعَدّ أنواع البر كلها، ثم قال: وما أظن أن ما أنت فيه أفضل مما أنا فيه، وكلانا على خير إن شاء الله تعالى، وفضائله أكثر من أن تحصى؛ وفي هذا القدر كفاية.

وأما الشافعي رضي الله عنه فقد روي عنه أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً

للعلم، وثلثاً للصلاة، وثلثاً للنوم؛ وقال الربيع : كان الشافعي يختم القرآن في رمضان ستين مرة، كل ذلك في الصلاة؛ وكان بعض أصحابه يختم القرآن كل يوم مرة، وقال بعض أصحابه : بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين، ولا بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المسلمين؛ وكأنما جمع له الرجاء والرهبة معاً؛ فانظر رحمك الله تعالى كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن، وتدبره فيه.

وقال الشافعي رحمه الله : ما شبعت منذ ستة عشرة سنة، لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم؛ فيضعف صاحبه عن العبادة؛ فانظر رحمك الله إلى حكمته وتفطنه لذكر آفات الشبع، ثم في جده في العبادة إذ طرح الشبع لأجله، فإن رأس التعبد تقليل الطعام.

وقال الشافعي رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى صادقاً ولا كاذباً، فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى، وذلك دليل على علمه بجلال الله تعالى؛ وسئل يوماً عن مسألة؟ فسكت، فقيل له : ألا تجيب رحمك الله؟ فقال : لا أدري، الفضل في سكوتي أم في الجواب؛ فانظر في مراقبته لأحواله.

وقال الشافعي رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب.

وأما زهده رحمه الله فثابت واضح لا ينكره إلا مخدوع جاهل، وقرأ بعض القراء بين يدي الشافعي رحمه الله : ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾؛ فتغير لونه واقشعر جلده، واضطرب شديداً وخر مغشياً عليه، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بالله من مقام الكذابين وإعراض الغافلين.

وأوصى الشافعي رحمه الله بعض أصحابه قال : اعلم يا أخي أن من صدق الله تعالى نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غداً، ثم قال : كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين.

وقال : من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه، ومن أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره؛ وقال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما ينسب إلي منه شيء، فانظر كيف اطلع على آفات العلم، وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه، متجرد النية لله تعالى.

وقال ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله تعالى الحق على لساني أو على لسانه؛ وأقواله وأحواله كثيرة مشهورة لا تكاد تحصر وأظهر من أن تذكر.

وأما أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رضي الله عنهما فاشتهارهما بالزهد والورع أظهر من أن يذكر، وأشهر من أن يحتاج أن يسطر؛ وإنما ذكرت هؤلاء الأئمة

لأنهم هم الذين كثر أتباعهم في المذاهب، فانظر رحمك الله حجة من زعم أنه متبع لواحد منهم في أي خصلة اتبعه؛ قال الله تعالى : ﴿نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

وأما علماء السلف رضي الله عنهم فاشتهارهم أيضا بالورع وحقيقة التقوى والزهد والإقبال على ما يعني أظهر من الشمس، وجميع هذا الكتاب مشحون بطريقتهم وحكاية أفعالهم وأقوالهم فلا حاجة إلى التفصيل.

قال بعض السلف : من لم ينتفع بسكوت العالم لم ينتفع بكلامه، أي ينبغي أن يتأدب بصمته وخشوعه وورعه ومتابعة السنة، ويقتدى به في ذلك كما يتأدب بنطقه، فإن العلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى والدعوة إليه والاقتداء بهم في أعمال القلوب ومتابعة السنة.

قال الثوري رحمه الله : كان الناس إذا طلبوا العلم عملوا، وإذا عملوا أخلصوا، وإذا أخلصوا هربوا إلا فيما لا يحل لهم المهرب منه، وقد ظهر بما ذكرناه أن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك؛ وذلك لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس، والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها، ولأن العلم مصحح لغيره من العبادات، فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه ولا يتوقف هو عليها، ولأن العلم يبقى بعد موت صاحبه، وغيره من النوافل ينقطع بموت صاحبها؛ ولأن في

بقاء العلم إحياء الشريعة وحفظ معالم الملة.

واعلم أن جميع ما ذكرناه من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة أو مماراة أو مفاخرة؛ فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يكاثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار**».

وسأل فرقد الحسن البصري عن شيء، فأجابه فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال له الحسن: ثكلتك أمك فريقدة، وهل تعلم الفقيه؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بذنبه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم.

وقال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بالعلم، إنما هو قاص والعالم من عمل بما علم.

وقال ﷺ: «**لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتماروا به السفهاء أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار**».

وقال عليه السلام: «**من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد الله إلا**

بعداً»؛ وقال عمر ﵁ : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم، قيل : وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال ﵁ : عليم اللسان، جاهل القلب والعمل.

وقال الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء.

واعلم أن علامات العلماء المحققين كثيرة، منها ألا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها؛ ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين؛ فمهما أرضى إحديهما أسخط الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان، فمهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، ومن لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بإثمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل؛ فإن المشاهدة والتجربة تشهد بذلك.

فكيف يعد من العلماء من لا عقل له، ومن لا يعلم عظم الآخرةِ ودوامها، فهو مسلوب الإيمان، فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة، وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع، وفي حكم المستحيل فهو جاهل بشريعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكيف يعد من زمرة العلماء، فإذا عرف هذا كله ولم يؤثر الآخرة على الدنيا، فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته، فكيف

يعد من العلماء من هذه درجته.

وفي أخبار داود عليه السلام : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود لا تسأل عني عالماً قد أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي.

وقال بعض العلماء : قرأت في بعض الكتب السالفة أن الله عز وجل يقول : إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه.

وقال الحسن البصري : عقوبة العلماء موت القلوب، وعلامة موت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة، وقال عمر رضي الله عنه : إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يحرص فيما يحب.

وكتب بعض العلماء إلى بعض إخوانه : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم، وقال سهل : الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء سكارى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصين، والمخلصون على وجل لأنهم لا يدرون بم يختم لهم.

وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾، ووصف

علماء الآخرة بالخشوع والزهد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾.

وقال ﷺ: «**إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع**»، وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي الصمت السلامة.

ومنها أن لا يخالف قوله فعله، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن عاملاً به، قال الله تعالى في ذم المتصفين بهذا الوصف: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال الله تعالى لعيسى عليه السلام: (يا ابن مريم عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس؛ وإلا فاستحي مني).

وقال عليه السلام: «**مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت: من أنتم؟ فقالوا: كنا نأمر بالخير ولا نأتيه، وننهى عن الشر ونأتيه**».

وقال الشعبي: يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهى عن الشر ونفعله.

وقال ابن السماك: كم من مذكر بالله ناس لله تعالى، وكم من مخوف بالله جريء على الله، وكم من مقرب إلى الله بعيد عن الله، وكم من داع إلى الله فارّ من الله تعالى، وكم من قارئ لكتاب الله منسلخ من آيات الله.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يقرأونه مثل الغناء ليسوا بخياركم.

ومنها أن تكون عنايته في تحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعة، مجتنباً لعلوم الجدال وما يقل نفعه مما يكثر فيه القيل والقال.

روي عن شقيق البلخي رحمه الله تعالى أنه قال لتلميذه حاتم الأصم: منذ كم صحبتني؟ فقال له حاتم: منذ ثلاثين سنة، قال: فما تعلمت مني في هذه المدة؟ فقال: ثمان مسائل؛ قال شقيق: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل، فقال: يا أستاذ، لم أتعلم غيرها؛ فقال: هات هذه المسائل حتى أسمعها، قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه فجعلت الحسنات محبوبي فإذا أدخلت إلى القبر دخل معي، فقال أحسنت يا حاتم؛ فما الثانية؟ قال: نظرت في قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، فعلمت أن قوله تعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى

حتى استقرت في طاعة الله تعالى؛ قال : أحسنت يا حاتم فما الثالثة؟ قال: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من كان معه شيء له قيمة عنده ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت في قول الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾، فكلما وقع معي شيء له مقدار وقيمة وجهته إلى الله تعالى ليبقى لي عند ربي محفوظاً؛ قال : أحسنت يا حاتم فما الرابعة؟ قال : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال والحسب والشرف والنسب، فنظرت فإذا هي لا شيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾، فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً، قال : أحسنت يا حاتم فما الخامسة؟ قال : نظرت إلى هذا الخلق، فإذا بعضهم يطعن في بعض ويلعن بعضهم بعضاً، فنظرت فإذا أصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾، فتركت الحسد وأحببت الخلق، وعلمت أن القسم من عند الله تعالى، وتركت معاداة الخلق عني، قال : أحسنت يا حاتم فما السادسة؟ قال: إني نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾، فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه، لأن الله تعالى قد شهد عليه أنه عدو لي وتركت عداوة الخلق، قال : أحسنت يا حاتم فما السابعة؟ قال : إني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيدخل نفسه فيما لا يحل له فنظرت في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت ما لي عنده قال: أحسنت يا حاتم فما الثامنة؟ إني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت هذا متكلا على صنعته وهذا على تجارته وهذا على ضيعته وهذا على صحة بدنه وهذا على ماله وهذا على مخلوق مثله فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، فتوكلت على الله تعالى؛ قال شقيق: يا حاتم، وفقك الله، إني نظرت في علم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم؛ فوجدت جميع أنواع الخير والديانة تدور على هذه الثمان مسائل التي تعلمتها مني.

فهذا الفن من العلم يهتم بإدراكه والتفطن له ومنها أن يؤثر الاقتصاد في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه تشبيهاً بالسلف الصالح.

قال يحي بن معاذ الرازي: إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب الدنيا بهما، وكان يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية؛ فأين المحمدية؟ وأنشدوا:

وراعي الشاء يحمي الذيب عنها
فكيف إذا الرعاة لها ذياب

وروي عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تجلسوا عند كل عالم إلا عالماً يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى**

الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة».

وقال حاتم الأصم: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً، فعملوا به، ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه، وهلك.

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب، كما يزل القطر عن الصفا؛ وأنشدوا في المعنى:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً
إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها

وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الحسن: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فوالله لا يؤاجركم الله حتى تعملوا، فإن السفهاء همتهم الرواية، والعلماء همتهم الرعاية.

وحكي عن أبي عبد الله الخواص ـ وكان من أصحاب حاتم الأصم ـ قال: دخلت مع حاتم الري ومعنا ثلاثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج، وليس معهم جراب ولا طعام، فدخلنا على رجل يحب المساكين، فأضافنا تلك الليلة؛ فلما كان من الغد قال لحاتم: ألك حاجة؟ فإني أريد أن أعود

فقيهاً لنا هو عليل، فقال حاتم: عيادة المريض لها فضل، والنظر إلى الفقيه عبادة، فأنا أيضاً أجيء معك، وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الري؛ فلما جئنا إلى الباب فإذا هو مشرف حسن، فبقي حاتم متفكراً يقول: باب عالم على هذه الحالة، ثم أذن لهم فدخلوا، فإذا هم بدار ذات بز وسعة وستور، فبقي حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه، فإذا هو بفرش وطية وهو راقد عليها وعند رأسه غلام بيده مذبة، فقعد الرازي وسأل وحاتم قائم، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس، فقال: لا أجلس، فقال: لعل لك حاجة، فقال: نعم، فقال: ما هي؟ فقال: مسألة أسألك عنها، قال: سل، قال: فاستوِ جالسا حتى أسألك، فاستوى قال حاتم: علمك هذا من أين أخذته؟ قال: الثقات حدثوني به، قال: عن من؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ، قال: وأصحاب رسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن رسول الله ﷺ، قال: ورسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن جبريل عليه السلام عن الله سبحانه وتعالى، قال حاتم: ففيما أداه جبريل عليه السلام عن الله تعالى إلى رسول الله ﷺ، وأداه رسول الله ﷺ إلى أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وأصحابه إلى الثقات، وأداه الثقات إليك؟ هل سمعت في العلم أن من كان في داره أميراً وسعته أكثر كان له عند الله المنزلة أكثر؟ قال: لا، قال: فكيف سمعت؟ قال: سمعت أن من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كان له عند الله عز وجل المنزلة؛ قال له حاتم: فأنت بمن اقتديت أبالنبي ﷺ وأصحابه الصالحين رضي الله عنهم أم بفرعون وثمود أول من بنى بالجص

والآجر؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة، أفلا أكون أنا شراً منه فخرج من عنده، فازداد ابن مقاتل مرضاً، وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل، فقالوا لحاتم : إن الطنافسي بقزوين أكبر سناً منه، فسار حاتم إليه قصدا فدخل عليه فقال : يرحمك الله، أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبدأ ديني ومفتاح صلاتي، كيف أتوضأ للصلاة؟ قال : نعم حباً وكرامة، يا غلام هات إناء فيه ماء فأتي به، فقعد الطنافسي وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : هكذا فتوضأ، قال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل الذراعين أربعاً، فقال له الطنافسي : يا هذا أسرفت، قال له حاتم : فيما ذا ؟ قال : غسلت ذراعيك أربعاً، قال حاتم : يا سبحان الله أنا في كف ماء أسرفت وأنت في الجمع كله لم تسرف، فعلم الطنافسي أنه قصد ذلك دون التعلم، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً؛ فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد، فقالوا : يا أبا عبد الرحمن، أنت رجل ألكن أعجمي ليس يكلمك أحد إلا قطعته، قال: معي ثلاث خصال، بهن أظهر على خصمي : أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي ألا يجهل عليه، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل؛ فقال : يا سبحان الله، ما أعقله؛ قوموا بنا إليه، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا عبد الرجمن، ما السلامة من الدنيا؟ قال : يا أبا عبد الله، لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك،

وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيسا؛ فإذا كنت هكذا سلمت.

وحكي أن يحي بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك بن أنس : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد في الأولين والآخرين؛ من يحي بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس أما بعد؛ فقد بلغني أنك تأكل الدقاق، وتلبس الرقاق، وتجلس على الوطي، وتجعل على بابك حجاباً؛ وقد جلست مجلس العلم، وضربت إليك المطي، وارتحل إليك الناس فاتخذوك إماماً، ورضوا بقولك؛ فاتقِ الله يا مالك، وعليك بالتواضع؛ كتبت إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطلع عليه إلا الله تعالى والسلام.

فكتب إليه مالك : بسم الله الرحمن الرحيم؛ من مالك بن أنس إلى يحي بن يزيد؛ سلام عليك أما بعد، فقد وصل إلي كتابك، ووقع مني موقع النصيحة في الشفقة والأدب، أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فأما ما ذكرت من أني آكل الدقاق وألبس الرقاق، وأحتجب وأجلس على الوطي؛ فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾؛ وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، ولا تدعنا من كتابك، فلسنا ندعك من كتابنا والسلام.

فانظر إلى إنصاف مالك مع علو منصبه، إذ اعترف بأن ترك ذلك خير، وأفتى بأنه مباح، وقد صدق فيهما جميعاً، ومثل مالك في منصبه إذ

سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة، فتقوى أيضاً نفسه على الوقوف على حدود المباح، حتى لا يحمله أكله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات؛ وأما غيره فلا يقدر عليه.

واعلم أن التعريج على التنعم في المباح خطر عظيم، وهو بعيد من الخوف والخشية، وخاصية علماء الله الخشية، وخاصية الخشية التباعد عن مظان الخطر، ومنها أن يكون منقبضاً عن السلاطين، لا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً، بل ينبغي أن يحترز من مخالطتهم وإن جاءوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي الملوك، والمخالطة لا تخلو عن تكلف في مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة.

ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم، وتقبيح فعلهم؛ فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم، أو يتكلف في كلامه لمرضاتهم ويحسن حالهم، وذلك البهت الصريح أو يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت؛ وفي الجملة فمخالطتهم مفتاح لشرور عدة، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط.

وقال النبي ﷺ: «**العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم**».

وقال سعيد بن المسيب : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص.

وقال عليه السلام : «**شر العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء**».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري : أما بعد؛ فأشر علي بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى؛ فكتب إليه : أما أهل الدين فلم يريدوك، وأما أهل الدنيا فلم تردهم، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة؛ وأنشد بعضهم:

قل للأمير نصيحة لا تطمئن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

فانظر أيها العالم منة الله عليك حيث جعلك مفسراً لكلامه، ووارثاً لأنبيائه عليهم أفضل الصلاة والسلام، على لسان نبيه ﷺ، وداعياً لخلقه، وواعظاً لعباده، وسراجا لأهل بلاده، وقائداً للخلق إلى جنته وثوابه بالترغيب، وزاجراً لهم عن ناره وعقابه بالترهيب؛ وفي الحديث : «العلماء سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة».

ومنها أن لا يكون متسارعاً إلى الفتوى، بل يكون متوقفاً ومتحرزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب أو

نص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدري، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية، هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم؛ وفي الخبر : العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري.

قال الشعبي : لا أدري نصف العلم، ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى ليس أقل أجرا ممن نطق، لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس؛ وهكذا كانت عادة الصحابة رضي الله عنهم والسلف رحمهم الله، كان ابن عمر إذا سئل عن الفتوى قال : اذهبوا إلى الأمير الذي تقلد أمور المسلمين فيضعها في عنقه.

قال ابن مسعود : جنة العالم لا أدري، فإذا أخطأه أصيبت مقاتله؛ وقال مالك رحمه الله : من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة ثم يجيب؛ وقال إبراهيم بن أدهم : ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول : انظروا إلى هذا سكوته أشد علي من كلامه.

وكان ابن عمر يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع، وكان من الفقهاء من يقول : لا أدري أكثر من أن يقول : أدري؛ منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحارث وعبد الرحمن بن أبي ليلى؛ وقال ابن أبي ليلى : أدركت في

هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم من أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك؛ وفي لفظ له :كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول.

فانظر الآن كيف انعكس الأمر فصار المهروب عنه مطلوباً والمطلوب مهروباً عنه، وروي : لا يفتي الناس إلا ثلاثة أمير أو مأمور أو متكلف؛ وكانت الصحابة رضي الله عنهم يتدافعون أربعة أشياء : الإمامة والوديعة والوصية والفتوى.

ومنها أن تكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وأوصاف العبودية وما يليق بلباسها المعنوي وما لا يليق، وكيفية التخلي عن الأوصاف الذميمة والتحلي بالأوصاف المحمودة اللائقة بالعبودية، ويكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين وإن القليل منه هو خير من كثير من العمل.

قال رسول الله ﷺ : «**من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار**»؛ فانظر يا أخي لنفسك وإياك أن تغتر بالمغرورين المخدوعين المشتغلين بما لا يعنيهم وما هو في الأغلب عليهم، ويزعمون أنهم في خير وعلى خير وهم داخلون تحت قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ

سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ الآية.

وهذه الآية وإن نزلت فيمن نزلت فكل نوع من المغترين العاملين على جهل واغترار ويظنون أنهم على خير وحقيقة الأمر ترد عليهم لهم حظ من هذه الآية، على قدر ما تلبس به من الجهالة والاغترار، عرفنا الله أقدارنا تعريف عناية وهداية وخلاص من كل الأسواء بمنه وكرمه؛ وهذا ما اختصرناه في فضل العلم والعلماء وأهله فهذا القدر كاف، ولنرجع إلى ما نحن بصدده في شرح هذه القصيدة.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وقل طلب العلم الحديث وفرضه
تطلُّب علم الحال لا الكل مشملا

وما وقعه في كل حال مكون
تعلمه فرض على مسلم علا

فلا بد فيها من صلاة تقيمها
تعلم ما فيها فريضة انقلا

بمقدار ما أدى بذاك فرائضا
وما واجب فيها فحتم فحصّلا

كذلـك في حـج وصـوم لقـادر
كـذا في زكاة لـلذي قـد تمـولا

كـذا في بيـوع ثـم سـائر حرفـة
لمـن كان هـذا باصطنـاع تحمـلا

اعلم أن العلماء اختلفوا في العلم الذي هو فرض على كل مسلم المستفاد فرضيته من قوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»؛ فقال المتكلمون: هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد، ويبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الكائنات من المبدأ إلى المعاد على قانون الإسلام.

وقال الفقهاء: هو الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل منها، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة.

وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه بيان الإسلام، وهو قوله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**»؛ لأن الواجب على كل مكلف هذه الخمس، فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب، ويترتب عليه فيها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما، وهو قوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا يجب عليه أن يحصل ذلك بطريق الكشف بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب

واضطراب نفس، وذلك يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث وبرهان؛ لأن رسول الله ﷺ اكتفى من أجلاف الأعراب بالتصديق والإقرار من غير تعليم دليل.

فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عليه في الوقت تعلم الكلمة وفهمها، وليس عليه شيء في هذا الوقت غير هذا بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله تعالى غير عاص، وإنما يجب عليه غير ذلك لعارض يعرض، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك عنه، وذلك العارض إما الفعل أو الترك أو الاعتقاد.

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة النهار إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فقيل: يجب عليه تقديم التعلم على الوقت، وقيل: لا يجب قبل دخول الوقت؛ لأن العلم الذي هو شرط صحة العمل لا يجب إلا بعد وجوب العمل، وهكذا بقية الصلوات، فإن دخل عليه شهر رمضان تجدد بسببه تعلم الصوم، وهو أن يعلم أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس، وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والجماع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية هلال شوال، فإن كان له مال لزمه تعلم ما يجب من الزكاة، ولا يلزمه إلا بعد مضي الحول من وقت بلوغه أو إسلامه أو إعتاقه، فإذا دخل عليه أشهر الحج لا تلزمه المبادرة إلى علم أفعال الحج، لأن فعله على التراخي، فلا يلزمه علمه على الفور.

ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج يجب عليه من حين البلوغ أو الإسلام أو العتق ولكنه على التراخي لمن استطاع إليه سبيلاً، وأن الاستطاعة ما هي حتى يعلم أن من ملك الزاد والراحلة وكان الطريق آمناً ولم يحج يخاف عليه من الوعيد المستفاد من قوله ﷺ: «**من ملك زاداً أو راحلة يبلغانه إلى مكة ولم يحج إن شاء مات يهودياً أو نصرانياً**»، لأنه ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة، فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج.

ولا يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، وهكذا التدرج في علم سائر الأعمال التي هي فرض عين، وأما الترك فيجب عليه علم ذلك بحسب ما يتجدد عليه من الحال، وذلك يختلف باختلاف حال الشخص، إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، وإنما يجب عليه حسب ما يقتضيه حاله فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه، ولا ما هو ملابس له بل يجب تنبيهه فيه كما إذا كان بين المسلمين لابس الحرير أو جالس في غصب أو ناظر إلى غير محرم، فيجب تعريفه ذلك وما ليس ملابساً له، ولكن بصدد التعرض له على القرب كالأكل، فيجب عليه تعليمه حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب عليه تعلمها ليتوصل به إلى إزالة الشك بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك قبل أن يتعلم تفاصيل أصول الدين ومات فقد مات على الإسلام إجماعاً.

وينبغي أن يبادر إلى الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تتمة كلمتي الشهادة، فإنه بعد التصديق بكونه رسولاً ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها وهو أنه من أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ فله الجنة ومن عصا الله تعالى ورسوله ﷺ فله النار.

وهذا هو المذهب الحق لأن كل مكلف فهو في مجاري أحواله في يومه وليلته، لا يخلو عن وقائع في عباداته ومعاملاته، إن تجدد عليه لوازم فيلزمه السؤال عن كل ما يقع من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على التقرب غالباً، فإذا تبين أنه ﷺ إنما أراد بالعلم المعرف بأل في قوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير؛ وقد اتضح وجه التدريج في وقت وجوبه.

واعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام والصلاة والحلال والحرام؛ أما الإسلام فيتكلم فيما يصح منه وما يفسد وفي شرطه وعمله على اللسان لقوله ﷺ: «**أمرت أن**

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى».

أما أعمال القلب فخارجة عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال: «**ألا شققت عن قلبه**»؛ في الذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف، فالفقيه يحكم بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف.

وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأقوال، بل أنوار القلوب وأسرارها وأخلاقها وليس ذلك من فن الفقيه، وأما الصلاة فالفقيه يفتي بصحتها إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولاً بالفكر في جليات معاملاته في السوق إلا عند التكبير، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة، وكذا القول باللسان في الإسلام لا ينفع، ولكن الفقيه يفتي بالصحة لأن ما فعله يحصل به امتثال صيغة الأمر.

وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع بمطالبة السلطان حتى لو امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً برئت ذمته، وأما الحلال والحرام فالورع من الحرام من الدين، ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشاهد، وهو الذي يخرج به الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية، وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر.

الثانية : ورع الصالحين، وهو التوقي عن الشبهات التي تتقابل فيه الاحتمالات، قال ﷺ : «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**».

الثالثة : ورع المتقين، وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداه إلى الحرام، قال ﷺ : «**لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس**».

الرابعة : ورع الصديقين، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى، خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد، زيادة قرب عند الله تعالى، وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى، وهي ورع الشهود والقضاة وما يقدح في العدالة، والقيام بذلك لا ينفي الإثم في الآخرة، وبعضهم يقول : حد معرفة الله تعالى ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام، وهو أنه تعالى موجود عالم قادر سميع بصير متكلم، ويعبر بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى يتضح عليه الحق في هذه الأمور إيضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد يتراكم صداها وخبثها بقاذورات الدنيا.

والمراد بعلم الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله تعالى، وعن معرفة صفاته وأفعاله وتصفيته وتطهيره بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء عليهم السلام في جميع أحوالهم،

فبقدر ما يتجلى من القلب ويحادي به شطر الحق تتلألأ فيه حقائقه، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة؛ وهذا العلم هو الذي أراده عليه السلام بقوله : «**وإن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا أهل العلم بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله سبحانه وتعالى فلا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً فإن الله تعالى لم يحقره إذ آتاه**».

وأما علم المعاملة؛ فهو علم أحوال القلب، ومنها ما هو محمود كالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاوة، ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال، والإحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص.

فمعرفة هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وثمراتها وعلاقاتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود فذلك كله من علم طريق الآخرة ومنها ما هو مذموم كخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والتنافس والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعني وحب كثرة الكلام والتصلف والتزين للخلق والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية

منه وشدة الانتصار للنفس والأمن من مكر الله تعالى في سلب ما أعطى والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والأسف على فواتها والأنس بالمخلوق والوحشة لفراقهم والجفاء والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة.

فهذه وأمثالها من صفات القلب ومغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة، فالعلم بمعرفة حدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمرتها وعلاجها هو علم الآخرة وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة المعرض عنها هالك بسطوة مالك الملوك في الآخرة، كما أن المعرض عن الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتاوى فقهاء الدنيا، فنظر الفقهاء في فروض العين بالنسبة إلى صلاح الدنيا، وهذا بالنسبة إلى صلاح الآخرة، فإن قيل: قوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»؛ عام في الأشخاص وفي كل علم، فيتناول علم الفروع فيفيد وجوب العلم بها والنظر فيها وحرمة التقليد، لأنه إذا وجب العلم وهو الاعتقاد الجازم المطابق للدليل حرم التقليد ضرورة.

أجيب عنه بأنه لا يمكن التمسك بظاهر الحديث، لأن ظاهره يدل على وجوب العلم بالنظر في كل علم بالنسبة إلى كل شخص، ولم يقل أحد بوجوب العلم بالنظر في كل علم في حق كل شخص، فإن المانع من التقليد في الفروع قال بوجوب النظر أو بوجوب القصد إلى النظر، لا بوجوب العلم فإذا

لم يكن الظاهر مراداً افتقر إلى تأويل، ولا يتم المطلوب إلا بدليل دال على إرادة محل النزاع، على أن المراد بالعلم الذي هو فرض عين على كل مسلم علم الحال وليس المراد بالعلم الاعتقاد الجازم المطابق للدليل، بل المراد به أعم من ذلك، وهو علم الحال كما يقال : أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال.

فالعالم إذا كان على حالة مستقيم سنية فيدعو الناس إلى مثل حاله وتكون دعواه بلسان حاله أكثر من لسان مقاله كما قال ذو النون المصري رحمه الله : جالس من يكلمك حاله لا من يكلمك لسانه؛ فإنه إنما ينظر في الغالب إلى العمل لا إلى القول.

وقيل : يعرف عقل العاقل في ثلاثة : طلبه لعلم حاله، وشغله برعاية حاله، وهمته بتخليص حاله، ويعرف حمق الأحمق في ثلاثة : بحثه فيما لا يعنيه وجوابه عما لا يسأل عنه ودخوله فيما لا يدعى إليه، ولقد أنعم الله على عبد جعل همه في فرضه وفكره في صلاح قلبه وشغله في سلامة دينه بمتابعة العلم.

ويجب على المكلف إذا كان يبيع ويشتري أن يعلم ما حكم الله تعالى في هذه المعاملات، روى أبو الليث عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا حتى يعلم مأخذنا من أين أخذناه.

وقال الغزالي والقرافي في قواعده : أجمع المسلمون أنه لا يجوز لأحد

أن يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله تعالى فيه، وقد اختلف العلماء فيمن فعل عبادة على وجه الصحة جاهلاً بتميز فرضها من نفلها وصحتها من فسادها، فقيل تصح لأنه أتى بها على الوجه المشروع، وهو الأصح وعليه الأكثرون؛ وقيل لا تصح لتقصيره وتفريطه في العلم المأمور به في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والمراد بهم أهل العلم، وقيل لمحمد بن الحسن رحمه الله تعالى : ألا تصنف كتاباً في الزهد؟ فقال : صنفت كتابا في البيوع، يعني الزاهد من يحترز عن الشبهات والمكروهات في التجارات؛ قيل : أول ما يجب على التاجر والدلال نشر السلعة، وتعيين العيوب الباطنة والظاهرة، وترك الربا، وكذا في سائر المعاملات والحرف؛ وكل من اشتغل بشيء من الحرف يجب عليه التحرز عن المحارم فيه على القانون الشرعي.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

فما ظنكم بالعلم فضلاً إلا به
لآدم أبدى الله فضلاً مفضلاً

به أسجد الباري ملائكة له
وقد كان للتقوى العزيز توسلا

تعلم فإن العلم أنشد ممثلا
فقيل لشيبان إلى الكنه كملا

وشرف العلم لا يخفى على أحد، إذ هو المختص بالإنسانية؛ لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات كالشجاعة والقوة والجرأة والشفقة وغيرها، سوى العلم به، وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة، وأمرهم بالسجود له؛ وإنما شرف العلم لكونه وسيلة إلى البر والتقوى الذي به تستحق الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية، كما قال محمد بن الحسن رحمه الله تعالى:

تعلـم فـإن العلـم زيـن لأهلـه
وفضـل وعنـوان لـكل المحامـد
وكـن مسـتفيداً كل يـوم زيـادة
من العلم واسبح في بحور الفوائد
تفقـه فـإن الفقـه أفضـل قائـد
إلى الـبر والتقـوى وأعـدل قاصد
هـو العلم الهادي إلى سـنن الهدى
هـو الحصـن ينـجي مـن جميـع
ا لشـد ا ئد
فـإن فقيهـاً واحـداً متـورعاً
أشـد على الشيطان من ألف عابد

قال غيره :

تعلـم إذا كنـت لسـت بعالـم
فمـا العلـم إلا عنـد أهـل التعلم

تعلـم فـإن العلـم أزيـن للفـتى
مـن الحلة الحسـناء عنـد التكلم

ولا خـير فيمـن راح ليـس بعالم
بصـير بمـا يـأتي ولا متعلـم

وقال آخر:

تعلـم فـإن العلـم يلبـس أهلـه
جمـالاً وإن العلـم بالحـر أزيـن

ولا تحقـرن علمـاً فقيمـة كل من
تـراه لعمـري قـدر ما هو يحسـن

قال المصنف رحمه الله تعالى :

كذلـك في خلـق كجـبن وجـرأة
وجـود وبخـل ثـم كـبر تعقـلا

والإسراف والتقتير أو ما حكى بها
إذ البخل والإسراف والجبن أبسلا

ولا شـك في أن التحـرز مـا أتى
بـلا علمهـا والصد دهراً مسـهلا

أي وكذلك في سائر الأخلاق، كالجود والتواضع والعفة وكالبخل والجبن والجرأة والتكبر والإسراف والتقتير، واعلم أن أعمال القلب منها ما هو محمود كالرضا والتواضع والعفة ونحوها، ومنها ما هو مذموم كالبخل والجبن والحسد وغيرها، فهذا النوع حرام ولا يمكن التحرز عنه إلا بعلمها وعلم أضدادها.

قال الغزالي رحمه الله : معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين؛ وقال غيره : إن رزق المكلف قلباً سليماً من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك، ولا يلزمه تعلم دوائها؛ وإن لم يكن قلبه سليماً نظر إن تمكن من تطهير قلبه من دنس ذلك بلا تعلم لزمه التطهير، كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعليم أدلة الترك؛ وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين عليه تعلمه حينئذ؛ وهذا يتعلق بعلوم الآخرة وهو الأصل في هذا الشأن، فإن علماء الظاهر لم يزالوا مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب، وإن كان خارجاً عن حد التكاليف الشرعية لقوله ﷺ : «**أمرت أن أحكم بالظاهر والله متولي السرائر**»، وقوله ﷺ : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه مع جلالة قدره وعلو منصبه يجلس بين يدي شيبان الراعي، كما يقعد الصبي في المكتب، ويسأله كيف يفعل كذا وكذا، فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول : إن هذا وفق لما جهلناه، وكان أحمد بن حنبل ويحي بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي، ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما، وكانا يسألانه؛ ولما سئل النبي عليه السلام قيل له كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، فقال : «**اسألوا الصالحين فاجعلوه شورى بينهم**».

ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت؛ وقال الجنيد رحمه الله : قال لي شيخي السري رحمه الله تعالى : إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ قلت : المحاسبي؛ فقال : نعم الرجل هو، خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين؛ ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث؛ أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه.

ولما مات عمر رضي الله عنه قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : مات تسعة أعشار العلم؛ فقيل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟ فقال : لست أريد علم الفتوى والأحكام، إنما أريد العلم بالله تعالى.

واعلم أن أقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو

علم المكاشفة، وعمل مجرد كعدل السلطان مثلاً وضبطه للناس، ومركب من علم وعمل وهو علم طريق الآخرة؛ فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً فانظر إلى نفسك من أي حزب تكون يوم القيامة، أمن حزب علماء الله تعالى أو من حزب عمال الله تعالى، أو من حزبهما جميعاً، وتضرب بسهمك مع كل فريق منهما؛ فهذا أهم لك من التقليد المحض المجرد للاشتهار.

قال الشاعر في هذا المعنى:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

واعلم أن هذا العلم قسمان : علم مكاشفة، وعلم معاملة؛ وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم، وقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم يخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله، وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه.

وهو علم الصديقين والمقربين؛ أعني علم المكاشفة وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ينكشف في ذلك النور أمور تتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وحكمته في خلق الدنيا والآخرة على سبيل التدريج والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وما بعض أحيان يكون وقوعه
ففرض كفى بالبعض إما تحملا

وإن لم يقم بعض فتأثم كلنا
ولا بد للسلطان إن كان حملا

على علمه جبراً لأهل بلاده
لئلا يكون الكل في الإثم ذللا

وما واقعاً في كل حال فعلمه
كأطعمة لا بد منها لتوكلا

وما بعض أحيان كمثل دوا ضر
ففي بعض أحوال تحوج لتأكلا

وعلم نجوم مثل داء محرم
تعلمه ضر فعن ذاك أزحلا

سوى أنه إما تعلم قدر ما به
خمس أوقات وقبلته أنجلا

اعلم أن حفظ ما يقع في الأحايين فإنه فرض على سبيل الكفاية إذا قام به البعض ببلدة يسقط عن الباقين، فإن لم يكن في البلدة من يقوم به

اشتركوا جميعاً في الإثم، ويجب على الإمام أن يأمرهم بذلك، ويجبر أهل البلدة على ذلك، فإن علم ما يقع في نفسه في جميع الأحوال بمنزلة الطعام لا بد لكل واحد من ذلك، وعلم ما يقع في الأحايين بمنزلة الدواء، يحتاج إليه في بعض الأوقات، وعلم النجوم بمنزلة المرض فتعلمه حرام، لأنه يضر ولا ينفع إلا القدر الذي يستدل به على معرفة القبلة فتعلمه مباح، هذا ما يتعلق بحل ألفاظ الكتاب.

قال الشيخ محي الدين النووي في شرح المهذب : فرض الكفاية هو تحصيل ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية، كحفظ القرآن والأحاديث وعلومها والأصول والفقه والنحو واللغة والتصريف ومعرفة رواة الحديث والإجماع والخلاف؛ وأما ما ليس علماً شرعياً فيحتاج إليه في أمر قوام الدنيا كالطب والحساب، ففرض كفاية أيضاً؛ نص عليه الغزالي.

واختلفوا في تعليم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالخياطة والفلاحة ونحوهما، واختلفوا أيضاً في أصل فعلها؛ فقال إمام الحرمين والغزالي: ليست فرض كفاية، وقال الطبري الهراسي : فرض كفاية، وهذا أظهر؛ ومن كان له قوة فطنة وعزيمة واشتغل بما هو فرض كفاية فيراعي التدريج في ذلك، فيبتدئ بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، ثم يعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ وما يتعلق بأحكامه كالخاص والعام والمشترك والمؤول والظاهر والنص والمفسر والمحكم إلى

آخر أقسام ما يتعلق بنظم القرآن ومعناه، وكذلك في السنة؛ ثم بفروع المذهب الذي يريد الاشتغال فيه وهو علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، ثم هكذا إلى البقية؛ العلم على ما يتسع له العمر ويساعده فيه الوقت.

ولا يستغرق عمره في فن واحد منه طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير والعمر قصير؛ وهذه العلوم آلة ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وهو العمل ويقتصر من علم اللغة على ما يفهم به كلام العرب وغريب القرآن والحديث، ومن النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة وما يحتاج إليه في الفقه وأصوله؛ فالاقتصار من أصول الدين هو مقصود حماية المعتقدات التي نقلتها أهل السنة والجماعة من السلف لا غير، وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقه والاقتصار من علم الطب على ما لا بد منه، لأنه ضروري في حاجة بقاء الأبدان؛ وكذا من الحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها.

وإنما يأثم الكل من تركهما فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهمال علم الطب؛ وأما ما يعد فضيلة لا فريضة كالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب، لأنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه؛ وإنما سمى الشيخ محي الدين النووي النحو واللغة والتصريف من العلوم الشرعية لأنها تجري منها مجرى الآلات، فإنها آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وليس النحو واللغة من العلوم الشرعية في أنفسها، ولكن لزوم الخوض فيها لسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب؛ وأما علم النجوم فإنه يضر بصاحبه في غالب الأمور، ولكنه في نفسه غير مذموم؛ إذ هو قسمان:

قسم حسابي، وقد نطق القرآن أن مسير الكواكب محسوب؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾.

الثاني: الأحكام، وحاصلها يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطبيب على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة مجاري الله تعالى وعادته في خلقه، ولكن ذمه صاحب الشرع.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا**»، وقال عليه السلام: «**أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة وإيمان بالنجوم وتكذيب بالقدر**»؛ وقال عمر رضي الله عنه: «**تعلموا من النجوم ما تهتدوا به في البر والبحر ثم أمسكوا**».

وإنما زجر عن التعمق فيه من ثلاثة أوجه: أحدها أنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي مؤثرة، لأنها جواهر شريفة سماوية يعظم وقعها في القلوب، فيبقى القلب ملتفتاً إليها، ويرى الخير والشر محذوراً ومرجواً من جهتها، ويمحى ذكر الله تعالى عن القلب؛ فإن الضعيف يقصر نظره

عن الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى، مثال نظر الضعيف ضوءَ الشمس عقيب طلوع الشمس مثل النملة لو خلق لها عقل، وكان على سطح قرطاس وهو ينظر إلى سواد الخط يتجدد فيعتقد أنه فعل القلم وقصر نظره عن الترقي إلى مشاهدة تحريك القلم بالإصبع ثم منه إلى اليد ثم منه إلى الإرادة المحركة لليد ثم منه إلى الكاتب القادر المريد ثم إلى خالق اليد والقدرة والإرادة، فأكثر نظر ضعفاء الخلق مقصور على الأسباب القريبة السفلية مقطوع عن الترقي إلى مسبب الأسباب.

هذا أحد أسباب النهي عن علم النجوم.

ثانيها : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس مما يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل فيكون ذمه على هذا الوجه من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم، وقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى؛ وقد اندرس ذلك العلم وانمحى.

وما يتفق من إصابة المنجم فهو على نُدُور، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقبيها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع عليها.

ثالثها : أنه لا فائدة فيها، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا تغني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان بغير فائدة، فقد مر رسول

الله ﷺ برجل والناس مجتمعون عليه فقال : «**ما هذا؟** » قالوا: رجل علامة؟ فقال :«**بماذا؟**» قالوا : بالشعر وأنساب العرب، فقال عليه السلام : «**علم لا ينفع وجهل لا يضر**».

وقال ﷺ : «**إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة**»؛ فالخوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض جهالة بغير فائدة، فإن ما قدر الله تعالى كائن والاحتراز عنه غير ممكن بخلاف التعبير وإن كان تخميناً، لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وبخلاف الطب لأنه سبب من الأسباب؛ وقد تداوى النبي ﷺ؛ وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: العلم علمان : علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان وما وراء ذلك بُلغة مجلس والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وما هرب عما قضاء بممكن
ولكنه لابد إن كان مشغلا

لساناً بذكر الله في كل وقته
وإن كان يدعو بابتهال وإن تلا

وإن يسأل الرحمن عفواً بعاجل
وآجله حتى يصون عن البلا

فمن يـرزق الله الدعاء فلم تكن
إجابتـه عـن ذا بعيـداً ليمحـلا

إذا مـا بـلاء قـدر الله صوبـه
يصـوب ولكـن بالتضرع سـهلا

ويرزقـه صـبراً بيمـن دعائـه
تعلم العلم الطب داوى من أرسلا

اعلم أن الهرب من قضاء الله تعالى وقدره غير ممكن، فينبغي لكل مسلم أن يشتغل في جميع أوقاته بذكر الله تعالى والدعاء والتضرع وقراءة القرآن والصدقات، ويسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ليصونه الله تعالى عن البلاء والآفات، فإن من رزق الدعاء لم يحرم الإجابة، فإن كان البلاء قدراً مقدراً يصيبه لا محالة، ولكن ييسره الله تعالى عليه ويرزقه الصبر ببركة دعائه، وكان يقال : إذا جاء القدر حار البصر، ولكنه لا بد من الحذر، وإن كان لا ينجي من القدر، لأنه أطيب للنفس وأقرب من الحزم وأبعد من الندم وأعذر عند الناس، وهو حسن التدبير بعينه؛ وأنشد بعض الفضلاء :

ألا إن حـذر المـرء لـيس بنافـع
ولا دافـع عنـه إذا جـاءه القـدر

ولكنـه إن جـاء ألفـاه حازمـاً
عليمـاً بمـا يـأتي بصيراً بمـا يذر

ولـم يلقـه كالثـور لا علـم عنده
ولا علـم إلا أن يعـد مـع البقـر

فـلا بـد مـن حـذر على كل حالـة
وإن كان لا ينجي من القدر الحذر

فيحـذر مـا لابـد أن سـيناله
وإن كان في جو السماء عنده القمر

هذا ما يتعلق بحل ألفاظ الكتاب، واعلم أنه قد اختلف في الدعاء؛ فمن الناس من قال: إنه شيء عديم الفائدة، واحتج عليه من وجوه:

الأول: أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه.

الثاني: إن كان الله تعالى أراد إيقاع ذلك المطلوب وقع من غير الدعاء، وإن كان لم يرد إيجاده في الأزل لم يكن في الدعاء فائدة، وليس لقائل أن يقول: الدعاء يرد ذلك الحكم، لأن فعل الخلق لا يغير صفة الخالق، وربما عبر بعضهم عن ذلك بأن الأقدار سابقة والأقضية أزلية، والدعاء لا يغير الأحكام الأزلية فلا فائدة في الدعاء.

الثالث : أنه سبحانه وتعالى علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فأي حاجة بالداعي إلى هذا الدعاء، ولهذا السبب فإن جبريل عليه الصلاة والسلام لما أمر الخليل عليه السلام بالدعاء قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي، ثم إن الخليل عليه الصلاة والسلام استوجب بترك الدعاء في ذلك المقام الدرجة العالية عند الله تعالى، فثبت أن ترك الدعاء أولى.

الرابع : المطلوب بالدعاء إن كان هو من مصالح الداعي فالجواد الحق لا يتركه والحكيم المحق لا يهمله، فإن لم يكن من مصالحه لم يجز طلبه بالاتفاق.

الخامس : روي عن النبي ﷺ أنه قال : قدر الله المقادير قبل أن يخلق الخلق بكذا وكذا عاماً، وعنه ﷺ أنه قال : «**جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**»، وقال ﷺ : «**أربع فرغ منها العمر والرزق والخلق والخُلق**»؛ وإذا ثبت أن كل هذه الأحوال مقدرة في الأزل فأي تأثير للدعاء.

السادس : قد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى، والدعاء ينافي ذلك، لأنه اشتغال بالالتماس والطلب وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى.

السابع : الدعاء يشبه الأمر والنهي أو يشبه تذكير الساهي والغافل، أو يشبه حمل البخل على الجواد، وكل ذلك من العبد اللئيم في حضرة الجواد الكريم سوء أدب.

الثامن : قال ﷺ رواية عن الله سبحانه وتعالى : «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**».

فثبت بهذه الوجوه أن الدعاء لا فائدة فيه.

وقد أجاب الجمهور الأعظم من العقلاء أن الدعاء أعظم مقامات العبادة، لأن حقيقة الدعاء استدعاء العبد من ربه العناية واستمداده منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إليه والاعتراف إليه بالبراءة من الحول والقوة التي هي له، وهي سمة العبودية وإظهار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله تعالى وإضافة الجود والكرم إليه بوجوه :

الأول : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾؛ وفيه لطائف :

أحدها أينما ورد لفظ السؤال في القرآن جاء عقيبه لفظة قل؛ قال الله تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾؛ وفي هذا الموضع ترك لفظة قل، كأنه سبحانه وتعالى يقول : عبدي أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء، أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك فأنت العبد المحتاج وأنا الإله الغني، فإذا سألت أعطيتك، وإذا دعوت أجبتك.

الثانية : أن قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾؛ فهذا يدل على

أن العبد له، وقوله : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ يدل على أن الرب للعبد.

الثالثة : لم يقل : فالعبد مني قريب، بل قال : أنا قريب منه؛ وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود وهو من حيث هو لا بد وأن يكون في مركز العدم وحضيض الفناء، فكيف يكون قريباً؛ بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى، فالعبد لا يمكنه أن يقرب من الحق، لكن الحق بفضله وكرمه يقرب إحسانه منه ولهذا قال : فإني قريب.

رابعها : أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولاً بغير الله تعالى، فإنه لا يكون دعاؤه خالصاً لوجه الله تعالى، فإذا فني عن الكل وصار مستغرقاً في معرفة الأحد الحق تعالى امتنع أن يبقى بينه وبين الحق واسطة، وذلك هو معنى القرب، فلهذا المعنى قال : فإني قريب.

الوجه الثاني : قوله تعالى :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ وفي هذه الآية كرامة عظيمة لأمة محمد ﷺ، لأن بني إسرائيل فضلهم الله تفضيلاً عظيماً فقال في حقهم : ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال أيضاً : ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وقال الحواريون مع غاية جلالتهم وقولهم : ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ لعيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

ثم إنه سبحانه رفع هذه الواسطة عن هذه الأمة فقال مخاطباً لهم :

﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، وقال : ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ فإن قيل : قوله : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ وعد من الله يلزمه الوفاء به، ولا يجوز وقوع الخلف فيه، ثم إنا نرى الداعي يدعو فلا يجيبه الرب تعالى، وكذا هذا السؤال وارد على قوله : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

والجواب عن هذا وإن كان مطلقاً في اللفظ إلا أنه مقيد، فإنه إنما يستجاب من الدعاء ما وافق القضاء، وقيل أيضاً : إن الداعي يعوض من دعائه عوضاً، وربما كان العوض هو الإسعاف بمطلوبه، وذلك إذا وافق القضاء، فإن لم يساعده القضاء فإنه يعطي الداعي سكينة في نفسه وانشراحاً في صدره وصبراً يسهل عليه تحمل ما يرد عليه من البلاء.

وروى أبو هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال : «**ما من مؤمن ينصب وجهه لله تعالى يسأله مسألة إلا أعطاه إياه إما عجلها له في الدنيا وإما أخرها له في الآخرة**».

الوجه الثالث : أنه تعالى لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به، بل بين في آية أخرى أنه إذا لم يسأله العبد غضب عليه، لقوله تعالى : ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ وقال بعضهم :

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبُنَيّ آدم حين يسأل يغضب

وقال ﷺ : «**لا ينبغي أن يقول أحدكم اغفر لي إن شئت ولكن يجزم فيقول اللّهُمَّ اغفر لي**».

الوجه الرابع : قوله ﷺ : «**الدعاء مخ العبادة**»، وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال : «**الدعاء هو العبادة**»، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

قال أبو سليمان الخطابي : وإنما أتت على نية الدعوة أو المسألة أو الكلمة أو نحوها، وقوله : الدعاء هو العبادة؛ معناه أنه معظم العبادة أو أفضل العبادة.

الوجه الخامس : قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾؛ لأن الحكمة الإلهية تقتضي أن يكون العبد بين الرجاء والخوف الذيْن بهما تتم العبودية، ولهذا صححنا التكليف مع الاعتراف بإحاطة علمه وجريان أقداره في الكل، ولما قالت الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ : أرأيت أعمالنا هذه أشيء فرغ منه أم أمر نستأنفه؟ فقال ﷺ: «**بل قد فرغ منه**» فقالوا : ففيم العمل إذاً؟ قال : «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»؛ فمن لطائف هذا الحديث أنه ﷺ قيدهم بالقضاء والقدر وألزمهم العمل، فلم يبطل ظاهر العمل بما قيد من القضاء والقدر، وأخبر أن العمل بالقدر المفروغ منه فقال : كل ميسر لما خلق له، أي ييسر في حياته للعمل الذي سبق به القدر قبل وجوده لكن ينبغي أن ينظر في الفرق بين الميسر والمعسر، فإنه لجة

مسألة القضاء والقدر، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾؛ وبالجملة فالآيات كثيرة في هذا الباب، ومن طعن في هذا فقد طعن في القرآن وأبطله.

الوجه السادس: أنه يقتضي أن لا يكون للعبد قدرة على فعل من الأفعال، بل يقتضي أن لا يكون الله سبحانه وتعالى قادرا على شيء أصلاً، لأن ذلك الشيء إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى القدرة، وإن كان ممتنع الوقوع فلا تأثير للقدرة؛ ولما كان ذلك باطلاً فكذا القول فيما احتجوا به.

الوجه السابع: أنه ليس المقصود من الدعاء الإعلام، بل إظهار الذلة والمسكنة والانكسار والاعتراف بأن الكل من الله تعالى، ثم بعده يرضى بما قدره له مولاه وقضاه.

الوجه الثامن: أنه يجوز أن يصير ما ليس بمصلحة بدون الدعاء مصلحة به، وفي الآية الشريفة سؤال وهو أنه تعالى وعد بالإجابة، وكثيراً ما يبالغ الداعي في الدعاء ولا يجاب، وجوابه أن الإجابة مقيدة بالمشيئة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾؛ وأيضاً فإن الداعي إنما يجاب له إذا ساعده القضاء، إذ ليس في الآية إجابة في الحال فالدعاء يستلزم أن يكون الداعي عارفاً بربه، ومن جملة صفاته تعالى أنه لا يفعل إلا ما وافق قضاءه وعلمه وحكمته ومع علم الداعي بذلك يستحيل أن يجزم بأمر معين لابد منه، بل لابد وأن يقول افعل لي كذا إن وافق

قضاءك وعلمك فالدعاء الموعود بإجابته مشروط بهذه الشروط، وشروط الداعي ثلاثة :

أحدها: أن يكون مبيناً لله تعالى.

الثاني : أن يكون مخلصا في دعائه، فقد قيل إن موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع فقال موسى عليه الصلاة والسلام: إلهي لو كانت حاجته بيدي لقضيتها فأوحى الله تعالى إليه : أنا أرحم الراحمين وأرحم به منك يدعوني وقلبه عند غنمه، وإني لا أستجيب لمن يدعوني وقلبه عند غيري، فذكر موسى عليه السلام ذلك للرجل فأخلص لله تعالى بقلبه فقضيت حاجته.

الثالث : أن يكون متيقناً، فإذا استكملت هذه الشروط يتيقن أن الله تعالى يجيبه إن وافق قضاءه وعلمه وحكمته.

وينبغي للداعي أن لا يعجل بالإجابة ولا يقول لم يستجب لي، فإن النبي ﷺ قال : «**ما من عبد يدعو بدعاء إلا استجيب له إما أن يعجل له في الدنيا أو يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدعو بإثم أو قطيعة رحم**».

وينبغي أن يكون حاضر القلب غير لاه ولا ساه، لقوله عليه السلام: «**لا يستجاب دعاء عبد من قلب لاه**»، وقيل لجعفر بن محمد رضي الله تعالى

عنهما : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفون، أراد أنكم تدعونه وأنتم غافلون ولو عرفتم من تدعون لما غفلتم عنه؛ وأن يكون مطعمه من حلال، قال عليه السلام لسعد : «**أطب طعمتك تستجب دعوتك**».

وأن يتحرى بدعائه يوم الجمعة ووسط الليل وآخره، فإنه قد صح عن النبي عليه السلام في أمره بالدعاء يوم الجمعة، وأما وسط الليل فقد ذكر أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال : يا رب، أي ساعة أدعوك فتستجيب لي فيها؟ فقال له تعالى : أنت عبدي وأنا ربك فمتى ما دعوتني استجبت لك، فعاوده مراراً فقال له ربه عز وجل : ادعوني في كبد الليل فإني أستجيب لك وإن دعاني فيها عشّار.

قال عبد الله الأنطاكي : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن ومجالسة الصالحين وإخلاء البطن والقيام بالليل والتضرع عند الصبح.

قال بعض الصوفية : الدعاء يوجب الحضور، والعطاء يوجب الانصراف، والوقوف بالباب أتم من الانصراف بالمبار؛ وقيل : دعاء العامة بالأقوال، ودعاء الزهاد بالأفعال، ودعاء العارفين بالأحوال، وقيل : الدعاء معجزة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكرامة للأولياء إذا أصابتهم النوازل رفعوا إلى الله تعالى المسائل، فمنحهم الهدى، وأراهم الأمل في العدى؛ وقيل: خير الدعاء ما يسجن الأحزان وهو سلم المؤمنين، ويقال : الدعاء مراسلة

وما دامت باقية متواصلة فالأمر جميل بعد؛ وقيل : مواجهة الحق تعالى بلسان الحياء.

وقيل في قوله : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ عشرة أقوال :

ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة، ادعوني بقلوب خالية أستجب لكم بالدرجات العالية، ادعوني بشفاه ذابلة أستجب لكم بالكرامات الكاملة، ادعوني في حال السراء أستجب لكم في حال الضراء، ادعوني بقلوب صافية أستجب لكم بدوام العافية، ادعوني بالقلوب والجوارح أستجب لكم بالنجاة من الجوائح، ادعوني بالإخلاص والتقوى أستجب لكم بجنة المأوى، ادعوني بالخوف والرجاء أجعل لكم من كل هم فرجا ومخرجا، ادعوني بأسمائي الحسنى أستجب لكم ببلوغ المطلب الأسنى، ادعوني في دار الخراب أستجب لكم بكرامتي في دار البقاء والثواب؛ وزاد بعضهم ادعوني بالإنابة أسرع لكم الإجابة، ادعوني في المساء والصباح أستجب لكم بالفلاح والنجاح، ادعوني بالقلوب أستجب لكم بغفران الذنوب، ادعوني في الخلاء أستجب لكم بكشف البلاء، ادعوني بصدق النية أستجب لكم بجزيل العطية، ادعوني بالقلب واللسان أستجب لكم بالكرم والإحسان.

فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى قال : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ونحن ندعوه فلا يستجيب لنا؟

قالوا : ثلاث فوائد :

- **الأولى** : ليبقى الرجاء عندك متصلا، لأنه إذا لم يعطك اليوم فقد يعطيك غدا.

- **الثانية** : لو سألته فأعطاك مناك لم تسأله بعد ذلك.

- **الثالثة** : لعلك تسأله ما فيه فسادك فيعطيك ما فيه صلاحك؛ وفي بعض الكتب أن الله تعالى يقول : يا عبدي ادعوني لأسمع دعاءك، فإن كان سؤالك صلاحاً أعطيته لك؛ وإن كان فساداً صرفته عنك فمنعي هو العطاء.

واعلم أن في قوله تعالى : ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ دقيقة، كأنه تعالى يقول: إني أجيب دعاءك؛ مع أني غني عنك، فكن أنت مجيبا لي مع احتياجك إلي، ومن فضله تعالى لم يقل : حتى أجيب دعاءك، فيصير ذلك كالجزاء، بل وعد بالإجابة ابتداء تفضلا منه وإحسانا ورحمة، فإجابته تعالى متقدمة على طاعة العبد، فإجابة الله تعالى للعبد إعطاؤه مطلوبه، وإجابة العبد لله تعالى طاعته.

وينبغي للمؤمن أن يكون راضياً بما قسم الله تعالى له، فإن الرضا بذلك من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين، وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه، لقوله تعالى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا

تَعۡلَمُونَ﴾، لأن العبد لا يعلم أن الصلاح فيما يفوت عنه أو فيما يأتيه فينبغي أن يكون العبد في الحالتين واحداً.

واعلم أن الأسباب المزيلة للضرر ثلاثة : مقطوع ومفهوم ومظنون؛ فالأول كالماء والخبز لدفع الجوع والعطش فتركه حرام وليس بتوكل فإذا أخر الأكل والشرب قادراً حتى مات جوعاً أو عطشاً مات عاصياً كالذي يقتل نفسه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾.

والثاني كالكي والرقى المأذون فيها، فشرط التوكل تركها كما روى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**».

واعلم أن التوكل على قسمين :

أحدهما : توكل جعله ﷺ صفة السابقين بقوله ﷺ : «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكوون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»، فهذا التوكل هو سكون النفس إلى ما سبق من القضاء بلا مبالاة بفوات نفع أو وقوع ضرر، والاضطراب وعدم مساواة الوصول والحزن عنده ينافي وجود هذا النوع من التوكل، وكذلك الميل إلى الأسباب والاشتغال بها يدفع هذا، لأن من المعلوم أن الطير لا يلتفت إلى حصول نفع أو دفع ضرر ولا تبالي بالوصول والحرمان ولا توكل له، فقال ﷺ : «**لو كنتم على صفته غير مبالين بنيل أو فوات وكنتم متوكلين حق التوكل لأدركتم ما قسم لكم من غير**

حرث ولا زرع»، وهذا هو المندوب المدعو إليه.

الثاني : مأذون فيه غير مدعو إليه، وهو ما يكون لدفع ضرر الضرر والمكاره وحفظ الحدود والتحرز عن الآفات، وهو توكل ناقص، ألا ترى أن عمرو بن أمية الضمري لما استشار النبي ﷺ أأرسل ناقتي وأتوكل أم أقيد وأتوكل؟ فقال له ﷺ : «**بل قيد وتوكل**»، فإنه أراد به التحرز من الفوات لا السكون إلى ما سبق من القضاء، فأمره ﷺ بالنوع الذي وقع فيه المشورة إذ المستشار مؤتمن، ومثله قوله ﷺ لكعب بن مالك المتخلف عن غزوة تبوك أحد الثلاثة لما قال : من توبتي أن أنخلع عن مالي : «**أبق عليك بعض مالك**»؛ وقوله ﷺ لبلال: «**أنفق بلال ولا تخف من ذي العرش إقلالا**»؛ وقوله له أيضا لما خبأ من التمر لأجله : «**أما تخشى أن يخسف الله بك في نار جهنم**»، لأنه ﷺ كان مستكمل التوكل ساكن النفس إلى ما له عند ربه عز وجل، غير ملتفت إلى حظ الدنيا.

وأما غيره كان مراده الاحتراز عن المكاره والاحتمال لدفع المضار، وكذا كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه كامل التوكل حين قيل له : أندعو لك الطبيب؟ فقال : الطبيب أمرضني، وقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾، وإليه الإشارة من الخليل عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾.

وقيل لأبي الدرداء رضي الله تعالى عنه في مرضه : ما تشتكي؟ قال :

ذنوبي، قيل : ما تشتهي؟ قال : مغفرة ربي، قيل : ألا ندعو لك طبيبا؟ قال : الطبيب أمرضني.

وقيل لأبي ذر رضي الله تعالى عنه حين رمدت عيناه : لو تداويت؛ قال : إني عنهما لمشغول، قيل : لو دعوت الله تعالى حتى يعافيهما، قال : أسأله فيما هو أهم علي منهما؛ وأصاب الربيع بن خيثم فالجا فقيل له : لو تداويت؛ قال : أردت ذلك فتذكرت عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، كانوا أطباء هلكوا فتركته.

قال قائلهم :

إن الطبيب بطبه ودوائه
لا يستطيع دفاع مقدور أتى
هلك المداوي والمداوى والذي
جلب الدواء وبائع ومن اشترى

وقال الحسن بن زياد رحمه الله تعالى : لا يجوز التداوي، لأنه ينافي التوكل؛ وحجته ما ذكرنا من النصوص؛ وروي أن عمران بن الحصين اعتل فلم يزالوا حتى اكتوى، فقال : كنت أرى نوراً وأسمع صوتاً وتسلم علي الملائكة؛ فلما اكتويت انقطع عني ثم استغفر الله تعالى وأناب إليه فرد الله تعالى عليه ما كان يجده من تلك الكرامات.

وعند الإمام رحمه الله تعالى التداوي مأذون فيه، لا مندوب إليه ولا مدعو إليه، وأما رقى رسول الله ﷺ بالمعوذتين فبتعليم الله تعالى، إما إعلام بكون الاشتغال بالسبب مأذوناً فيه، وإما أنه ﷺ اطلع أن تقدير الله تعالى في الرقى، فيكون ذلك امتثالا للتقدير لا اشتغالاً بالأسباب.

وكل ما ورد في الخبر من تداوي رسول الله ﷺ ورقاه فمحمول على هذا، وروي في الإسرائيليات أن الكليم عليه الصلاة والسلام مرض، فذكر له طبيبه دواء ذلك المرض، فامتنع منه؛ وقال : يعافيني ربي من غير دواء، فطال به الأمر؛ فأوحى الله تعالى إليه : وعزتي وجلالي لا أبرئك حتى تتداوى به فاستعمله فبرأ، فوجد في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه : أتريد أن تبطل حكمي.

ويؤيد هذا ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : عباد الله، تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد الهرم؛ وفي لفظ : إلا وضع له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله؛ فإن قيل: الرضا بقضاء الله تعالى واجب وعلم التداوي خروج وفرار عن الرضا.

قلنا : من جملة الرضا بقضاء الله تعالى التوصل إلى مستحباته بمباشرة ما جعله الله تعالى سببا، فإن قيل : الكي من الأسباب الظاهرة للدفع كالفصد، قلنا : لو كان كذلك لما خلا غالب البلاد منه، وإنما هو شأن أهل البادية.

والثالث كالفصد والحجامة وشرب المسهلات، وباقي أبواب الطب

من معالجة الضد بالضد ففعله غير مناقض للتوكل، بخلاف الموهوم فعله غير مأمور به كالمقطوع لكنه مأذون لكونه موصلا غير واجب لعدم القطع، حتى إذا مات ولم يعالج بهذه المظنونات لا يأثم ويثاب لأخذه بالعزيمة، وهو التوكل الكامل وفعله لا ينافي التوكل الناقص.

وقد ورد في بعض الأحاديث المشهورة أنه ﷺ قال: «**ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا لي: مر أمتك بالحجامة**»؛ فعلى هذا لا فرق في إخراج الدم المهلك من الإهاب، وإخراج الحية من تحت الثياب؛ وبين صب الماء على الحريق الواقع في البيت وصب الشراب البارد على الحرارة الغالبة في البدن، إلا أن الأول مقطوع فرض، والثاني مظنون مأذون فاندفع الموهوم.

وهذا كقوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا من قلبه دخل الجنة**»، ومعنى أول هذا الحديث والله تعالى أعلم أن دخول الجنة على نوعين: الدخول أولا وهو دخول الفائزين، فإذا أريد به هذا يراد بالإخلاص ما قال في رواية: «**وإخلاصه أن تحجزه عن محارم الله تعالى**»؛ في جواب من قال: ما إخلاصه يا رسول الله؟ رواه العلامة جلال الدين الكرماني في جامعه في أول حديث روى الإمام المقدم أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وكذا ذكره الديلمي وبرهان الإسلام الغرنوي بأسانيدهم الصحيحة إلى أبي حنيفة أنه قال: سمعت أنساً رضي الله تعالى عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله خالصاً مخلصاً من قلبه دخل**

الجنة، ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كالطير، تغدو خماصاً وتروح بطانا».

وإن أريد مطلق الدخول وهو الدخول في عاقبة الحال وهو المفهوم من قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ والدخول ابتداء بواسطة العفو والشفاعة، فيراد بالإخلاص رفع النفاق؛ والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وما علمنا إلا اعتقاد مطابق
لوقع بجزم مع ثبوت تعقلا
وعرفان نفس ما عليها وما لها
فتعريف نعمان لفقه قد اعتلى

قال الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى : العلم صفة يتحلى بها المذكور لمن قامت هي به، وقيد به ليندرج تحته الموجود والمعدوم، وهذا الحد ارتضاه جميع أصحابنا، ومنهم من حده بأنه صفة ينتفي بها عن الحي الجهل والشك والظن والسهو، وهو مردود بعلم البارئ تعالى.

وقال الباقلاني : إنه معرفة المعلوم على ما هو به، ورُد بأن المعرفة اسم للعلم المستحدث أو هو انكشاف عن الشيء بعد لبس وتوهم يقال :

عرفت فلاناً أي استحدث به علماً فنزلت المعرفة من العلم منزلة القصد من الإرادة.

وقال أبو إسحاق الإسفراييني : إنه تَبَيّن المعلوم على ما هو به، لأن التبين لفظ مشترك يقال : تبينت الأمر أي علمته، وتبين لي أي ظهر، واستعمال الألفاظ المشتركة أو المجازية في التحديد مضاد لما وضع له التحديد وهو الإعلام بحقيقة المحدود.

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى : ما يصير الذات به عالماً فإنه تعريف الشيء بما يتعرف هو به.

وقال إمام الحرمين : العلم معرفة المعلوم على ما هو به.

وقال أبو علي الجبائي : العلم اعتقاد الشيء على ما هو به عن ضرورة أو دليل، وهو مردود لأن أو للتشكيك، والحدود للتحقيق؛ ولأن العلم لو كان اعتقاداً أو معرفة أو تبيناً لكان العالم معتقداً عارفاً متبيناً، والله تعالى يوصف بأنه عالم، ولا يوصف بأنه معتقد أو عارف أو متبين.

وقول الكرامية أنه تعالى يوصف بأنه عارف، لاتحاد العلم والمعرفة مخالف للإجماع لعدم الإذن الشرعي؛ وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها، أي معرفة دقائق العلم مع نوع علاج؛ وقال : ما العلم إلا للعمل به، والعمل به ترك العاجل للآجل؛

فينبغي للإنسان أن لا يغفل عن نفسه وما ينفعها وما يضرها في أولها وآخرها، ويستجلب ما ينفعها ويجتنب عما يضرها، كيلا يكون عقله وعمله حجةً عليه، فتزداد عقوبته نعوذ بالله تعالى من سخطه وعقابه، وجعلنا من خواصه وأحبابه؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالى : باب في نية الطالب

ويلزمه وقت التعلم نية
الأعمال بالنيات صحت عن العلى

وكم عمل يبدو كأعمال آجل
ومن نية سوء لدنيا تحولا

عن النفس والجهال فأقلع جهالة
كذلك فاقصد بالتعلم عوّلا

وإبقاء إسلام بعلم ولم يصح
زهد ولا تقوى بجهل فمثّلا

فساد وينوى بالتعلم شكره
لصحة أبدان وأن يتعقلا

وإياه واستجلاب حظ بعلمه
دني من الدنيا أو الملك معتلى

ولكنـه إن يبتـغي الجـاه بغيـة
لحـق وبطـلان محقـاً ومبطـلا

هنيئـاً مريئـاً سـاغ فلـم يكـن
هوى النفس في هذا فقد كان جللا

ولابـد للطـلاب من فكر سـاعة
لـكي يعلموا جهـداً كثـيراً مذللا

ولا يصرفـوا علمـاً لدنيـا دنيـة
تقـل هي الدنيـا فأنشـد ليجتـلى

اعلم أنه لابد من إخلاص النية في تعلم العلم، إذ النية هي الأصل في جميع الأفعال البارزة والخفية؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصًا﴾؛ وقال تعالى : ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ ولما روي عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»؛ هذا حديث متفق على صحته، مجمع على عظم موقعه وجلالته، وهو أحد قواعد الإيمان وآكد أركانه.

قال الشافعي رحمه الله تعالى: هذا الحديث يدخل في سبعين باباً من الفقه، وقال أيضاً: هو ثلث العلم، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يعطى الرجل على قدر نيته؛ وقال سهل بن عبد الله: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلانيته لله تعالى وحده، لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا.

وقال القشيري: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع المخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس ومحبة مدح من الخلق، أو شيء سوى التقرب إلى الله تعالى؛ ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وسمعت أبا علي الدقاق يقول: الإخلاص التوقي من ملاحظة الخلق، والصدق التنقي عن مطالعة النفس؛ فالمخلص لا رياء له والصادق لا إعجاب له.

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله تعالى منهما؛ وقال رويم: الإخلاص أن لا يريد على عمله عوضاً في الدارين ولا حظاً من الملكين؛ وقال: أعز شيء في الدنيا الإخلاص.

وقال أبو عثمان: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن، وعنه قال: إخلاص العوام ما لا يكون للنفس فيه حظ، وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منه الطاعات؛ وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة؛ ولابد من الصدق أيضا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قال القشيري: الصدق عماد الأمر وبه تمامه، وفيه نظامه وأقله استواء السر والعلانية؛ وقال أيضا: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره؛ وعن ذي النون عن يزيد بن ميسرة قال: يقول الله تعالى: «إني لست أنظر إلى كلام حكيم أتقبله ولكن أنظر إلى همته وهواه، فإن كانت همته وهواه في جعلت صمته تفكراً وكلامه ذكراً وإن لم يتكلم».

وعن ابراهيم النخعي قال: إن الرجل ليتكلم بالكلام وفي كلامه المقت، وينوي فيه الخير فيلقي الله تعالى العذر في قلوب الناس، حتى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا خيراً؛ وإن الرجل ليتكلم بكلام حسن ولا ينوي فيه الخير فيلقي الله تعالى في قلوب الناس حتى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا شرا.

وكان عون بن عبد الله يكتب لأصحابه ثلاث كلمات : من عمل لآخرته كفاه الله تعالى أمر دنياه وآخرته، ومن أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته؛ ومن أصلح ما بينه وبين الله تعالى أصلح الله تعالى ما بينه وبين الناس.

وقال عليه السلام : «**نية المؤمن خير من عمله**»؛ أي قد يثاب على نية الخير وإن لم يعمله، ولا يثاب على عمل عمله بلا نية؛ وقيل : نية المؤمن خير من عمله لطول نيته وقصر عمله، لأنه قد ينوي أن يعمل الخير ما بقي ولا يستطيع أن يداوم على عمل الخير أبداً؛ وقيل: لأن النية عمل القلب وهو معدن المعرفة وما كان معدن المعرفة كان أفضل من غيره.

وعنه عليه السلام أنه قال : «**يؤتى بالعبد يوم القيامة ومعه من الحسنات أمثال الجبال الرواسي، فينادي مناد من كان له على فلان مظلمة فليجيء وليأخذ منه، فيجيء ناس فيأخذون من حسناته حتى لا يبقى له من الحسنات شيء، ويبقى العبد حيران فيقول له ربه عز وجل : إن لك عندي كنزاً لم أُطْلِع عليه ملائكتي ولا أحدًا من خلقي؛ فيقول : يا رب وما هو؟ فيقول تعالى : نيتك التي كنت تنوي من الخير كتبته لك سبعين ضعفاً**».

وروي في الخبر أن عابداً من عباد بني إسرائيل مر على كثيب من الرمل فتمنى في نفسه أن لو كان هذا دقيقاً فأشبع به بني إسرائيل في مجاعة

أصابتهم، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبي الذي كان فيهم في ذلك الزمان أن قل لفلان: إن الله تعالى أوجب لك من الأجر ما لو كان دقيقاً وتصدقت به.

وروي في الخبر أيضا أنه يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعطى كتابه بيمينه، فيرى فيه الحج والعمرة والجهاد والزكاة؛ فيقول في نفسه: ما عملت من هذا شيئاً وليس هذا كتابي فيقول الله تعالى: (اقرأ فإنه كتابك عشت دهراً وأنت تقول لو كان لي مال لحججت ولو كان لي مال لجاهدت وعلمت ذلك من نيتك وإنك لصادق فأعطيتك ثواب ذلك كله).

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى: إنما يطهر صدق نيته إذا بذل القليل الذي يقدر عليه ولم يبخل به كما لو رأى حاجاً منقطعاً؛ فقال لو كان لي مال لحججت فلما لم يكن لي طاقة إلا هذين الدرهمين دفعتهما إلى هذا، وكذا لو رأى غازياً منقطعاً فقال: لو كان لي مال لغزوت، فلما لم يكن لي طاقة إلا هذا الدرهم دفعته إلى هذا الغازي المحتاج أو المسكين ونحوه.

وأما إذا بخل بالقليل الذي عنده فيعلم الله تعالى أنه لو كان عنده كثيراً لكان يبخل به كما بخل بالقليل فلا ثواب له في نيته، وكذلك في قراءة القرآن؛ إذا كان يقرأ ما حفظه منه فيقول: يا ليتني لو كنت حفظت القرآن لقرأته كله آناء الليل وأطراف النهار؛ فإن كان ملازماً على قراءة ما حفظه منه آناء

الليل وأطراف النهار وعلم الله تعالى منه صدق النية أن لو كان حافظاً للقرآن كله لقرأه كذلك؛ أعطاه الله تعالى مثل فضل الذي يحفظ القرآن ويلازم على قراءته؛ وإن كان تاركاً لما حفظه وعلم الله تعالى أن نيته غير خالصة فلا فائدة في نيته.

وروى سهل بن سعد الساعدي عن النبي عليه السلام أنه قال: نية المؤمن خير من عمله، وعمل المنافق أخبث من نيته وكل يعمل على نيته.

وروى محمد بن علي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب رجلاً في الله تعالى لعدل ظهر منه وهو في علم الله تعالى من أهل النار آجره الله تعالى على حبه إياه كما لو أحب رجلاً من أهل الجنة، ومن أبغض رجلاً في الله تعالى لجور ظهر منه وهو في علم الله تعالى أنه من أهل الجنة آجره الله تعالى على بغضه إياه كما لو بغض رجلاً من أهل النار**».

وروي في الخبر أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: هل عملت لي عملاً قط؛ فقال: إلهي صليت لك، وصمت لك وذكرت لك؛ فقال الله تعالى: يا موسى، أما الصلاة فلك برهان يعني حجة والصوم جنة والصدقة ظل والذكر نور؛ فأي عمل عملت لي فقال موسى: إلهي فدلني على العمل الذي هو لك فقال: يا موسى هل واليت لي ولياً أو عاديت لي عدواً؛ فعلم موسى عليه السلام أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم**

ولا إلى أقوالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم».

وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط عليه وأسخط عليه الناس»**.

وقال عمر رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيما عند الله عز وجل؛ وقال ابن مسعود رضي الله عنه : اجعلوا العمل رديفاً للنية، ولا تجعلوا النية رديفة للعمل؛ وقال عبد الله : تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

فينبغي للعبد أن يكون له في كل شيء نية، حتى في مطعمه ونومه وإتيانه أهله؛ لأنها أعمال يسأل عنها العبد فإن كانت لله تعالى خالصة كانت في ميزان حسناته، وإن كانت لغير الله كانت في ميزان سيئاته، فإن عمله على غفلة بلا نية لم تكن له ولا عليه، وضاهى الأنعام المتصرفة بلا عقول بل بالإلهام، ويخاف أن يكون ممن أغفل الله تعالى قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً؛ أي مجازفة وقيل: غفلة وسهواً؛ وقيل : تفريطاً وتضييعاً؛ وقيل : إقداماً على الهلاك.

فالنية الصالحة أول عطاء الله عز وجل، وأول العمل الصالح؛ وقد يتفق في العمل الواحد نيات كثيرة على قدره وعلم عامله فيكون له بكل نية حسنة، ثم تضاعف لأنها أعمال اجتمعت في عمل واحد؛ قيل : ما

كثرت حسناتهم بكثرة الأعمال، وإنما كانوا يدخلون في العمل الواحد نيات كثيرة.

وكيفية النية قصد القلب إلى العمل بتيقن إخلاص لله عز وجل، وحقيقة الإخلاص تجنب الرياء والهوى؛ فكل عَمَل عُمل على علم بهذه النية فهو صالح معرض لقبول الله بفضله ورحمته، وصاحبه متجنب للشرك به والهوى، قائم بالأدب في معاملة مولاه مَكْفي مُعان، كما ذكر عمر رضي الله عنه في كتابه إلى أبي موسى أنه من أخلص نيته لله عز وجل كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله عز وجل منه غيره يشنأه الله؛ فما ظنك به.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : «**من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن ادّان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق**»؛ ولا تصلح للعبد نية صالحة إلا بصدق المراقبة، ولا يحصل له صدق المراقبة حتى يعلم علماً لا يرتاب فيه أن الله تعالى أعلم بباطنه من المخلوقين بظاهره، فإذا علم ذلك علم عين اليقين.

فينبغي للعبد أن لا يخلي عملاً له عن نية صالحة، فينوي في الفرائض أداءها لله تعالى وفي المندوبات المسارعة إلى مرضاة الله تعالى بفعل الخيرات، وفيما أبيح له صلاح قلبه وسكون نفسه واستقامة حاله لأجل دين الله وفيما أحله الله له اعترافاً بنعم الله وشكراً له لا واقفاً مع طبعه ولا جارياً

على مألوف عادته ولا متخلقاً بأخلاق نفسه، فإن هذا حال الغافلين ومقام الجاهلين.

قوله: عن النفس والجهال فأقلع جهالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ قالت الحكماء: أول ما يلزم العبد معرفة نفسه؛ وقالوا مرة: أول ما يلزم الإنسان معرفة الله تعالى، وليس بين هذين القولين منافاة لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ وأيضاً إن من عرف نفسه عرف العالم، ومن عرفها صار في حكم المشاهد لآثار الصانع القديم جل جلاله.

وأيضاً إن من عرف نفسه عرف أعداءه الكامنة فيها المشار إليها بقوله عليه السلام: «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**»، ويستعيذ منها كما قال عليه السلام: «**اللّهُمَّ ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك**».

ومن عرف أعداءه الكامنة ومكامنها وكيفية انبعاثها حسن أن يحترز منها، وأيضاً من عرف نفسه أن يسوسها، ومن عرف أن يسوسها لم يجد عيباً في أحد إلا رآه موجودا في ذاته، إما ظاهراً منبعثاً وإما كامناً ككمون النار في الحجر، فلا يكون همازاً ولا لمازاً ولا عياباً، فإن كل عيب تراءى

له من غيره وجده في نفسه، ومن رأى عيب نفسه يكون ممن دعا له النبي عليه السلام بقوله: «**رحم الله تعالى من شغله عيبه عن عيوب الناس**».

ومعرفة عيب النفس صعب جداً، من حيث إن كل إنسان يحب نفسه وحبه يعميه عن معايبها كما قال النبي عليه السلام: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»؛ والأعمى والأصم عن عيب نفسه قد يعجب به، ولا ضرر أعظم من إعجاب المرء بنفسه.

وقد قال بعض الحكماء: الكاذب في نهاية البعد عن الحق، والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب؛ لأن الكاذب يكذب بقوله فقط والمرائي يكذب بفعله؛ وقوله: والمعجب بنفسه أسوأ حالاً منهما، لأن الكاذب والمرائي قد ينتفع بهما والمعجب بنفسه لجهله لا ينتفع به، ولأنهما قد ينجح وعظك فيهما لعلمهما بنفسهما والمعجب بنفسه يظنك في وعظك إياه متلاعباً، فإذا عرف ربه بهذا وعرف نفسه بهذا لزمه العرفان بقيامه في مقام العبودية إما رغبة في ثواب الله تعالى ورضوانه وإما رهبة من عذاب الله وغضبه وانتقامه.

ويتعين عليه خلاص نفسه بطاعة ربه والاجتهاد بالتوجه الصحيح وتجريد الإخلاص بعمله إلى ما يوجب له الرضوان والزلفى عند معبوده، ويدخل في مقام التزكية لنفسه بتجريدها عن أعمال الرياء إلى ذروة الإخلاص، ويدخل في زمرة من مدحه الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

وهذه درجة من وفقه الله تعالى لأنه تحقق أنه عبد مربوب وأن له رباً معبوداً، فوجب عليه تعظيم الربوبية والقيام بالعبودية فيأخذ بالتوجه إلى أعمال تنجيه وأحوال تقربه وتدنيه.

قال أصحاب اللسان: النفوس على ضربين: نفوس الأشقياء ونفوس الأولياء؛ فنفوس الأشقياء في الدنيا تجري في ميدان التكذيب وفي الآخرة في دواوين التعذيب، ونفوس الأولياء في الدنيا تجري في ميادين التقويم وفي الآخرة في بساتين التنعيم وتجلس في الدنيا على بساط التأديب وفي الآخرة على بساط التقريب، وتركب في الدنيا صفاوة القربة في الآخرة حلاوة الوصلة، وتنزل في الدنيا منازل الأنس وفي الآخرة حظائر القدس.

واعلم أن النفوس ثلاثة: أمارة ولوامة ومطمئنة؛ وقد ذكر الله تعالى هذه الثلاثة في كتابه العزيز فقال في النفس الأمارة خبرا عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ وقال سهل: النفس الأمارة بالسوء هي الشهوة، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة.

وقال أبو حفص النيسابوري: كيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم بن الكريم يقول: وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء، تحملك على الطاعة وتضمر فيها شراً.

وقال الواسطي: النفس كلها ظلمة وسراجها سرها، فمن لم يكن له سر فهو في ظلمة أبداً وأما النفس اللوامة فذكرها في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ

بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما من نفس إلا وستلوم نفسها يوم القيامة**»؛ أما المحسنة فتقول: يا ليتني زدت، وأما المسيئة فتقول: يا ليتني نزعت؛ وذلك عند معاينة الجنة والنار.

قال بعض الفضلاء رحمه الله:

اعمل لنفسك خيراً ما دمت مَالِكَ مَالِكَ
من قبل أن تتفانى ووجه حالك حالك
ولست تعلم يوماً أتى المسالك سالك
إما لجنة عدن أو في المهالك هالك

وقال آخر:

النفس تكلف بالدنيا وقد علمت
أن السلامة فيها ترك ما فيها
والله لا قنعت نفس بما رزقت
من المعيشة إلا سوف يكفيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها
ودارنا لخراب الدهر نبنيها

وأما النفس المطمئنة فذكرها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾؛ قيل: معناها يا أيتها الروح

المطمئنة بالحق، راضية بما قضى لها وعليها ارجعي إلى الذي زينك بهذه الزينة العظيمة، حيث أصلحك منه إليه.

وقال الفضيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي ولا تغفلوا عن أنفسكم، فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها؛ وقيل لبعضهم: ما الطريق إلى معرفة الحق؟ قال: معرفة النفس؛ قيل: فما الطريق إلى موافقة الحق؟ قال: مخالفة النفس؛ قيل: فما الطريق إلى طاعة الحق؟ قال: عصيان النفس؛ قيل: فما الطريق إلى ذكر الحق؟ قال: نسيان النفس؛ قيل: فما الطريق إلى الأنس بالحق؟ قال: الوحشة من النفس، قيل: فما الطريق إلى الاعتصام بالحق؟ قال: الانقطاع عن النفس؛ قيل: فما الطريق إلى قرب الحق؟ قال: التباعد عن النفس، قيل: فما الطريق إلى الفرار إلى الحق؟ قال: الفرار من النفس، قيل: فما الطريق إلى كل ما ذكرت؟ قال: الاستعانة بالحق على النفس.

واعلم أنه ينبغي لكل من العالم والمتعلم أن يقصد بطلب العلم رضا الله تعالى والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال، وإحياء الدين وإبقاء الإسلام بالعلم؛ إذ لا يصح الزهد والتقوى مع الجهل، فإنه من أعظم المصائب على العبد.

وللجاهل خصال يعرف بها يظلم من خالطه ويعتدي على من دونه ويتطاول على من فوقه ويتكلم بغير تدبر فيندم فإن تكلم أثم وإن سكت

سهاء، وإن عرضت له فتنة أردته وإن رأى باب فضيلة أعرض عنها.

وقال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه.

وأنشد الشيخ الإمام العلامة برهان الدين صاحب الهداية لنفسه رحمه الله :

فساد كبير عالم متهتك
وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين عظيمة
لمن بهما في دينه يتمسك

ولكن العالم المتهتك أفضل من الجاهل المتنسك؛ وقال علي رضي الله تعالى عنه : لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال؛ وأنشد بعضهم :

اعمل بقولي ولا تنظر إلى عملي
ينفعك علمي ولا يضرك تقصيري

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إني آمركم بالأمر وما أفعله ولكن أؤجر عليه؛ وقيل لمنصور بن عمار : أنت تتكلم بهذا الكلام ونرى منك أشياء تخالفه؟ فقال : احسبوني ذرة وجدتموها على كناسة فانتفعوا بالذرة ودعوا الكناسة مكانها؛ وأنشأ يقول :

خدني خذ العلم لا تحفل بموقعه
من حيث كان فإن العلم ممدوح
كذرة أنت تلقاها بمزبلة
ألست تأخذها والزبل مطروح

وقال بعض الحكماء: خذ الدر من البحر والذهب من الحجر والمسك من الفأرة والحكمة ممن قالها.

وقال بعضهم:

لا ترجعن إلى السفيه مقالة
إلا جواب تحية حياكها
فتى تحركه تحرك جيفة
تزداد نتناً ما ازددت حراكها

وقال آخر:

ألم تر أن الحلم زين مسود لصاحبه
والجهل للمرء شائن
فكن دافناً للجهل بالحلم تسترح
من الجهل إن الحلم للجهل دافن

وقال آخر:

ليس يزري بصاحب العقل فقر
لا ولا ينفع الجهول الثراء

وقال بعضهم : صحبة بليد نشأ مع عقلاء خير من صحبة لبيب نشأ مع جهلاء.

ويقال : العاقل بخشونة العيش مع العقلاء آنس منه بلين العيش مع السفهاء؛ وقال ابن أبي حازم : لا تراني أبداً أُكرم ذا مال لماله لا ولا يزري بمن يعقل عندي سوء حاله؛ إنما أقضي على ذاك وهذا بفعاله.

يقال : اختبروا الناس بأخدانهم، فإن الرجل من يعجبه نحوه وطبعه، ولا تك للجاهل خدناً فقد يعتبر الصاحب بالصاحب.

وقال آخر :

وما الغي إلا أن تصاحب غاوياً
وما الرشد إلا أن تصاحب مرشدا

وقال آخر:

آخي الكرام بني الكرام فإنما
يلد الكرام بنو الكرام كراما
واحذر مؤاخاة اللئام فإنما
يلد اللئام بنو اللئام لئاما

وقال آخر:

أخو الفسق لا يغرك منه تودد
فــكل وداد الفاســقين مهــين
وصاحب إذا ما كنت يوماً مصاحباً
أخـا ثقـة بالغيـب منـك أمـين

وقال آخر:

ولا تصــل حبــل غادر ملــق
فالغـدر مـن شر شـيمة الرجـل
لا خـــير في غادر مودتـــه
كالصـاب والقـول منـه كالعسـل

فيجب على العاقل أن يختبر خدينه ويستجيد قرينه؛ قال رسول الله ﷺ :
«**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**».

على أن السليم من العيوب معدوم عند الامتحان، ولم يوجد ذلك في جدة الزمان؛ فكيف الآن مع تصرف الدهور وتغير الأمور وانقلاب الأحوال وكثرة الأهوال، فإن نفسك التي هي أعز الأشياء عليك وأولاها بالطاعة لك لا تؤاتيك على كل ما تأمرها به، فكيف تطالب غيرك بما لا تطيعك فيه نفسك.

قال الشاعر:

طلبت امرءاً محضاً صحيحاً مسلماً
نقياً من الآفات في كل موسم
لأمنحه ودي فلم أدرك الذي
طلبت ومن لي بالصحيح المسلم
فلما بدا لي أنني لست مبتلى
من الناس إلا بالمريض المسقم
صبرت ومن يصبر يجد غب صبره
ألذ وأحلى من جنى النحل في الفم
ومن لم يطب نفساً ويستبق صاحباً
ويغفر لأهل الود يَصرم ويُصرم

قال بعض الحكماء: لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارد أموره ومصادرها، فإذا أنت استبطنت منه ورضيت منه العشرة فآخه على إقالة العثرة والمواساة في العسرة.

قال العتابي:

زين أخاك بحسن وصفك فضله
وبث ما يأتي من الحسنات

وتجـاف عـن عثراته طـول المدى
مـن ذا الذي ينجـو مـن العـثرات

وقال آخر:

وأغـضي للصديـق عن المسـاوئ
مخافـة أن أصـير بـلا صديـق

أميـل مـع الذمـام على ابـن عـمي
وآخـذ للصديـق مـن الشـقيق

وقال آخر:

أخلـص الـود لمـن آخيتـه
واغفـر العـثرة منـه إن عـثر

وإذا زلـت بـه النعـل فـلا
تلبسـن يومـاً له جـلد النمـر

عـد بحلـم منـك تطفـئ جهلـه
إنمـا الجهـل كنـار تسـتعر

ويقال : الصديق الموافق خير من الشقيق المنافق؛ وقيل : المودة أقرب الأنساب وأشبك الأحساب؛ **قال بعضهم** :

كـم مـن أخ لـك لـم يـلده أبوكا
وأخ أبـوه أبـوك قـد يجفـوكا

كاف الكـرام إذا أردت إخاهـم
واعلـم بـأن أخـا الحفـاظ أخـوكا

كـم إخـوة لـك لـم يـلدك أبوهم
وكأنمـا آباؤهـم ولدوكا

لـو جئـت تحملهـم على مكروهـة
تخشى الحتـوف بهـا لما خذلـوكا

وأقـارب لـو أبـصروك معلقـاً
بنيـاط قلبـك قـط مـا رحمـوكا

وقال لبيد:

ذهـب الذيـن يعـاش في أكنافهـم
وبقيت في خلـف كجلد الأجرب

لا يرتجـون ولا يؤمَّـل نفعهـم
ويعـاب قائلهـم وإن لـم يشـغب

مثله :

ذهـب الرجـال المقتـدى بفعالهـم
والمنكــرون لــكل أمــر منكــر
وبقيـت في خلـف يزيـن بعضهم
بعضـاً ليدفـع معـور عـن معور

مثله :

ذهـب الذيـن هـم الغيـاث المنزل
وبـقي الذين هـم العذاب المرسـل
وتقطعــت أرحــام أهــل زماننــا
وكأنمــا خلقــت لئــلا توصــل

واعلم يا أخي أن حسن الصحبة على قدر المصحوب، فالصحبة مع الأكابر بالخدمة ومع الأصاغر بالشفقة والرحمة ومع الأكفاء والنظراء بالإيثار والفتوة، فالخدمة للأكابر معروفة والشفقة على الأصاغر تنبههم على ما فيهم من النقص وتعليمهم ما جهلوه من الطريقة وحسن الأدب.

وأما الإيثار والفتوة مع النظراء فهي التعامي عن عيوبهم وحمل ما يبدو منهم على أحسن التأويل وأجمل الوجوه، إذ ليس يخلو مخلوق من النقص إلا من عصمه الله تعالى، فإن لم تجد وجهاً جميلاً فاتهم نفسك كما قيل في

هذا المعنى : أي صارم لا ينبو وأي جواد لا يكبو؛ وأي الرجال المهذب وأين اللبيب المؤدب.

ولبعضهم : ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل، قيل : صحب رجل إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى، فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل : إن رأيت مني عيباً نبهتني عليه، فقال إبراهيم : إني لم أر لك عيباً، لأني لاحظتك بعين الوداد؛ فاستحسنت ما رأيت منك فسل غيري عن عيبك.

وقال بشر بن الحارث : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار؛ وقال ذو النون : الصحبة مع الله بالمراقبة ومع الخلق بالمناصحة ومع النفس بالمخالفة ومع الشيطان بالعداوة؛ وقال أبو عثمان : الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع السنة ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع الأولياء بالاحترام والخدمة، والصحبة ومع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثما، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم.

واعلم أن الجهل يطلق على معنيين :

أحدهما : عدم العلم عما من شأنه العلم، وهو بحسب أصل الفطرة ليس بعيب؛ قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ وقال تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ وبحسب الاستمرار بالتفريط في العلم عند إكمال الأهلية عيب.

وثانيهما: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، ويسمى مركباً؛ وهو الشعور بالشيء على خلاف ما هو به، وقد يسمى الجهل أيضاً بسيطاً وهو المراد بعدم الشعور، والمراد بالجهل المركب كجهل الكافر لأنه يجهل الحق في نفس الأمر، فإذا قيل: أنت جاهل يقول: لا بل أنا عالم فقد جهل وجهل جهله، فركب جهله من جهلين يسمى مركباً.

وقد جمع الشاعر هذه المعاني في قوله:

وكم جاهل بي وهو يجهل جهله
ويجهل علمي أنه بي أجهل

فجهل الكافر بالله تعالى ووحدانيته وصفات كماله ونبوة محمد ﷺ ليس بعذر، لجحود ما اتضح برهانه فإنه مكابرة؛ أي يدفع عن انقياد الحق واتباع الحجة إنكاراً باللسان وإباء بالقلب بعد وضوح الحجة وإقامة الأدلة.

فإن قيل: الكافر المكابر يعرف الحق، وإنما ينكره جحوداً واستكباراً لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ الآية، ومثل هذا لا يكون جهلاً على التفسير المذكور، وهو عدم العلم عما من شأنه العلم.

قلنا: من الكفار من لا يعرف الحق تعالى، ومكابر له لترك النظر في الأدلة والتأمل في الآيات؛ ومنهم من يعرف الحق وينكره مكابرةً وعناداً،

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ الآية؛ والجهل فيهم عدم التصديق المفسر بالإيمان، والقبول بكل ما جاء به محمد ﷺ، فلا منافاة بين المعنيين.

قوله: وينوي بالتعلم شكر البيت؛ أي وينوي بالتعلم الشكر على نعمة العقل وصحة البدن، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾؛ **وقال الشاعر:**

وكم رأينا من ذوي نعمة
لم يأخذوا بالشكر أفضالها

تاهوا على الناس بأموالهم
وأقفلوا بالبخل أقفالها

فزالت النعمة عنهم كما
أزال رب الدهر مغتالها

لو شكروا الله لزادتهم
مقالة الله التي قالها

لئن شكرتم لأزيدنكم
لكنما كفرهم غالها

والكفر للنعمة يدعو
إلى زوالها والشكر أبقى لها

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه في معنى قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾؛ لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

ويقال: من شكر النعمة زاده من النعمة، ومن شكر المنعم زاده معرفته ومحبته؛ وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله تعالى ليرضى من العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله تعالى عليها**».

وعنه عليه السلام أنه قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق سيعلم الجميع اليوم من أولى بالكرم، ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم ينادي: أين الذين كانوا يحمدون الله تعالى في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الناس**».

وعن قتادة عنه عليه السلام أنه قال: «**أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: لسان ذاكر وقلب شاكر وبدن صابر وزوجة مؤمنة صالحة**».

وروى الحسن عن النبي عليه السلام أنه قال: «**ما أنعم الله تعالى على عبد من نعمة صغرت أو كبرت فقال الحمد لله إلا كان أعطاه خيراً مما أخذ**».

وعنه عليه السلام أنه قال: «**عجبت لأمر المؤمن أمره كله خير له إن أصابه خير فشكر الله تعالى كان خيراً له وإن أصابه ضير فصبر عليه كان خيراً له**».

واعلم أن حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه، قال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر، وقال الجنيد: هو أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة، وقيل: الشكر على وجهين: شكر العوام وشكر الخواص؛ فأما شكر العوام فهو الحمد باللسان وأن تعرف بأن النعمة من الله تعالى، وأما شكر الخواص فالحمد لله باللسان والمعرفة بالقلب والخدمة بالأركان، وحفظ اللسان وسائر الجوارح عما لا يحل.

وقيل: الشكر على ثلاثة أنواع: شكر بالقول، وشكر بالفعل، وشكر بالقلب؛ فشكر القول كلمة الحمد.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما من كلمة أحب إلى الله تعالى ولا أبلغ عنده في الشكر من قول العبد: الحمد لله الذي أنعم علي**»، لأن الحمد ذكر وشكر، وأما شكر الفعل فقوله عز وجل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾.

وكان داود عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، ما من ساعة منهما إلا وإنسان من أهله قائم يصلي؛ فعمهم الله تعالى بالذكر في هذه الآية فقال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾؛ وقال ابن عطاء: أظهروا

شكر النعمة كظهور النعمة عليكم، وقيل : اعملوا من الأعمال ما تستوجبون عليه الشكر؛ ثم قال : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، أي قليل من عبادي من يرى مَنّي عليه في الطاعات.

وقيل : الشاكرون ثلاثة؛ شاكر وشكور وشكار؛ فالشاكر من يشكر الله تعالى على نعمته، والشكور من يشكر الله على شكره، والشكار من يشكر الله تعالى على معرفته، وقيل : الشاكر الذي يشكر على المفقود، والشكور من يشكر على الموجود، وقيل : الشاكر من يشكر على الرفد، والشكور الذي يشكر على الرد.

وقال الشبلي رحمه الله تعالى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم، والشكار من الشاكرين قليل، والشكار من القليل قليل، وأما شكر القلب فمعرفة النعم من المنعم كما روي عنه عليه السلام أنه قال: «**إذا أنعم الله على عبد فيعلم أن النعمة من الله فقد أدى شكرها من قبل أن يحمد**».

وحكي أن داود عليه السلام قال : إلهي كيف أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟ فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتني؛ وقيل : إنه تعالى قال : يا داود ألست تعلم أن ما بك من النعم فمني؛ قال : نعم يا رب؛ قال : رضيت بذلك منك شكراً.

وقيل لعتبة الغلام : كيف أصبحت؟ قال : أصبحت وبي من نعم الله ما لا أحصيه مع كثرة ما أعصيه، فلا أدري بما أشكره أجميل ما ينشر أو

قبيح ما يستر؛ وقال بكر بن عبد الله : ما قال عبد قط الحمد لله إلا أوجب الله عليه نعمة بقوله الحمد لله، ثم جزاء تلك النعمة أن يقول : الحمد لله على الحمد لله، فذاك نعمة أخرى فكيف تنفذ نعم الله تعالى.

قال بعضهم:

إذ كان شكري نعمة الله نعمة علي
له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر

وقال آخر:

وكيف أطيق الشكر والشكر نعمة
علي بإحسان وبر مجدد

ويقال : اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك؛ فإن الإنعام واجب على ذي القدرة، والشكر واجب لذي النعمة، وقال الربيع بن راشد يوماً : ليتني أعلم أي العمل أحب إلى الله عز وجل؛ فرأى في منامه في ليلته أن قائلاً يقول له : إن أحب الأعمال إلى الله تعالى الذكر والشكر، قيل : شكر النعمة مشاهدة المنة، وقيل : شكر النعمة أن لا تتقوى بنعمه على معاصيه.

قال بعضهم :

أعارك مــاله لتقــوم فيــه
بواجبــه وتعــرف فضــل حقــه
فلــم تشــكر له نعمــا ولكــن
قويــت على معاصيــه برزقــه
تبــارزه بهــا عــوداً وبــدءاً
وتسـتخفي بهــا مـن شر خلقــه

وقيل: الشكر رؤية المنة من المنعم على دوام الأحوال؛ وقال الأنطاكي: الشكر على وجوه منها: شكر أهل المعاملة، وذلك أنهم يرون النعمة من الله تعالى وينظرون إليها بعين التعظيم، وشكر العاصين وهو التوبة عن المعاصي، وشكر المطيعين وهو الحمد باللسان وذكر النعم، وشكر العارفين وهو معرفة المنعم وما هو إلا درجة الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: الشكر اعتقاد محبة المنعم، وقيل: الشكر موافقة المنعم، والكفران مخالفته؛ وقيل: الشكر أن لا تختار على الله أحداً سواه، وقيل: الشكر أن لا تتلبس بشيء تستحي منه في العلانية، وقيل: الشكر هو الصبر مع الحق والكفر هو الصبر عن الحق، وقيل: أشكر الخلق إلى الله من لم ير أنه شكر قط.

وحكي أن رجلاً ضريراً كان يخرج إلى المسجد، فقالت له امرأته ذات ليلة: لم لا تصلي في البيت؟ فقال: أخرج إلى المسجد لكي أؤدي شكر يدي

ورجلي، فلما أصبح أصبح بصيراً وقد كان أمسى ضريراً، فقال : نعم الرب ربي شكرته فجزاني على شكري بما لم أسأله منه.

وقال ابن الجلاء : التقوى شكر المعرفة، والتواضع شكر العز، والصبر شكر المصيبة، والعطاء شكر الغنى؛ وسئل أبو حازم ما شكر العين؟ قال : إن رأيت بها خيراً نشرته، وإن رأيت بها شراً سترته، وشكر الأذن إن سمعت بها خيراً رعيته، وإن سمعت بها شراً تركته.

وقيل : ذكر النعمة شكر، وذكر البلوى شكوى، وذكر الله شرف؛ واختلف العلماء في الصبر والشكر أيهما أفضل؟ فقال قوم : الشكر أفضل لأنه ليس للصبر صبر كما للشكر شكر؛ وقال آخرون : بل الصبر ينتظم به الشكر لأنه إذا صبر على مصيبة فذلك الصبر نعمة حادثة هي أفضل مما أصيب به، إذ لم يصبر إلا بالله، فإذا شكر الصبر الذي وفق له وجب عليه شكر ذلك ودخل في مرتبة لا نهاية لها.

والصبر مقام أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالشكور يعبده على حفظ نفسه، والصبور يعبده في الشدة على حب ربه، والشاكر في النعمة يعبده على تربية نفسه، والصابر في المحنة يعبده على تقية نفسه، فالشكور أخذ ويعطي والصبور يعطي ولم يأخذ، وتقريب الأمر بينهما أن يقال : إنهما يقتربان في المعنى وإن افترقا في الاسم عند التحصيل وهما جامعان لجميع الطاعات مشتملان عليها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقد أوجب الله تعالى للشاكر الزيادة فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ونفى عن أجر الصابرين النهاية فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، والصبور يفتخر بالملك، والشكور يفتخر بالملك، والشكور مسرور بالنعمة، والصبور مسرور بالمنعم، والشكور مديون المولى، والمولى مديون الصابر على البلوى، والشكور يقول ما دامت النعمة معي فلا أبالي، والصبور يقول ما دام المولى معي فلا أبالي.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وسئل ذو النون عن الصبر والشكر؟ فقال: ليس من يقول أنا وهو في النعمة كمن يقول أنت وهو في الشدة؛ وحكي عن مطرف بن عبد الله أنه قال: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر.

واعلم أن الناس في الشكر على طبقات: طبقة كافرة غير عارفة للمنعم وغير معترفة بالنعمة وهم عامة الكفار، وطبقة عرفت المنعم بالإنعام وعقدت قلوبها على ذلك غير أنها تغفل وتنسى وتعصي وتسهو ما لم تراجع عقولها وتنتبه من غفلتها؛ فأما إذا رجعت إلى إيمان قوي وعقد صحيح وهم عامة المؤمنين، وقد يتفاوتون في ذلك.

وطبقة عرفوا النعمة فتلقوها بشكرها وحافظوا على استدامتها بشكر المنعم لها ولزوم الطاعة لأجلها والمداومة على ذكر من أولاها، وهم في ذلك لأنفسهم مستقصرون ولها معاتبون جعلنا الله منهم.

وقال جعفر بن محمد الباقر رضي الله عنهما : إن الله يحب الجمال والتجمل ويكره البؤس والتبؤس، فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى عليه أثرها، قيل : وكيف ذلك؟ قال : بتنظيف ثوبه وتطييب ريحه وتكنيس أفنيته، حتى إن السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق؛ وقال : كن لنعم الله عليك في دينك أشكر منك لنعم الله عليك في دنياك.

وأما العقل فاعلم أنه لا يحتاج الإنسان إلى تكلف في إظهار العقل، لا سيَّما وقد ظهر شرف العلم من قبل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه؛ والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين؛ وكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة الدنيوية والأخروية.

وشرف العقل مدرك بالضرورة، وقد سمَّاه الله تعالى نوراً والعلم المستفاد منه روحاً وحياةً، لقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، وقوله : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أراد العلم والجهل.

وقال صلى الله عليه وسلم : «**يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم، وتواصلوا بالعقل تعرفوا به ما أمرتم به وما نهيتم عنه، واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان**

ذميم المنظر حقير الخطر دني المنزلة رث الهيئة، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصوحاً نطوقاً، والقردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه، ولا تغتروا بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنكم من الخاسرين».

وقال ﷺ : **«أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب».**

وعن عمر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله».**

وقال ﷺ : **«إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس».**

وعنه عليه السلام أنه قال : **«لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله»**؛ فبقدر عقله تكون عبادته؛ وعن البراء بن عازب قال: كثرت المسائل يوماً على رسول الله ﷺ فقال : **«يا أيها الناس إن لكل شيء فطنة وأحسنهم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلهم عقلاً».**

وعنه عليه السلام أنه قال: «**جدَّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله تعالى بالعقل، وجد المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم لطاعة الله أوفرهم عقلاً**».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، بأي شيء تفاضل الناس في الدنيا؟ قال: «**بالعقل**»، قالت: قلت وفي الآخرة؟ قال: «**بالعقل**»، قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال: «**يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل**»؛ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن العقل؛ ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء دعامة ودعامة المؤمن العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرئ عقب ينتسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينتسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمن العقل**».

وعنه عليه السلام: «**إن أحب المؤمنين إلى الله تعالى من نصب في طاعة الله تعالى ونصح لعباد الله وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل**

به أيام حياته فأفلح وأنجح».

وقال عليه السلام : «**أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمر به ونهي عنه نظراً وإن كان أقل منكم تطوعاً**».

وعنه عليه السلام أنه قال : «**إذا تقرب الناس بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك**»؛ وقال عليه السلام لأبي الدرداء : «**ازدد عقلاً تزدد من الله قرباً**»، فقال : بأبي أنت وأمي فكيف لي بذلك؟ فقال ﷺ : «**اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلاً وتعمل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل بها من ربك القرب والعز**».

وعن ابن المسيب أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس؟ فقال : «**العاقل**»، فقالوا: فمن أعبد الناس؟ فقال : «**العاقل**»، قالوا : فمن أفضل الناس؟ قال : «**العاقل**»، قالوا : أليس العاقل من قد تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته؟ فقال عليه السلام: «**إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين إن العاقل هو المتقي وإن كان في الدنيا خسيساً دنيئا**».

وعنه عليه السلام أنه قال : «**لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفاجرة** : ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾».

وقال الحسن البصري : ما استودع الله أحداً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما؛ وقال بعض الحكماء : العقل أفضل موجود، والجهل أنكى عدو، وقال بعض الأدباء : صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله؛ وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل.

وقال إبراهيم بن حسان:

يزين الفتى في الناس صحة عقله
وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله
وإن كرمت أعرافه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه
على العقل تجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله
وليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله
فقد كملت أخلاقه ومآدبه

وقال بعضهم :

ألا إنما الإنسان غمد لقلبه
ولا خير في غمد إذا لم يكن نصل

فإن كان للإنسان قلب فعقله
هو النصل والإنسان من بعده فضل

ولا خير في عيش إذا لم يكن غنى
ولا خير في مال إذا لم يكن عقل

ولا خير في وعد إذا كان كاذبا
ولا خير في قول إذا لم يكن فعل

فإن جمع الأفات فالبخل شرها
وشر من البخل المواعيد والمطل

وقال آخر :

يعد رفيع القوم من كان عاقلاً
وإن لم يكن في قومه بحسيب

وإن حل أرضاً عاش فيها بعقله
وما عاقل في بلدة بغريب

واعلم أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، وأس الفضائل وينبوع

الآداب هو العقل الذي جعله الله سبحانه للدين أصلاً، وللدنيا عماداً؛ فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه؛ وهو على قسمين : غريزي ومكتسب؛ فالغريزي هو العقل الحقيقي، وله حد يتعلق به التكليف، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوانات؛ فإذا تم في الإنسان سمي عاقلاً، وخرج به إلى حد الكمال كما قال بعضهم:

إذا تـم عقـل المـرء تمـت أمـوره
ونمـــت آياديـــه وتـــم ثنـــاؤه

واختلف العلماء في تعريفه؛ فقال فخر الإسلام البزدوي : هو نور يضيء طريق يبتدأ به من حيث ينتهي إليه درك الحواس، فيبتدأ المطلوب للقلب فيدركه بتأمله بتوفيق الله تعالى؛ ويؤيد هذا ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : «**العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل**».

وقال بعض أصحابنا : هو جوهر طهر بماء القدس، وروح بروائح الأنس، وأودع في قلوب بشرية وأصداف إنسانية، كلما أضاء استنارت مناهج اليقين، وإذا أظلم خفي على صاحبه مدارك الدين، لقوله عليه السلام: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

واختلفوا في محله فقالت طائفة : محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس، وقالت طائفة : محله القلب لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس، وقسم

آخرون منهم الغزالي رحمه الله الغريزي إلى قسمين:

الأول : قال الحارث المحاسبي : العقل غريزة يتهيأ بها لدرك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء.

الثاني ما كان مبتدأ في النفوس كالعلوم التي يخرج بها إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم، وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم، وأن من المحال اجتماع الضدين؛ وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل عند سلامة حاله وكمال عقله.

وإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل؛ وأما المكتسب وإنما سمي مكتسباً لقوله عليه السلام : «**ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى**».

وهو أيضاً على قسمين : وهما نتيجة العقل الغريزي، وهو ثقابة المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة؛ وليس لهذين القسمين حد، لأنهما يزدادان إن استعملا وينقصان إن أهملا؛ الأول منهما علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يسمى عاقلاً عادة إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صادٍّ من شهوة، كالذي يحصل لذوي الأسنان من صحة الرؤية وممارسة الأمور.

ولهذا حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قالوا : المشايخ أشجار الوقار ومنابع الأخبار، لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم، إن رأوك على قبيح صدوك، وإن أبصروك على جميل أمّروك؛ وقيل في منثور الحكم : من طال عمره نقصت قوة بدنه، وازدادت قوة عقله؛ وقال بعض البلغاء : التجربة مرآة العقل والعزة ثمرة الجهل.

وقال بعض الفصحاء:

ألـم تـر أن العقـل زيـن لأهلـه
ولكن تمـام العقل طول التجارب

آخر:

إذا طـال عمـر المـرء في غـير آفـة
أفـادت له الأيـام في كرهـا عقـلا

الثاني منهما يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة، وذلك لجودة الحدس؛ فإذا امتزج هذا بالعقل الغريزي صارت نتيجته نمو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأي، كما حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه جميعا إلا عبد الله، فقال له عمر رضي الله عنه : ما لك لم تهرب مع أصحابك؟ فقال : يا أمير المؤمنين لم أجنِ فأخافك ولم يكن بالطريق ضيق فأوسع لك.

فانظر إلى ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة، وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية؛ وقالت الحكماء : نهاية العقل سرعة الفهم وغايته إصابة الوهم، وليس لمن منح سرعة الخاطر وجودة القريحة عجز عن جواب؛ كما قيل لعلي رضي الله عنه : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟ فقال : كما يرزقهم على كثرة عددهم.

وقيل لابن عباس رضي الله عنهما : أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد؟ فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان؟

وهذان الجوابان جوابا إسكات؛ وقيل لعلي رضي الله عنه : كم بين السماء والأرض؟ فقال : دعوة مستجابة، فقيل : كم بين المشرق والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم للشمس.

فهذا السؤال من سائله إما اختبار وإما استبصار، فصدر عنه من الجواب ما أسكته؛ فالأول هو الأس والمنبع، والثاني هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم االنظرية تستفاد علوم التجارب، والرابع هي الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى؛ فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب.

ولذلك قال علي رضي الله عنه : العقل عقلان مطبوع ومسموع، ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع؛ فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال:

رأيت العقل نوعين فمسموع ومطبوع

فلا ينفع مطبوع إذا لم يك مسموع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول أعني الغريزي هو المراد بقوله عليه السلام: «**ما خلق الله تعالى خلقا أكرم عليه من العقل**»؛ والأخير أعني المكتسب هو المراد بقوله ﷺ: «**إذا تقرب الناس بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك**».

فإذا اجتمع في العقل المكتسب فرط الذكاء بجودة الحدس وقوة القريحة بحسن البديهة، مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار؛ فهو العقل الكامل على الإطلاق من الرجل الفاضل بالاستحقاق.

واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناهى وزاد؛ هل يكون فضيلة أم لا؟ فقال قوم: لا يكون فضيلة لأن الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين، كما أن الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة.

وقد قالت الحكماء للإسكندر: أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور، فإن الزيادة عيب والنقصان عجز.

وقال عليه السلام: «**خير الأمور أوساطها**»؛ وقال علي رضي الله عنه: خير الأمور النمط الأوسط إليه يرجع العالي ومنه يلحق التالي.

قال الشاعر:

لا تذهــبن في الأمــور فرطــا
ولا تســألن إن ســألت شــططا
وكــن في النــاس جميعــاً وســطا

ولأن زيادة العقل تقضي بصاحبها إلى الدهاء والمكر، وذلك مذموم وصاحبه ملوم؛ وقيل إفراط العقل مضر بالجد، ويقال كفاك في عقلك ما دلك على سبيل رشدك، ويقال قليل يكفي خير من كثير يطغي.

وقال آخرون : زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب غير محدود، واتفق الفريقان أن كلما زادت الفضائل المحدودة نقصاً مذموماً لأن ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة، كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة إلى التهور والسخاء إذا زاد على حد السخاء إلى التبذير.

وليس كذلك حال العقل المكتسب لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن إصابة الظنون، وذلك فضيلة لا نقص، وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحمق بما فيه من الرذائل فقال : العاقل إذا والى بذل في المودة نصره وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء إليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو وأورده من

حلمه كل مورد صفو.

والأحمق ضال مضل إن أونس تكبر وإن أوحش تكدر، وإن استنطق تخلف وإن ترك تكلف، مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ومجاورته تغر وموالاته تضر، ومقاربته عمى ومقارنته شقاء.

واعلم أن الحلم أرفع من العقل؛ وقال الأحنف : ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد إلا في العسر والعدم ولا الشجاع إلا الحرب ولا الحليم إلا عند الغضب؛ ويقال : ما حلم عبد في الرضا كحلمه في غضبه، ويقال : من حلم ساد، ومن تغنم ازداد.

وكان الشعبي رحمه الله يتمثل إذا ذكر عنده الحلم بقول الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضا

إنما الأحلام في حال الغضب

وقال بعضهم :

العلم والحلم حلتا كرم

للمرء زين إذا هما اجتمعا

صنوان لا يستتم حسنهما

إلا بجمع لذا وذاك معا

كـم مـن وضيـع سـما بجمعهمـا
فنـــال كل المـــراد وارتفعـــا
ومـن رفيـع البنـا أضاعهمـا
أخملـــه مـــا أضـــاع واتضعـــا

وقال آخر:

لن يدرك المجدُ أقوامٌ وإن كرِموا
حـتى بذلـوا وقـد عـزوا لأقـوامِ
ويشـتموا فـترى الألـوانَ مشرقـةً
لا صفحَ ذلٍّ ولكن صفح أحلامِ

وربما كان كثرة الحلم ضعفاً، فإن من الناس من إذا حلمت عليه ازداد تمادياً في جهله وسفهه، ومن الناس من إذا أحسنتَ إليه أساء وإذا أسأت إليه أحسن، وإذا ظلمته أنصفك وإذا أنصفته ظلمك، والفضلُ في أن تُظلم في ذلك كله إذا لم تر عليك في ذلك منقصةً، وقدرتَ على الانتصاف فتركته، هذا هو الممدوح.

قال الشاعر:

إذا كنتَ بين الحلمِ والجهلِ قاعدا
وخيرتَ أنى شـئتَ فالحلـمُ أفضلُ

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً
ولم يرضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثلُ

إذا جاءني من يطلب الجهل عامداً
فإني سأعطيه الذي هو يسألُ

ولم أعطِهِ إياه إلا لأنه
وإن كان مذموماً من الذل أجملُ

أخذه من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه وهو:

لئن كنتُ محتاجاً إلى الحلم إنني
إلى الجهلِ في بعض الأحايين أحوجُ

ولي فرس للحلمِ بالحلمِ ملجمٌ
ولي فرس للجهل بالجهلِ مسرجُ

فمن شاء تقويمي فإني مقومٌ
ومن شاء تعويجي فإني معوجُ

وبالجهلِ لا أرضى ولا هو شيمتي
ولكـني أرضى بـه حـين أحـوجُ

وإن قال بعض الناس فيه سماجةٌ
فقد صدقوا والذل بالحر أسمجُ

وقال النابغة :

ولا خـير في حلـم إذا لم يكن له
بـوادر تحـمي صفـوه أن يكـدرا
ولا خـير في جهـل إذا لم يكن له
حليـم إذا مـا أورد الأمـر أصدرا

وحسبك كمالاً وزينةً أن يكـون لك عقلٌ كامل وأدبٌ بارِعٌ وعلمٌ واسعٌ وحلمٌ رادع فتضم إليها حياء يورثك معها نباهةً وسناء.

قال أصحابُ اللسان: الحلمُ على ثلاثة أضرب : حلمُ الظالمين، والثاني حلم المقتصدين، والثالث حلم السابقين.

فأما حلم الظالمين فهو العفو عن الجاني ظاهراً مع إضمار الحقد له باطناً، وأما حِلم السابقين فهو العفو عن الجاني مقروناً بضم البر إليه وهذا غاية الكرم، وحكي عن بعض أهل البيت رضي الله عنهم أنه كان له عبد فجنى ذات يوم جناية، فغضب عليه فقال : يا ابن رسول الله قال الله تعالى : ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، قال : كظمت غيظي يا ابنَ رسول الله، قال الله تعالى : ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ، قال : عفوت عنك، قال : يا ابن رسول الله، قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ قال : اذهب فقد أعتقتك.

وقيل : إذا لم تغضب فلستَ بحليم، إنما يظهر الحلم عند الغضب، ذكر في الإنجيل لا ينبغي للعالم أن يكون سفيهاً، ومن عنده يقتبس الحلم، ولا ينبغي للإمام أن يكون جائراً ومن عنده يلتمس العدل، وحُكِيَ أن رجلاً لطمَ حاتماً يوماً فقيل له: كيف وجدت نفسك؟ فقال أنا مشغولٌ بشكر أربعٍ إذ لم تكن الزلة مني، وإذ لم أشتغل بمكافأته وإذ لم أحرم الصبر عليه وإذا استوجبتُ من الله تعالى الثواب عليه.

وروي عن علي رضي الله عنه أنه دعا غلاماً له ذات يوم، فلم يجبه ثم دعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه فقام إليه فوجده مضطجعاً فقال : أما سمعت يا غلام فقال: بلى، فقال فما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟ قال : تكاسلتُ عنك، وأمنتُ من عقوبتك، فقال : امضِ فأنت حر لوجه الله تعالى.

وعن النبي عليه السلام أنه قال : «**من لم يكن فيه ثلاثة لم يجد طعم الإيمان، حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يحجزه عن المحارم، وخلق يداري به الناس**».

ويروى أنه لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة شرفها الله تعالى لجأت قريش إلى الكعبة، فآتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فوقف عليهم فقال صلى الله عليه وسلم : «**ماذا تقولون وماذا تظنون؟**» قالوا : نقول خيراً ونظن خيراً؛ قال : «**فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف** ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾».

وأما الحياء فقد اختلف فيه أيضا فقيل هو على خمسة أوجه:

حياء إجلال، وحياء إشراف، وحياء تقصير، وحياء استحقار، وحياء كرم.

فأما حياء الإجلال فما روي في الخبر أن إسرافيل عليه السلام تسربل بجناحيه حياءً من ربه عز وجل، وأما حياء الإشراف فما روي في بعض الأخبار استحي من الله تعالى كما تستحي من رجلين صالحين من قومك، وروي أيضا في بعض الأخبار أن الله تعالى يقول : ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أرده، ويعصيني ولا يستحيي مني.

وأما حياء التقصير فما روي في الخبر أن الملائكة يقولون يوم القيامة: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك، وإنما يحملهم على ذلك حياء التقصير، وأما حياء الاستحقار فما روي عن موسى عليه السلام أنه قال لله تعالى : إني لتعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألكها، فقال الله تعالى : يا موسى سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك.

وأما حياء الكرم فما قال الله تعالى في قصة محمد ﷺ مع أصحابه رضي الله تعالى عنهم : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾؛ فهذا حياء الكرم لمحمد ﷺ، وأما حياء الكرم للحق عز وجل فهو ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**إن الله عز وجل يستحي من ذي الشيبة في الإسلام أن يعذبه بالنار**».

ويؤيد هذا ما حكي أن يحي بن أكتم رؤي في المنام بعد موته فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أقامني بين يديه وقال : يا شيخ السوء جئتني بتخليط كثير، فقلت: نعم يا رب، ولكن حدثني عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة عن محمد عن جبريل عنك أنك قلت : «الشيب نوري فأنا أستحي أن أحرق نوري بناري، فقال الله عز وجل: صدق عبد الرزاق وصدق معمر وصدق الزهري وصدق عروة وصدقت عائشة وصدق محمد وصدق جبريل وصدقت أنا اذهب فقد غفرت لك».

ومن شعره :

إذا قـلَّ مـاء الوجـه قـلَّ حيـاؤه
ولا خـير في وجـه إذا قـل مـاؤه
حيـاؤك فاحفظـه عليـك
فإنما يدل على فضل الكريم حياؤه

وقال يحي بن معاذ : من استحيي من الله تعالى مطيعا استحى الله من عذابه مذنباً، وهذا الذي ذكر حياء الكرم، وقيل : الحياء الاحتشام من أن يراك ربك تقوم بغير إذنه أو تحب غيره أو تطلب سواه، وقيل : أنفع الحياء أن تستحيي من الله تعالى أن تسأله ما يحب، وتأتي ما يكره.

وقال الجنيد :الحياء رؤية الآلاءِ من الحق تعالى، ورؤية التقصير من النفس؛ فيتولد من هاتين الحالتين حالة تسمى الحياء، وقال المحاسبي : الحياء

الامتناع من كل خلق دنيء ومعرفة القلب بسؤال الله تعالى والوقوف بين يديه قبل السؤال، فإنه مطلع على كل الأحوال.

وقال بعض الشعراء:

إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً
تقلب في الأمور كما يشاء

ولم يك للدواء ولا لشيءٍ
يعالجه به فيه عناء

وربَّ قبيحة ما حال بيني
وبين ركوبها إلا الحياء

فكان هو الدواء لها ولكن
إذا ذهب الحياء فلا دواء

إذا لم تخش عاقبة الليالي
ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير
ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحى بخير
ويبقى العودُ ما بقي اللحاء

وإنما أخذ الشاعر معنى هذا الشعر مما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**».

وقيل : قلب المؤمن مضغة جوفانية، حشوها جوهرة ربانية؛ وحولها روضة نورانية، وفوقها دواع رحمانية، وتحتها ساحة روحانية، موضوعة في نفس شهوانية؛ فإن لبس صاحبها ثياب الصفاء، وارتدى برداء الوفاء واتزر بإزار الحياء، وتزين بالخوف والرجاء، وأكثر على خشية فوت الشيء البكاء؛ فقد وصل إلى مقام البهاء ونال الشرف والسناء، ووجد مقام البقاء؛ وإلا فليعد نفسه للبلاء ومعالجة الفناء والاستحياء في مقام لا ينفع الحياء.

وقال بعضهم :

وإني لأغضي من رجالٍ على القذى
مراراً وما من هيبةٍ لهم أغضي
وما عاقني إلا الحياء تكرماً
وأكرم عن أدناس عرضهم عرضي

آخر:

وإني ليثنيني عن الجهل والخنا
وعن شتم ذي القربى خلائق أربع

حياء وإسلام وتقوى وأنني كريم
ومثلي من يضر وينفع

آخر:

إذا حرم المرء الحياء فإنه
بكل قبيح كان منه جديرُ
له قحة في كل أمر وشره
مباحٌ وخدناه خنىً وغرورُ
يرى الشتم نفعاً والدناءة رفعةً
وللسمع منه في عظات نفورُ
فرج الفتى ما دام حياً فإنه
إلى خير حالات المنيب يصيرُ

قوله: ولابد للطلاب من فكر ساعة؛ قال أصحاب اللسان: التفكر على ضربين: تفكر في الحق تعالى والعبد ممنوع منه، وتفكر في الخلق والعبد مندوب إليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وروي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تفكروا في خلق الله تعالى ولا تتفكروا في الله تعالى فإنكم لن تقدروا قدره**».

ومعنى هذا الخبر أن الخلق تنالهم الأوهام وتحيط بهم الأفكار، والحق عز وعلا لا تناله أوهام المتوهمين ولا تحيط به أفكار المتفكرين، وقال الروذباري : التفكر على ثلاثة أوجه : فكرة في آيات الله تعالى ونعمائه يتولد منها المحبة، وفكرة في وعد الله تعالى وثوابه يتولد منها الرغبة، وفكرة في وعيد الله وعقابه يتولد منها الحياء من الله عز وجل.

وقال حاتم الأصم : من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف؛ وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمةً فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

وقال ذو النون : من أدمن التفكير بقلبه أبصر الغيب بروحه، وقال الكناني : أصوات الأحزان تهيج من ميادين التفكر، وقال : فطر الله عز وجل الخلق على الفطرة وأطلق لهم الفكرة فبالنظرة عرفوه وبالفكرة عبدوه.

وقال الحسن: الفكرة مرآتك تريك حسناتك وسيئاتك؛ وقال وهب: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم إلا عمل؛ وقال أبو عثمان : من تفكر في فناء الدنيا وزوالها أورثه الزهد فيها ومن تفكر في الآخرة وبقائها أورثه الرغبة فيها.

وقال الجنيد : أفضل المجالس الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والنسيم بنسيم المعرفة والشراب بكؤوس المحبة من بحر الوداد والنظر

بحسن الظن بالحق الى الحق، فيا له من مجلس ما أجلّه ويا له من شراب ما ألذه، فطوبى لمن رزقه.

وقيل: عشر خصال أصول لعشر خصال وأساس لها؛ فالتواضع أساس العبودية وقهر لنفس أساس الزهد فيها والحياء من الله تعالى أساس التوبة وصدق الإرادة أساس الإنابة وصدق القناعة أساس اليقين ومعرفة الخلق أساس الإياس منهم والعزلة من الناس أساس وجود الخلوة بالحق تعالى وترك الغضب أساس المروءة ورؤية المنة أساس الاستقامة وفراغ القلب أساس التفكر.

وقيل : ينبغي للعبد أن يرجع من عشرة أشياء إلى عشرة أشياء : من الجوع إلى الصبر ومن النسيان إلى الذكر ومن العصيان إلى الطاعة ومن البخل إلى الجود ومن الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الإصرار إلى التوبة ومن الكذب إلى الصدق ومن الغفلة إلى التفكر ثم إذا حفظ آداب التفكر وفق حينئذ للرجوع من كل ما دون الله تعالى إلى الله عز وجل.

قال الغزالي : الفقيه العاقل يجتني ثمرة عقله بالتفكر والتدبر، وهو الذي يؤدي إلى العبرة الصحيحة، والعبرة تؤدي إلى التبصر كما روي عن الحسن أنه قال : أيما عبد تفكر فاعتبر فأبصر يكون في جملة المذكورين في قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

ولا يرغب في هذه المعاني إلا من له عنصر كريم ونور مستقيم وفقه غزير، حتى إذا تفكر واعتبر نظر إلى عاقبة أمره فاتقى ربه وأطاع خالقه وتفقه فيما عليه من أمور دينه حتى وقع الأداء على التكليف على حقه.

واعلم أن العلماء اختلفوا في الفكر والذكر أيهما أفضل؟ فقال بعضهم: الذكر أفضل؛ ومن الآيات الدالة على فضيلته قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، لأن الذكر اشتغال به والشكر اشتغال بنعمته، وهو على ثلاثة أقسام: ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالجوارح.

أما الذكر باللسان فهو الألفاظ الدالة على التحميد والتسبيح، وأما الذكر بالقلب فهو نوعان: أحدهما أن يتفكر الإنسان في دلائل التكليف من الأمر والنهي والوعد والوعيد، ويجتهد حتى يقف على حكمتها وأسرارها وحينئذ يسهل عليه فعل الطاعات وترك المحظورات؛ ثانيهما أن يتفكر الإنسان في أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة من تلك الذرات كالمرآة المجلوة المحاذية لعالم الغيب، فإذا نظر العبد بعين عقله إليها بلغَ شعاع نظره الروحاني منها عالم الجلال وهذا مقام لا غاية له وبحر لا ساحل له.

وأما الذكر بالجوارح فهو أن تصير الجوارح مستغرقة في الطاعات وخالية عن المنهيات وإذا عرفت ما ذكرناه علمت أن قوله تعالى فاذكروني يتضمن الأمر بجميع الطاعات وأما قوله أذكركم فلا بد من حمله على إعطاء

جميع الكرامات والخيرات.

وأما الشواهد العقلية في فضيلته فهو أن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه قوة عقلية ملكية وقوة وهمية شيطانية وقوة شهوانية بهيمية وقوة غضبية سبعية ثم إن الله تعالى أفهمه معرفة الخير والشر قال تعالى : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، وأعطاه آلات بها يقوى على إدراك المصالح والمفاسد، قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

وأقدره على الخير والشر قال تعالى : ﴿شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾؛ ورفع عنه الحرج قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ وما كلفه إلا بقدر الوسع قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ثم إنه سبحانه وتعالى جعل بدن الإنسان مقسوماً ثلاثة أقسام:

أحدها : قلبه الذي هو رئيس جوارحه وملكها وهو محل العقل والفهم.

الثاني : لسانه الذي يتلو القلب في الرياسة وجعله آلة العبارة عما في الضمير.

الثالث: سائر البدن، وجعل سبحانه وتعالى لكل واحد من هذه الثلاثة نوعاً معيناً يليق به من الطاعات والعبادات، فجعل الفكر للقلب والذكر للسان والسكنات والحركات للأعضاء والجوارح، فإذا تعاونت

هذه الأعضاء على فعل واحد تم وكمل.

وقال بعضهم : الفكر أفضل لوجوه :

الأول : أن الفكر عمل القلب والروح والذكر عمل اللسان والروح أفضل من الجسم فالفكر أفضل من الذكر.

الثاني : ضد الفكر هو الجهل، والجاهل بالله تعالى هو الكافر وقد يحصل الفوز برحمة الله تعالى بدون الذكر، فإن من عرف الله تعالى بالدليل ولم يجد مهلة الذكر كان من أهل الجنة بل الإنسان قد يبلغ في آخر االأمر إلى حيث يكون ترك الذكر له أفضل؛ قال عليه السلام: «**من عرف الله كلّ لسانه**».

الثالث : من كان ناطق العقل أبكم اللسان فهو من الفائزين ولذلك قال عليه السلام إن سين بلال عند الله لشين؛ أما من كان ناطق اللسان أبكم العقل فهو من المنافقين فالفكر أفضل من الذكر.

الرابع : ترك الفكر كفر وترك الذكر معصية والكفر أقبح من المعصية فكان الفكر أفضل من الذكر.

الخامس : قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فجعل الذكر فاتحة

درجات الصديقين حيث قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا﴾ وجعل الفكر خاتمة أمرهم، حيث قال تعالى : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ والغاية في كل شيء أفضل من المبدأ فالفكر طاعة عظيمة ومع كونها كذلك فهي وسيلة إلى المعرفة التي هي أعظم الطاعات، إذ لولا الفكر ما تبين الحق من الباطل والذكر وإن كان في نفسه عبادة لكن ليس وسيلة إلى عبادة أخرى، فوجب أن يكون الفكر أفضل من الذكر فإن قيل الذكر فيه طرد الشيطان واحتراز من الوسواس واشتغال بالحق تعالى وإعراض عما سواه وهذه منافع في غاية الجلالة قلنا كل ذلك حاصل في الفكر مع زيادة ما ذكرنا.

السادس : الفكر طلب نفساني لوجدان المطلوب، وهو فعل شاق والذكر ليس كذلك وإذا كان الفكر أشق كان أكثر ثواباً فإن قيل الفكر طلب المفقود والذكر استيفاء الموجود والفكر يشبه علاج المريض والذكر يشبه استيفاء الصحة، ولا شك أن الثاني أفضل قلنا الفكر يفيد تحصيل الزوائد إلى ما لا نهاية لها والذكر ليس كذلك.

السابع : الذكر باللسان إن لم تحصل معه المعرفة بالقلب فهو ساقط، وإن حصلت المعرفة معه فتلك المعرفة لا تحصل إلا بالفكر

فالذكر إنما يكمل بالفكر والفكر في كمال حاله عن الذكر فكان الفكر أفضل.

الثامن : صاحب الفكر أبداً يكون في الترقي من درجة إلى درجة أعلى منها، وصاحب الذكر يكون كالواقف، فالفكر أفضل من الذكر فإن قيل صاحب الفكر وإن تزايدت درجاته إلا أنه يكون ضعيفاً في واحدٍ منها لأجل أن القوة إنما تحصل بالثبات، وأما صاحب الذكر فإنه وإن كانت درجاته أفضل إلا أنه يكون أكثر رسوخاً، قلنا : التزايد الحاصل بسبب الفكر سبب للقوة والكمال لأن كل درجة تحصل إنما تحصل إذا كانت مقوية لما كانت حاصلة قبل ثم التأكد والتشديد في التزايد.

التاسع : روي أنه عليه السلام كان دائم الفكر، ولم ينقل أنه كان دائم الذكر فالفكر أفضل.

وأما القائلون بتفضيل الذكر فقد احتجوا بوجوه :

الأول : أهل الجنة ليس لهم فكر ولهم ذكر فوجب أن يكون الذكر أفضل من الفكر إنما قلنا إن أهل الجنة ليس لهم فكر لوجوه:

الأول : أن المعارف في الجنة ضرورية.

الثاني : أن الفكر تعب ونصب وأهل الجنة لا يمسهم فيها

نصب.

الثالث : أن الناظر طالب والطالب فاقد وفقدان المطلوب حجاب والحجاب صفة الكفار لا صفة المؤمنين كما قال تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾.

الرابع : أن فقدان المحبوب يوجب الغم والله تعالى شهد بأنه ليس لهم غم قال تعالى : ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾، الآية فثبت أن أهل الجنة ليس لهم فكر وثبت أن لهم ذكرا فوجب أن يكون الذكر أفضل.

الوجه الثاني : أن آخر مراتب النبي ﷺ في التزايد والتصاعد في المعراج هو أنه صار ماموراً بالذكر، فإنه لما قيل له ﷺ : أثن علي؛ قال: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»، ولم يؤمر بالفكر البتة فوجب أن يكون الذكر أفضل من الفكر.

الثالث : أن السيار في آخر سيره يستغني عن الفكر بل العلوم تنجلي في قلبه من عالم أنوار الربوبية، كما قال تعالى في حق الخضر عليه السلام : ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾؛ وقال تعالى في حق محمد: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾؛ والسيار البتة لا يستغني عن الذكر؛ قال تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام : أقم الصلاة لذكري؛ وقال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ وقال تعالى:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وقال تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾.

الرابع : ذكر الله تعالى أن مراتب أهل الجنة في تزايد درجاتهم وليس إلا الذكر فقال تعالى : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فهذا يدل على أن الذكر أفضل الأعمال وإلا لما ختمت به.

الخامس : الفكر مقام اشترك فيه الصديق والزنديق والموافق والمنافق والغائب والحاضر، وأما الذكر فمقام الأولياء العارفين المقربين فوجب أن يكون الذكر أفضل.

السادس : الفكر لا يكون إلا في المخلوقات لأنه انتقال من شيء إلى شيء وذلك يستدعي لا محالة منتقلا عنه ومنتقلا إليه وذلك في الواحد الحق عز وجل محال، أما الذكر فلا يحصل كماله إلا في الواحد الحق تعالى، لأن الذكر لا يكمل إلا إذا كان المذكور واحدا لأنه إذا كثر المذكور كان الاشتغال بذكر كل واحد مانعاً من الاشتغال بذكر الآخر، ووجه آخر وهو أن الفكر لما اقتضى الانتقال من شي إلى شي لم يحصل فيه الرسوخ البتة وأما الذكر فلما كان الثبات حاصلاً فيه لا جرم حصل فيه الرسوخ وهو المراد بقوله : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

السابع : أن الفكر مقام الغيب عن الله تعالى، لأن الفكر طلب ولو كان المطلوب حاضرا لامتنع طلبه لأن طلب الحاضر محال، وأما الذكر فإنه يتناول الغائب والحاضر لأنه قد يذكر الحاضر ومقام الحضور أشرف من مقام الغيبة.

الثامن : الفكر فيه خطر، لأن حال المتفكر يشبه حال السفينة الواقفة في لجة البحر عند اضطراب الرياح والأمواج وذلك، لأن الفكر قد يفضي إلى الحجة وقد يفضي إلى الشبهة ولذلك كان أصحاب الأفكار كثيراً ما يقعون في الأباطيل وأنواع الكفر والإلحاد، وأما الذكر فلا خطر فيه لأن الإنسان عند الذكر يكون مستقر القلب على عبودية الله تعالى مستنير الروح بأنوار معرفته فالوساوس زائلة عن قلبه والشبهات غير مختلطة بمعرفته والشياطين يفرون عنه بدليل قوله تعالى : ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾؛ ولذلك ترى أصحاب الذكر لا يقعون في بدعة ولا ضلالة فهذه المبالغة العظيمة واردة في كتاب الله تعالى في تعظيم حال الذكر وما رأينا مثلها في الفكر فعلمنا أن الذكر أفضل من الفكر.

واعلم أن الأصوليين أطلقوا الفكر على خمسة معانٍ :

الأول : حركة النفس بالقوة التي آلتها مقدم البطن الأوسط من الدماغ

المسمى بالدودة أية حركة كانت إذا كانت في المعقولات وإن كانت في المحسوسات تسمى تخيلاً.

الثاني : وهو المعتبر في العلوم النظرية وهو حركة النفس من المطالب إلى مبادئها ثم الرجوع عنها أو رجوع النفس عن تلك المبادئ إلى المطالب والمراد بحركتها هو ترددها بعد إدراك المطلوب بوجه ما في المعاني الحاضرة عندها باستعراضها وملاحظتها بحالة الأمور المناسبة إلى المطلوب الموصلة إلى العلم به ثم ترتيبها ترتيباً خاصاً ثم الرجوع منها إلى المطلوب، كما إذا كان مطلوبها كون العالم حادثاً فترددت في المعاني الحاضرة عندها فوجدت المتغير مناسباً له لكونه محمولاً على العالم وموضوعاً للحادث فركبته فحصل العالم متغيراً وكل متغير حادث فرجعت إلى أن العالم حادث وهو المطلوب.

الثالث : حركة النفس من المطالب إلى مبادئها بدون أن يكون الرجوع منها إلى المطلوب جزءاً منه، وهذا جزء من المعنى الثاني أعم منه وأخص من الأول وهذه الحركة حركة في الكيف دون الكم والوضع والأين وهو تكيفها بالمعاني المجزومة عندها واحداً بعد واحد بانتقالها من واحد إلى آخر وتكيفها بالمعنى هو اتصالها بالحالة العارضة لها عند ملاحظة المعنى، فإنها إذا

لاحظت معنى يحصل لها حالة لم تكن لها قبلُ مغايرة لما يعرض لها عند ملاحظة معنى آخر ولا شك أن هذه الحركة لا تتحقق إلا بملاحظة المعاني لأنها إرادة حاصلة بالقصد فتكون تلك الحركة مسبوقة بالملاحظة بالذات مساوية لها في الوجود متى وجدت إحداهما وجدت الأخرى.

الرابع : تصرف العقل في الأمور السابقة بالعلم أو الظن المناسبة للمطلوب بتأليف خاص لتحصيل ما ليس بحاصل، وهذا يعم التصوري والتصديقي والقطعي والظني والمراد بالأمور أمران فصاعداً، لأن التأليف لا يمكن في أمر واحد والمراد بالسابقة بالعلم أو الظن كونها معلومةً أو مظنونةً والمراد بالمناسبة للمطلوب أن يكون لها نسبة معه بالحمل أو الوضع على أجزائه في التصديقات والمراد بالتأليف الترتيب وهو جعل الأشياء بحيث يطلق عليها الواحد بشرط أن يكون لبعضها تقدم على الآخر والتأليف الخاص أن يرتبها على أحد الأشكال وعلى الضروب المنتجة إذا كان المطلوب تصديقاً، وتقديم الأعم على الأخص إذا كان تصوراً وهذا التعريف مأخوذ من علله الأربع: الفاعل وهو العقل والمادة وهي الأمور المذكورات فيه بالفعل وكذا الغاية وهي لتحصيل ما ليس بحاصل والصورة مذكورة بالالتزام فإن الصورة هي الهيئة الحاصلة بعد ترتيب الأمور

ترتيباً خاصاً، وهذا التعريف يعم التصوري والتصديقي والقطعي والظني لأنه لم يتقيد بمطلوب خبري وتحصيل ما ليس بحاصل شامل للكل وفيه نظر لأن الظن والعلم المقابل له لا يتناولان التصورات الساذجة التي تؤلف منها الأقوال الشارحة فلا يتصرف العقل فيها بترتيب الحدود والرسوم فلا يعم هذا التعريف التصوري إلا أن يراد بالعلم حصول صورة الشيء في العقل فحينئذ يكون ذكر الظن زائداً.

الخامس: ترتيب أمور ذهنية يتوصل بها إلى أمر ذهني والمراد بالأمور الذهنية الحاصلة في الذهن وهي شاملة للمعلوم والمظنون والمتصور، لأن الترتيب لا يقع فيها ويتوصل بها إلى أمر ذهني غايته النظر وهذا التعريف أيضاً مأخوذ عن علله الأربع فإن الترتيب لا بد له من مرتب وهو الفاعل والأمور هي المادة والهيئة العارضة لها عند التركيب هي الصورة، وما يتواصل بها هي الغاية وهذان التعريفان رسميان لاعتبار الغاية فيهما وهي خارجة عن ماهية الشيء، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

ولا يصرفوا علماً لدنيا دنية

فقل هي الدنيا أنشد ليجتلى

أي ينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك، فإنه يتعلم العلم بالجهد الكثير فلا يصرفه إلى الدنيا الدنية الحقيرة القليلة الفانية، يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيًا أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهداً أو الدجال والدجال شرٌّ غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر**»؛ وقال رسول الله ﷺ : «**لو كانت الدنيا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء**».

وأنشد يزيد الرقاشي في هذا المعنى:

كأنك قد جاوزت أهل المقابر
هو الموت يابن الموت إن لم تبادر
كأنك لم تدفن حميماً ولم تكن له
في حياض الموت يوماً بحاضر
ولم أر مثل الموت أكثر ناسياً
تراه ولا أولى بتذكار ذاكر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
فما فاته منها فليس بضائر
وما تعدل الدنيا جناح بعوضة
لدى الله أو معشار زغبة طائر

ولـم يـرضَ بالدنيـا ثوابـاً لمؤمـن
ولـم يـرضَ بالدنيـا عقابـاً لكافـرِ

وقال آخر:

فلـو كانـت الدنيـا ثوابـاً لمحسـن
إذن لم يكن فيها معاش لظالمِ
فقـد جـاع فيهـا الأنبيـاء كرامة
وقد شـبعت فيهـا بطـون البهائم

وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم عنده وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له».

وأنشدوا في المعنى:

ومـن يحمـد الدنيـا بعيـش يـسره
فسوف لعمري عن قريبٍ يلومها
إذا أقبلت كانت على المرء حسرة
وإن أدبرت كانت كثيراً همومها

وقال لقمان لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها أناس كثيرون، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله تعالى وحشوها إيمان بالله تعالى،

وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك تنجو وما أراك ناجياً.

وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ فقال: يخلق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويباعد الأمنية، قيل : فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب ومن فاته نصب.

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاصدة فلقد كدرت معيشة الدنيا على من عقل.

وقال آخر : الدنيا من ملكها تعب ومن طلبها صار عبداً لها أدناها لا يكفي وكلها لا يغني.

وأنشدوا:

أرى الدنيــا لمــن هي في يديــه
بــلاء كلمــا كـــثرت عليــه

تهــين المكرمــين لهــا بصغرٍ
وتكــرم كل مــن هانــت لديــه

إذا اســتغنيت عــن شي فدعــه
وخــذ مــا أنــت محتــاجٌ إليــه

وقال علي رضي الله تعالى عنه : من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً، أولها عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه،

وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها؛ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله في يده عارية فالضيف مرتحلٌ والمال مردود.

وأنشدوا:

وما المال والأهلون إلا وديعة
ولا بد يوماً أن ترد الودايعُ

وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : كيف أنت يا أبا إسحاق؟

فأنشأ يقول:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ

فطوبى لعبدٍ آثر الله ربه
وجاد بدنياه لما يتوقعُ

وقال آخر:

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره
ونال من الدنيا سروراً وأنعما

كبانٍ بنى بنيانه فأتمه
فلما استوى ما قد بناه تهدّما

وكان داود عليه السلام يقول : إلهي لأن أذوق مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة أحب إلي من أن أذوق حلاوة الدنيا بمرارة الآخرة؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن وجزء للمنافق وجزء للكافر، فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

ومر عيسى عليه السلام برجل نائم فقال له : يا عبد الله ألا تقم تتعبد؛ فقال له : عبدت ربي بأحب العبادات إليه، قال : وما هو؟ قال : تركت الدنيا لأهلها، قال : نم فقد فقت العابدين؛ قال بعض الحكماء : الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب.

وأنشدوا في المعنى :

وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها

وقال آخر :

هي الدنيا أقل من القليل
وعاشقها أذل من الذليل

تصـم بسـحرها قومـاً وتعـمي
فهـم متحـيرون بـلا دليـل

وقال بعض الحكماء: يا أيها الناس اعملوا على مهل، وكونوا من الله تعالى على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غرارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانها وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المتجلية، فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشقٍ لها قتلته ومطمئن بها خذلته فانظروا بعين الحقيقة، فإنها دار كثرت بوائقها وذمها خالقها جديدها يبلى وملكها يفنى وعزيزها يذل وكثيرها يقل، وحيها يموت وخيرها يفوت، فاستيقظوا من غفلتكم وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل ومدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل، أو هل إلى الطبيب من سبيل، فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء.

ثم يقال : فلان أوصى وماله أحصى ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك الجبين وتتابع الأنين وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان، وقد منعت الكلام فما تنطق وختم على لسانك فما ينطلق ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من بين الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك فغسلوك وحملوك، ثم صلوا

عليك ودفنوك فانقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك وبقيت مرتهناً بأعمالك.

وأنشدوا في ذلك:

تنافس النـاس في الدنيا وقد ذهبت
وصفوهـا لــك ممــزوج بتكديـر

كم مـن ملحٍّ عليها لا تسـاعده
وعاجــزٍ نــال دنيــاه بتقصــير

لـم يرزقوها بجدٍ حين ما اقتسـموا
وإنمـــا رزقوهـــا بالمقاديــرِ

لـو كان عن طلبٍ أو عـن مغالبة
طـار الــبزاة بـأرزاق العصافـيرِ

فـالله يـرزق قومـاً لا خـلاق لهم
مثـل البهائـم في خلـق التصاويرِ

قال رسول الله ﷺ: «من كان همته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كان همته الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له».

وقال عليه السلام في خطبة خطبها: «**أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، فإن العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله تعالى صانع به وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله تعالى قاض فيه، فليتزود من شبابه لكبره، ومن دنياه لآخرته فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار**».

وقال يحي بن معاذ الرازي : الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب لا تسكن في قلب فيه أربع خصال: الركون إلى الدنيا، وهم غد، وحسد أخ، وحب الشرف، قال بعض الحكماء: حياة القلب أربعة أشياء: العلم، والرضا، والقناعة، والزهد، فالعلم يرضيه وبالعلم يبلغ هذه الدرجة فإذا بلغ درجة الرضا وصل إلى القناعة وتوصله القناعة إلى الزهد وهو التهاون بالدنيا، والزهد ثلاثة أشياء: أولها معرفة الدنيا ثم الترك لها والثاني خدمة المولى ثم الأدب الثالث الشوق إلى الآخرة ثم الطلب لها.

وقال الرازي : العاقل المصيب من عمل ثلاثاً ترك الدنيا قبل أن تتركه وبنى قبره قبل أن يدخله وأرضى خالقه قبل أن يلقاه.

وعنه عليه السلام أنه قال لعلي رضي الله عنه: «**يا علي أربع خصال من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا**».

وقال عليه السلام : «**من أشرب قلبه حب الدنيا ابتلي قلبه منها**

بثلاث: شغل لا ينفك عناؤه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك أقصاه».

والدنيا طالبة ومطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأتيه الموت فيأخذه بعنقه؛ وعن الأحوص بن حكيم عن أبيه أنه قال سأل رجل رسول الله ﷺ عن الشر؟ فقال: «**لا تسألوني عن الشر واسألوني عن الخير يقولها ثلاثاً، قال : إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء، فالعلماء أدلاء الأمة وعمد الدين وسرج ظلماء الجهالات الجبلية ونقباء ديوان الإسلام ومعادن حكم الكتاب والسنة وأمناء الله تعالى في خلقه وأطباء العباد وجهابذة الملة الحنيفية وحملة عظيم الأمانة، فهم أحق الخلق بحقائق التقوى وأحوج العباد إلى الزهد في الدنيا لأنهم لأنفسهم ولغيرهم، فسادهم فساد متعد وصلاحهم صلاح متعد**».

واعلم يا أخي أن مثل المؤمن في الدنيا كمثل مدينة وروحه وجوارحه كالحصن لتلك المدينة والإيمان في قلبه كالملك في قصره وله سرير وهو التوحيد، وله تاج وهو المحبة وله وزير وهو العقل وله حاجب وهو العلم وله صاحب سر وهو الذكر وله نديمٌ وهو الزهد وله علم وهو الأنس وله سراج وهو الحلم وله بواب وهو المراقبة وله صاحب بريد وهو الفراسة وله صاحب سيف وهو الحق وله مناد وهو الإقرار وله جنود ينصحونه وله معاشرون لا يخالفونه فبينما هو متفكر في قصره ثابت في أمره ونهيه إذا

أقبل عليه بعض جماعته المشفقين على مملكته.

وقال : أيها الملك الكريم إن الشيطان الرجيم قد توجه إلى مدينتك في جيش عظيم فاحترز على مدينتك واستعد لمملكتك فإنه عدو واصل وعن قصرك غير ناكل وعلى مدينتك لا شك نازل فلما رأى الملك ذلك نادى في جماعته وأهل النصح من خاصته وأعاد عليهم الخطاب وطالبهم بالرأي والصواب ثم التفت إلى الوزير وقال له بماذا تشير فقال له الوزير أيها الملك احفر حول المدينة خندقاً من الزهد فإنه لباس عدونا يصد ولكيده يرد فشرعوا في حفر الخندق بمعاول القلق وأجروا في مجاريه دموع الأرق ولما أحاط بالمدينة الخندق **أنشأ الملك يقول:**

ولما أحاطت بي جنود وساوسي
حفرت بزهدي حول قلبي خندقاً

حفرناه في أرض التودد والصفا
وأجريت دمع العين فيه تدفقا

وأصفيت ودي واعتصمت بخالقي
وأصبحت من أسر المهالك مطلقا

قال : فبينما هو كذلك إذ علا غبار الباطل، وأقبل العدو ما بين فارس وراجل فنزل الهوى عن يمين المدينة وضرب خيامه ونشر أعلامه، وكان جنوده عشرة: الحسد، والتجبر، والعجب، والتكبر، والغل، والكبر، والحقد،

والغدر، والرشوة في السر، والمخالفة في الأمر، ونزلت النفس عن شمال المدينة وضربت خيامها ونشرت أعلامها وكان جنودها عشرة: الحرص، والشهوة، والشح والرغبة والزيغ والقيادة والبخل والأمل والطمع والكسل.

ونزلت الدنيا أمام المدينة، وكان جنودها عشرة : الحرص والرياء، والتفاخر، والبطر، والهوى، واللعب، والزور، والكذب، والغش، والخديعة، والتفريط في الشريعة، ونزل إبليس اللعين من وراء المدينة؛ وكان جنوده عشرة: الظلم، والخيانة، والكفر، وترك الأمانة، والبغض، والنفاق، والشك في قدرة الخلاق بما أمر به ذو الجلال والإكرام والتغفل عن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام قال: فهال الملكَ ذلك وتحير وميز في أمره وتفكر **وأنشأ يقول:**

إني بليت بأربع ما سلطوا
إلا لطول شقاوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى
كيف الخلاص وكلهم أعدائي

إبليس يسلك في طريق مهالكي
والنفس تأمرني بكل بلائي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري
في ظلمات الشبهات والآراء

وزخـارف الدنيـا تقـول أمـا ترى
حسـني وفخـر ملابـسي وبهـائي

قال : فلما رآه وزيره وهو العقل قد جزع وتحير ودهش من ذلك وتفكر أنشأ يقول:

لا تجزعـن لمـا أبـصرت حـل بنـا
فحـول بلدتنـا الأمـلاك تحرسـنا
ونحن في حفظهم من كل ناحيةٍ
فنشـكر الله إذ للخـير وفقنـا
فمـذ عرفنـاه أصفينـا مودتنـا
لكـن ينكرنا مـن ليـس يعرفنا

قال: ثم إن الملك نادي: يا غياث المستغيثين ويا دليل المتحيرين، فثبت الله تعالى جنانه وقوى ظهره وشدد أركانه ثم قال للوزير : كن أنت في مقابلة الهوى واطلب من العزيز المولى والآن قد سلمت يمين مدينتي إليك واعتمدت في حفظها عليك ثم ضم إليه من جنوده عشرة: الإخلاص، والخشوع، والخضوع، والورع، واليقين، والمعرفة، والهداية، والتسليم، والرضا، والزهد ثم سلم الجانب الثاني إلى حاجبه وهو العلم وقال له : كن أنت في مقابلة النفس ثم سلم إليه من جنوده عشرة: الحكمة، واليقظة، وغض الطرف، والقناعة، والشكر، والإجابة، والتعفف، والصبر، والنصيحة،

واجتناب كل أمر قبيح ثم سلم الجانب الثالث إلى صاحب سره وهو الذكر وقال: كن أنت في مقابلة الشيطان ثم ضم إليه من جنوده عشرة: الحياء، والمحبة، والإيثار، وحسن الصحبة، والتوكل، وترك الجفاء، والتواضع، والوفاء، والإنابة، والجحود عنه ثم سلم الجانب الرابع إلى نديمه وهو الزهد وقال له كن أنت في مقابلة الدنيا ثم ضم إليه من جنوده عشرة: طلب الحلال، واجتناب المحارم، والافتقار إلى الله عز وجل، وترك الاغترار، والشفقة، والثقة بالله تعالى، وترك الزندقة، والندم، والاستغفار، والتهجد في وقت الأسحار والبكاء من خشية الله تعالى، ثم قال لهم أي من رأيت منكم قصر في الخدمة فما له عندي جواب إلا سيف النقمة.

ثم حفظ الملك باب المدينة ولبس ثياب الجهاد وترك ثياب الزينة فلما استقر العدو موضعه ولم يجد سبيلاً إلى ما قصده نادى الملك في جماعته بحربهم وطعانهم وضربهم وأما ما كان من الشيطان فإنه نصب على باب المدينة منجنيقات البهتان فقابلوها بمنجنيقات التوحيد والإحسان وصار القتال يعمل بين الفريقين فلما أقبل الليل بظلامه وأدبر النهار بانصرامه فزع القوم أن يهجم عليهم العدو في الظلام فأشعلوا مشاعل الحرقة والغرام وقدموا عليها قائد التوبة وصار على كل فريقٍ منهم نوبةً فلما بان الصباح أظهر القوم القتال بالسلاح وجعل الملك يقول: اخرجوا إليهم فإن الله تعالى ناصركم عليهم ففتحوا أبواب المدينة، وبرز كل واحد إلى خصمه وبذل كل ما وصل إليه من علمه.

وكان القتال يعمل بين الفريقين وصاحب المدينة يطلب النصر من صاحب الكونين فألقى الله تعالى في قلوب الأعداء الخوف والجزع وانصرف عن أصحاب الحق الباطل واندفع فولوا هاربين وصارت جيوش الحق في أثرهم طالبين منهم من أسروه ومنهم من جرحوه ومنهم من قتلوه ودخلت النفس في حصن الفتنة فحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً بالعدد والعديد، واجتمع على قتالها الأحرار والعبيد وتقدم الوزير إليها وزجرها قال: فما جاوبت بلسان ولا نطقت بكلام ودخلت تحت الطاعة والحكم وأيست من البهتان والظلم وبان لها الضياء والنور **وأنشأت تقول:**

يا صاحبي قفا كي تستمعا العجبا
حزب الإله لمن عاداه قد غلبا
حتى إذا بان ضوء الصبح أيدهم
رب العباد فكل خصمه طلبا

لبعضهم:

يا ساهياً غافلاً عما يراد به
حان الرحيل فما أعددت من زادِ
تظن أنك تبقى سرمداً أبداً
هيهات أنت غداً فيمن غدا غادِ

قال المصنف رحمه الله تعالى :

ولا يطمعوا شيئاً بغير مطامعٍ
لكي يكرموا نفساً وينوئوا تذللاً

أي وينبغي لطالب العلم أن لا يذل نفسه بالطمع في غير المطمع ويحترز عما فيه مذلة العلم وأهله.

وأنشدوا:

لا تطلبن إلى صديق حاجةً
من كف خف على قلوب العالم
أنت المسود ما رزقت كفاية
فإذا افتقرت ذللت ذل الخادم

ويروى أن سالم بن عبد الله دخل على هشام بن عبد الملك البيت الحرام فقال له هشام: سل حاجتك فقال له سالم إني لأكره أن أسأل في بيت الله غير الله تعالى؛ وقال عطاء : قال لي طاوس : يا عطاء لا تنزلن حاجتك بمن غلق دونك أبوابه، وجعل عليها حجابه ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة أمر عباده بالدعاء وضمن لهم الإجابة.

وأنشدوا :

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبُنَيَ آدم حين يسأل يغضب

آخر :

وعُدّ من الرحمن فضلاً ونعمةً
عليك إذا ما جاء للخير راغب

أرى دولاً هذا الزمان بأهله
وبينهم فيها تكون النوائب

ولا تمنعن ذا حاجة جاء طالباً
فإنك لا تدري متى أنت طالب

قال آخر:

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا
من كل طالب حاجةٍ أو راغب

فإذا تلطف بالدخول عليهم
عاف تلقوه بوعد كاذب

قال رسول الله ﷺ : «من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله تعالى عليه سبعين باباً من الفقر»؛ وقال عليه السلام : «والذي نفسي بيده لأن

يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله تعالى من فضله فيسأله أعطاه أو منعه».

وقال الفضيل : مسألة الغني شينٌ في وجهه يوم القيامة قيل ومن الغني؟ قال : من استغنى ببلاغ يوم وليلة، وعن علي ﷺ أنه رأى رجلاً يسأل بعرفات فضربه بالسوط، وقال : ويلك في مثل هذا اليوم يُسأل غير الله عز وجل، وقال معاذ بن جبل ﷺ : ينادي منادٍ يوم القيامة أين بغضاء الله في أرضه؟ فيقوم سوَّال المساجد.

وقال رسول الله ﷺ : «**إن الله يبغض السائل الملحف**»؛ وقال ﷺ: «**ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الذي يقبل من حاجة**»؛ وسئل عليه السلام: أي الصدقات أفضل؟ قال : «**أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة**».

وأنشدوا :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله
عوضاً ولو نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته
رجح السؤال وخف كل نوال

وإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً

فابـــذله للمكـــرّم المفضـــال

إن الكريـم إذا حبـاك بموعـد

أعطاكـــه ســـهلا بغـــير مِطـــال

وروي أن علياً رضي الله تعالى عنه أتاه ذات يوم أعرابي فأراد أن يسأله، فقال: يا أعرابي هل تحسن أن تكتب فقال: نعم فقال: اكتب حاجتك على الأرض لئلا أرى ذل السؤال في وجهك **فكتب الأعرابي على الأرض**:

فقـير ومسـكينٌ وطالـب حاجـةٍ

فما أنت فيها يا فتى الجود صانعُ

فإن تقضها يوماً فأنت من أهلها

وإلا فرزق الله في الأرض واسعُ

فقال علي رضي الله تعالى عنه لغلامه قنبر: اكسه الحلة التي كسانيها رسول الله ﷺ فكساه الحلة **فأنشأ الأعرابي يقول**:

كسـوتني حلـة تبـلى محاسـنها

فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمةً

ولسـت تبـغي لمـا قدمتـه بـدلا

إن الثنـاء ليحـي ذكـر صاحبـه
كذلك الغيث يحيي السهل والجبلا

فقال علي رضي الله تعالى عنه : يا قنبر ما بقي من نفقتنا فادفعها له، فإذا هي مائتا دينار **فأنشأ الأعرابي يقول :**

بـدأت بإحسـان وثنيـت بالعطـا
وثلثت بالحسـنى وربعت بالكرم

فمـن ذا له جود كجودك في الورى
ومن ذا له فضـلٌ كفضلك في الأمم

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اطلبوا الحوائج عند صباح الوجوه**»؛ **وأنشدوا في هذا المعنى:**

قـد تأولـت فيك قول رسـول الله
إذ قـال مفصحـاً إفصاحـا

إن طلبتـم حوائجـاً عنـد قـومٍ
فتنقـوا لهـا الوجـه الصباحـا

فلعمـري لقـد تنقيـت وجهـاً مـا
بـه خـاب مـن أراد النجاحـا

قال المصنف رحمه الله تعالى:

أيـا طالبـاً للعلـم فالـزم تواضعـاً
كان التواضع ادخلوا اقرأ ليقبلا

أي يجب على طالب العلم أن يكون متواضعاً والتواضع بين التكبر والمذلة والعفة كذلك أنشدنا الشيخ الإمام العالم الأجل الأستاذ ركن الإسلام المعروف بالأديب المحتار رحمه الله تعالى:

إن التواضـع مـن خصـال المتـقي
وبــه التــقي إلى المعــالي يرتــقي
ومن العجائب عجب من هو جاهل
في حـاله أهـو السـعيد أم الشـقي
أم كيـف يختـم عمـره أو روحـه
يـوم النـوى متسـفل أو مرتـقي
والكبريـــاء لدينـــا صفـــة له
مخصوصـــة فتجنبهـــا واتـــقي

وروى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك صغار ومذلة لهم**».

وعنه عليه السلام أنه قال: «**ما تواضع رجل إلا رفعه الله تعالى ورأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت من المسلمين وأن ترضى بدون المجلس وأن تكره أن تذكر بالبر والتقوى**».

واعلم يا أخي وفقك الله تعالى أن الكبر من أخلاق الكفار والفراعنة، والتواضع من أخلاق الأنبياء والصالحين لأن الله تعالى وصف الكفار بالكبر فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وقد مدح عباده المؤمنين بالتواضع، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، يعني متواضعين فمدحهم بتواضعهم، وأمر نبيه عليه السلام بالتواضع فقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومدح نبيه عليه السلام بحسن خلقه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فكان خلقه ﷺ التواضع، لأنه ﷺ كان يركب الحمار ويجيب دعوة المملوك؛ فثبت أن التواضع أحسن الأخلاق.

وروي أنه لما قدم عمر رضي الله عنه الشام تلقاه عظماؤها وعلماؤها وكبراؤها فقالوا له: اركب هذا البرذون ليراك الناس، فقال: إنكم ترون الأمر من هنا وإنما الأمر من ههنا وأشار إلى السماء فخلوا سبيلي؛ وفي رواية أن عمر رضي الله تعالى عنه جعل بينه وبين غلامه مناوبة في ركوب الناقة

فكان عمر يركب الناقة ويأخذ الغلام بزمامها ويسير مقدار فرسخ فلما قرب إلى بيت المقدس كان نوبة ركوب الغلام فركب الغلام وأخذ عمر رضي الله عنه بزمام الناقة فاستقبله الماء في الطريق فجعل عمر يخوض الماء وهو آخذ بزمام الناقة، فخرج أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام رضي الله تعالى عنه وقال: يا أمير المؤمنين عظماء الشام يخرجون إليك فلا يحسن أن يروك على هذه الحالة، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أعزنا الله تعالى فلا نبالي بمقالة الناس.

وذكر عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه كان أميراً في المدائن بالعراق فاشترى رجل من عظمائها تبناً فمر سلمان فمسكه غلام المشتري وسخره في حمل التبن، فحمله سلمان فجعل يتلقاه الناس ويقولون له: أصلح الله تعالى الأمير نحمل عنك فيأبى، فقال: الرجل في نفسه ويحك لم تسخر إلا الأمير فجعل يعتذر إليه ويقول: لم أعرفك، فلما وصل إلى منزله قال له: لا تسخر أحداً بالقهر أبداً.

وأبو هريرة رضي الله عنه بعثه عمر رضي الله تعالى عنه أميراً على البحرين وهو راكب على حماره وهو يقول: طرقوا للأمير، وعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه كان أميراً بالكوفة فاشترى حزمة حطب وحملها على عاتقه إلى بيته.

فهؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان أخلاقهم التواضع وكانوا أعز الناس عند الله تعالى وعند الخلق، ولكنهم كانوا قادة في الدين فأظهروا من أنفسهم

ما يقتدي بهم من بعدهم؛ وعنه عليه السلام أنه قال : «**ما نقص مال من صدقة ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله تعالى عزاً وما تواضع أحد إلا زاده الله تعالى عزاً**».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من تواضع تخشعاً رفعه الله يوم القيامة ومن تطاول تعظماً وضعه الله يوم القيامة، ويروى أن علياً رضي الله عنه دخل السوق فاشترى قميصين بستة دراهم ثم قال لغلامه : يا أسود اختر أيهما شئت، فاختار الغلام خيرهما ولبس علي رضي الله تعالى عنه الآخر ففضل كماه على أطراف أصابعه فدعا بالشفرة فقطع كميه، وخطب بالناس يوم الجمعة والناس ينظرون إلى تلك الهدب على ظهر كفيه، ورأى رجلاً قد أسبل ذيل ثوبه فقال : يا فلان ارفع ثوبك فإنه أتقى وأبقى وأنقى لقلبك.

وعنه عليه السلام أنه قال : «**قال الله تعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في النار**»؛ يعني أنهما من صفاتي بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، فمن طلب أن يكونا صفة له فقد أخرج نفسه من حد العبودية فوا عجباً لمن لم يبلغ درجة العبودية كيف يطمع في درجة الربوبية.

واعلم أن التكبر إنما يتولد من عدم معرفة صاحبه قيمة نفسه، فمن علم قيمة نفسه نال درجة التواضع؛ وقال داود المكي : كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار، فيقول:

ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم، فيقول : ما أجوده لولا لينه فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك؟ فقال : إن لي نفساً ذواقة تواقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله تعالى.

وحكي عنه أنه أتاه ذات ليلة ضيف، وكان عبداً حبشياً وكان عمر يكتب شيئاً فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال : ليس من كرم الرجل استعمال الضيف، فقال الضيف : فأنبه الغلام فقال : لا هي أول نومة نامها وقام بنفسه وأخذ البَطَّةَ وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف : قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر وخير الناس من كان عند الله تعالى متواضعاً.

وقال كعب الأحبار : من عاد فقيراً أو مسكيناً أو زاره يريد بذلك تواضعاً وكل الله له مائة ألف ملك يستغفرون له يومه حتى يمسي؛ ويروى أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس للأكل جمع بين ركبتيه وقدميه الركبة فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول : «**إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد**».

وقال عليه السلام : «**من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار**»؛ وقال أنس رضي الله تعالى عنه : (لم يكن شخص أحب إليهم

من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك).

وقال عليه السلام: «**إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله وإن الصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يغنكم الله**».

ويقال: إن أرفع ما يكون العبد عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه؛ ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة كالذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يسلكون في نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار**».

وقال عليه السلام: «**من لبس الصوف وانتعل الخصوف وركب حماره وحلب شاته وأكل مع عياله وجالس المساكين فقد نحى الله عنه الكبر**».

ويروى أن المهلب بن أبي صفرة مر على مطرف بن عبد الله بن الشخير وهو يتبختر في جبة خز فقال: يا أبا عبد الله هذه مشية يبغضها الله تعالى ورسوله ﷺ، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وتحمل بين ذينك العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته تلك.

وأنشدوا في هذا المعنى :

مــا بــال مــن أوله نطفــة
وجيفــة آخــره يفخــر
لا فخــر إلا فخــر أهــل التــقى
غــداً إذا ضمهــم المحــشر

واختلف العلماء في حقيقة التواضع؛ فقيل : التواضع هو التكبر على الأغنياء، والتذلل للفقراء لقوله عليه السلام : «**إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار**».

وأصل التواضع عند الصوفية فناء العبد في نفسه عند نفسه كما حكي عن أبي سليمان أنه قال : لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي لما قدروا عليه؛ وقال الجنيد : التواضع التكبر على أهل الدارين بالاستغناء بالحق.

وقيل : عشرة من كن فيه كملت عبوديته علم يدله على العمل، وعقل يصرفه عن الهوى وورع يحجزه عن المحارم، وخلق يداري به الناس وحياء يمنعه عن القبيح، وصمت يمنعه عن الفضول وقناعة تغنيه عما في أيدي الناس وبصيرة تطلعه على عورات الدنيا وفكرة تطلعه على عورات الآخرة، وتواضع يدله على قبول الحق، فمن تواضع للحق ولعباده نال أنواع

الشرف من الحق في الدارين، ومن تكبر على الحق بعد عن بساط الحق وحجب لسانه عن ذكر الحق ونفسه عن خدمة الحق وقلبه عن مشاهدة الحق وسره عن مؤانسة الحق وروحه عن محبة الحق سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

ووسع لأكمام وعظم عمامة
كذا قال نعمان لئلا تذللا

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لأصحابه : عظموا عمائمكم ووسعوا أكمامكم، وإنما قال ذلك لئلا يستخف بالعلم وأهله، فينبغي للعالم إذا عزم على مجلس التدريس أن يتطهر من الحدث والخبث ويتنظف ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة.

كان مالك رحمه الله تعالى إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على منصة ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ وقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ثم يصلي ركعتي الاستخارة إن لم يكن وقت كراهة، وينوي نشر العلم وتعليمه وبث الفوائد الشرعية وتبليغ أحكام الله تعالى التي أؤتمن عليها وأمر ببيانها والازدياد من العلم وإظهار الصواب والرجوع إلى الحق والاجتماع على ذكر الله تعالى والسلام على إخوانه من المسلمين والدعاء للسلف الصالحين.

وروي عن المزني من أصحاب الشافعي رحمهما الله تعالى أنه كان يفعل كذلك أيضا.

وأنشد عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى في هذا المعنى :

أجد الثياب إذا اكتسيت فإنها
زين الرجال بها تجل وتكرم

ودع التواضع في الثياب وخلها
فالله يعلم ما تكن وتكتم

فرثاثة ثوبك لا يزيدك قربة
عند الإله وأنت عبد مجرم

وبهاء ثوبك لا يضرك بعد ما
تخشى الإله وتتقي ما يحرم

وقال آخر :

تجمل بالثياب ولا تماري
فإن العين قبل الاختبار

فلو لبس الحمار ثياب خز
لقال الناس يا لك من حمار

ومما يجب على العالم مراعاة الآداب في خاصة نفسه ومراعاة طلبته ودرسه ودوام مراقبة الله تعالى في السر والعلانية، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، فإنه أمين على ما أودع من العلوم وما فتح عليه من الحواس والفهوم.

قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقال الله تعالى :﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾؛ قال الشافعي رضي الله عنه : ليس العلم ما يحفظ بل العلم ما ينفع ويعمل به.

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشاهم لله سبحانه وتعالى، وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بما يعلمه فليس بعالم، فلا يغرنك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة، فإنه جاهل وليس بعالم إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم فإن العلم في الإسلام لا يضيع أهله ويرجى عود العالم ورجوعه إلى الخير ببركة العلم كما قال بعضهم قرأناه لغير الله فأبى أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

ومما يجب عليه دوام السكينة والوقار والخشوع والورع والتواضع والخضوع؛ ومما كتب مالك رضي الله عنه إلى الرشيد : إذا علمت علماً ينبغي أن يرى عليك أثره وسكينته وسمته ووقاره وحلمه، لقوله ﷺ : «**العلماء ورثة**

الأنبياء»؛ وقال عمر ﵁ : **تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار.**

وعن السلف الصالح : حق على العالم أن يتواضع لله في سره وعلانيته ويحترس من نفسه ويقف عند ما أشكل عليه وأن يصونه كما صانه علماء السلف ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، كما روي عن أبي يوسف رحمه الله أن الرشيد حلف بالطلاق الثلاث إن باتت زبيدة الليلة في مملكته، فندم وتحير فقيل له : هنا فتى من أصحاب الإمام منه يرجى المخرج فدعاه وعرض عليه القصة، فقال له : أكرم حق العلم، قال: كيف؟ قال : أنت على السرير وأنا قائم فوضع له كرسي مقابلته وجلس عليه، فقال : تبيت الليلة في المسجد لأنه لا يد لأحد عليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، فولاه الرشيد قضاء القضاة وهو أول من دعي بقاضي القضاة، وكان بعد ذلك يدخل راكباً على بغلته وترفع دونه الستور إلى داخل بيت الرشيد بغير استئذان، لما أعز العلم واستعمل معه السكينة والوقار رفعه الله تعالى به وعظمه به.

ولا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة أو إلى من يتعلمه منه وإن عظم شأنه وكبر قدره كما روي عن مالك ﵁ أن الرشيد بعث خلفه وقال : نريد أن تتردد إلينا حتى يسمع أولادنا منك الموطأ، فأجابه بأن العلم يؤتى إليه ولا يأتي، فقال : صدقت وأمر أولاده أن يذهبوا إلى مجلسه حتى يسمعوا وكانوا كآحاد الناس لا مزية

لهم في الحلقة على غيرهم.

قال الزهري : هوان بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم؛ فإن دعت إلى ذلك ضرورة أو اقتضته مصلحة دينية وحسنت فيه نية صالحة فلا بأس بذلك إن شاء الله تعالى، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من المشي إلى الملوك وولاة الأمر كالزهري والشافعي وغيرهما لا على أنهم قصدوا بذلك فضول الأغراض الدنيوية وكذلك إذا كان المأتي إليه من العلم والزهد في المنزلة العلية والمحل الرفيع فلا بأس بالتردد إليه لإفادته، فقد كان سفيان الثوري يمشي إلى إبراهيم بن أدهم ويفيده، وكان أبو عبيدة يمشي إلى علي بن المدائني يسمعه غريب الحديث.

وأن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله، فإن ما يحتاج إليه لذلك على الوجه المعتدل من القناعة لا يعد من الدنيا، وأقل درجات العالم أن يستقذر التعلق بالدنيا لأنه أعلم الناس بخستها وفتنتها وسرعة زوالها وكثرة تعبها ونصبها، فهو أحق بعدم الالتفات إليها والاشتغال بهمومها.

وعن الشافعي رضي الله عنه لو أوصى لأعقل الناس صرف إلى الزهاد، فليت شعري من أحق من العلماء بزيادة العقل وكماله، وقال يحي بن معاذ: لو كانت الدنيا تبراً يفنى والآخرة خزفاً يبقى لكان ينبغي للعاقل إيثار الخزف الباقي على التبر الفاني فكيف والدنيا خزف فان والآخرة تبر باق.

وأن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقديم على أقرانه؛ قال الشافعي رضي الله عنه : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلي حرف منه، وكما روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه، قال حماد بن زيد : سألته عن مسألة فأجابني، فقلت له : لا يزال هذا **المصر بخير ما أبقاك الله، فأنشد** :

خلت الديار فسدت غير مسود

ومن الشقاء تفردي بالسؤدد

وكذلك ينزهه عن الطمع في شيء من طلبته من مال أو خدمة أو غيرهما بسبب اشتغالهم عليه وترددهم إليه، كان منصور لا يستعين بأحد يختلف إليه في حاجة، قال سفيان بن عيينة : كنت قد أوتيت فهم القرآن فلما قبلت الصرة من أبي جعفر المنصور سلبته.

وكذا روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه هرب إلى مكة من ابن هبيرة في سنة ثلاثين ومائة إلى أن صارت الخلافة للعباسية قدم الكوفة في زمان المنصور فعظمه وأمر له بجائزة فلم يقبلها وردها؛ **وأنشأ يقول**:

عطاء ذي العرش خير من عطائكم

وسيبه واسع يرجى وينتظر

أنتم يكدر ما تعطون منّكم
والله يعطي فلا من ولا كدر

وأن يتنزه عن دنيء المكاسب ورديئها طبعاً، وعن مكروهها عادة وشرعاً كالحجامة والدباغة والصرف والصياغة ويرد هذا ما روي عن وكيع بن الجراح أنه قال: حدثني النعمان بن ثابت قال: أخطأت في ستة أبواب من المناسك فعلمنيها حجام، ولم ير أبو حنيفة رضي الله عنه مع جلالة قدره أن قال: علمنيها حجام بذلك إهانة في نفسه.

ولكن يمكن أن يحمل تنزهه عن هذه الحرف لأن الطبع ينفر عادة عن تعظيم أرباب هذه الحرف الدنيئة وإن كانت مباحة في الجملة، وكذلك يجتنب مواضع التهم وإن بعدت ولا يفعل شيئاً يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً فإنه يعرض نفسه للتهمة وعرضه للوقيعة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة، فإن اتفق شيء من وقوع ذلك لضرورة أو نحوها أخبر من شاهده بعذره ومقصوده لئلا يأثم بسببه أو ينفر عنه الناس فلا ينتفع بعلمه.

ولذلك قال النبي ﷺ للرجلين لما رأياه يتحدث مع صفية رضي الله عنها فوليا، قال لهما: «**على رسلكما إنها صفية**»، ثم قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فخفت أن يقذف في قلوبكما شيئاً فتهلكا**».

وأن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام كإقامة الصلاة في مساجد الجماعات وإفشاء السلام للخاصة والعامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى بسبب ذلك صادعاً بالحق عند السلاطين باذلاً نفسه لله تعالى لا يخاف في الله لومة لائم ذاكراً قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، متحملا كما كان سيدنا رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم السلام يتحملون الأذى في الله تعالى حتى كانت لهم العقبى.

وكذلك القيام بإظهار السنن وإخمال البدع والقيام لله بتعالى في أمور الدين، وما فيه مصالح المسلمين على الطريق المشروع والمسلك المطبوع، ولا يرضى من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها، بل يأخذ نفسه بأحسنها وأكملها، فإن العلماء هم القدوة وإليهم المرجع في الأحكام وهم حجة الله تعالى بين الأنام.

وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون إليه ويهتدي بهديهم من لا يعلمون به وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الانتفاع به كما قال الشافعي رضي الله عنه: ليس العلم ما حفظ بل العلم ما نفع؛ ولهذا عظمت زلة العالم لما يترتب عليها من المفاسد لاقتداء الناس به ويميل مع الحق حيث كان كما روي عن الحسن بن زياد رحمه الله تلميذ الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه استفتي فأفتى، فلما تأمل فيما أفتى به وجد نفسه قد

أخطأ فاكترى منادياً ينادي في أقطار العراق : ألا إن الحسن بن زياد استفتي في مسألة فأخطأ فيما أفتى فلا يحل للمستفتي أن يعمل بما أفتاه حتى يعود إليه ليرشده إلى الحق، وبقي أياما مهموماً محزوناً حتى سمع المستفتي المنادي فرجع إليه فهداه إلى الحق وانشرح حينئذ هكذا كان السلف في العلم رضي الله عنهم.

وأن يحافظ على المندوبات الشرعية فيلازم تلاوة القرآن وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، ويواظب على ما ورد من الدعوات والأذكار آناء الليل والنهار وعلى نوافل العبادات من الصلاة والصيام والحج والصلاة على النبي ﷺ، ومحبته وإجلاله وتعظيمه والأدب عند سماع اسمه وذكر سنته.

ومما يعين على بعض أداء حقوق النبي ﷺ كثرة مطالعة الشفا للقاضي عياض رحمه الله تعالى؛ كان مالك رضي الله عنه إذا ذكر النبي ﷺ عنده يتغير لونه وينحني، وكان جعفر بن محمد الباقر رضي الله عنهما إذا ذكر النبي ﷺ عنده اصفر لونه، وكان ابن القاسم تلميذ الإمام مالك رضي الله عنهما إذا ذكر النبي ﷺ عنده يجف لسانه في فيه هيبة لرسول الله ﷺ، وهذا من صلابة الرجل في الدين ومحبة اتباع السنة ظاهراً وباطناً.

فإذا تلي القرآن تفكر في معانيه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ووقف عند حدوده وليحذر من نسيانه بعد حفظه فقد ورد في الأخبار النبوية ما يزجر عن ذلك، والأولى أن يكون له منه في كل يوم ورد راتب لا يخل به

فإن عجز ففي يوم ويوم فإن عجز ففي ليلتي الثلاثاء والجمعة لاعتياد بطالة الاشتغال فيهما وقراءة القرآن في كل سبعة أيام ورد حسن.

ورد في الحديث أن من قرأ القرآن في كل سبعة أيام لم ينسه قط، وأن يعامل الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإفشاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم والإيثار وترك الاستئثار والإنصاف وترك الانتصاف وشكر التفضل وإيجاد الراحة والسعي في قضاء الحوائج وبذل الجاه في الشفاعات، كما روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان له جار طول ليله يغني، وكان الإمام يتأنس به ويأوّل هزله بالجد إلى ذات ليلة لم يسمعه، فلما أصبح سأل عنه فقيل له: إن الوالي حبسه، فقال لأصحابه: قوموا بنا لنشفع فيه فإن له علينا حق الجوار فقاموا معه فلما أقبلوا على الوالي الذي حبسه قام إجلالاً له واعتذر بين يديه وسأل عن حاجته؟ فقال: لنا جار وسمعنا أنك حبسته فأطلق الوالي كل من في الحبس كرامة له، فأخذ الإمام بيد المغني وجاء به إلى مسجده وقال: لك علينا حق الجوار وقد أضعناه، قال: لا يا سيدي وأخذ صرة ودفعها إليه، وقال: أنفقها عن أيام بطالتك في السجن فتاب الرجل عن الغناء واللهو ولازم الإمام حتى تفقه وصار معدودا من أصحابه.

وأن يتلطف بالفقراء والتحبب إلى الجيران والأقرباء والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم وإذا رأى من لم يقم بواجب عليه أرشده بتلطف ورفق،

كما فعل رسول الله ﷺ مع الأعرابي الذي بال في المسجد ومع معاوية بن الحكم لما تكلم في الصلاة، وأن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرذيلة ويعمرهما بالأخلاق المرضية الجميلة، ومحبة الله تعالى هي الخصلة الجامعة لمحاسن الصفات كلها.

وإنما يتحقق بمتابعة الرسول عليه السلام ودوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الاشتغال من قراءة وإقراء ومطالعة وفكر وتعليق وحفظ وتصنيف وبحث لئلا يضيع شيئاً من الأوقات في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة لملل أو أداء حق زوجة أو زائر أو تحصيل قوت أو ما يحتاج إليه أو ألم وكان بعضهم لا يترك الاشتغال لعروض مرض خفيف أو ألم لطيف بل كان يستشفي بالعلم ويشتغل بقدر الإمكان، وذلك لأن درجة العلم درجة وراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا تنال المعالي إلا بشق الأنفس، **كما قيل**:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

قال الشافعي رضي الله عنه: حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار منه، والصبر على كل عارض دون طلبه وإخلاص النية لله تعالى في إدراكه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه.

قال الربيع : لم أر الشافعي رضي الله عنه آكلاً بنهار ولا نائماً بليل لاشتغاله بالتصنيف ومع ذلك فلا يحمل نفسه من ذلك فوق طاقتها خوف السآمة والملل، فربما نفرت نفرة لا يمكنه تداركها بل يكون أمره في ذلك قصداً وكل إنسان أبصر بنفسه ولا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث ما وجدها لأن العلم من المهد إلى اللحد.

قال سعيد بن جبير رحمه الله : لا يزال الرجل عالماً ما تعلم فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون **وأنشد بعض العرب :**

إذا كنـــت في بـــلد جاهـــلاً
وللعلـــم ملتمســـاً فاســـأل

فـــإن الســـؤال شـــفاء العـــمى
كمـــا قيـــل في الزمـــن الأول

وكان جماعة من السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم، وصح رواية جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عن التابعين، وأبلغ من ذلك كله قراءة رسول الله ﷺ على أبي بن كعب وقال : «**أمرني ربي أن أقرأ عليك** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾»؛ قالوا : من فوائدها

ألا يمتنع الفاضل من الأخذ عن المفضول.

قال الحميدي تلميذ الشافعي رضي الله عنهما : صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه المسائل، وكان يستفيد مني الحديث؛ وقال أحمد بن حنبل : قال لنا الشافعي : أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى نأخذ به.

وأن يشتغل بالتصنيف والجمع والتأليف مع تمام الفضيلة وكمال الأهلية، فإنه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة، وهو كما قال الخطيب البغدادي: يثبت الحفظ ويزكي القلب ويشحذ الطبع ويجيد البيان ويكسب جميل الذكر وجزيل الأجر ويخلده إلى آخر الدهر.

والأولى أن يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة إليه وليكن اعتناؤه بما لم يسبق إلى تصنيفه متحرياً إيضاح العبارة في تأليفه معرضاً عن التطويل الممل والإيجاز المخل مع إعطاء كل مصنف ما يليق به ولا يخرج تصنيفه من يده قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه وترتيبه.

أما من لم يتصرف في مداده وورقه ولم تظهر أهليته ولم تتم فضيلته فلا يتجه له فعل شيء من ذلك لكونه يضيع زمانه فيما لم يتقنه واشتغاله بالإتقان أولى، وإذا خرج من بيته دعا بالدعاء الصحيح عن النبي ﷺ وهو: «**اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أظلم أو أظلم أو**

أجهل أو يجهل علي عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك»، ثم يقول: «**بسم الله وبالله حسبي الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللَّهُمَّ ثبت جناني وأدر الحق على لساني**».

ويديم ذكر الله تعالى إلى أن يصل مجلس التدريس فإذا وصل إليه سلم على الحاضرين، وصلى ركعتين إن لم يكن وقت كراهة وتتأكد إن كان مسجداً ثم يدعو الله تعالى بالتوفيق والإعانة والعصمة، ويجلس مستقبل القبلة إن أمكن بوقار وسكينة وتواضع وخشوع متربعاً أو غير ذلك مما لم يكره من الجلسات غير مقعٍ ولا مستوفز ولا رافع إحدى رجليه على الأخرى ولا ماد إحداهما أو كليهما من غير عذر ولا متكئ على يده إلى جنبه أو وراء ظهره.

وليصن بدنه عن الزحف والانتقال عن مكانه ويديه عن العبث والتشبك بهما وعينيه عن تفريق النظر من غير حاجة لأنه يكره فضول النظر كما يكره فضول الكلام ويتقي المزاح وكثرة الضحك فإنه يقلل الهيبة ويسقط الحشمة لأن من مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به.

ولا يدرس حال جوعه ولا عطشه ولا همه ولا غضبه ولا نعاسه ولا قلقه ولا في حال برده المؤلم ولا حره المزعج فربما أجاب أو أفتى بغير الصواب، ولأنه لا يتمكن مع ذلك من استيفاء النظر وأن يجلس بارزاً

لجميع الحاضرين ويوقر أفاضلهم بالعلم والسن والصلاح والشرف ويرفعهم على حسب تقديمهم في الإمامة ويتلطف بالباقين ويكرمهم بحسن السلام وطلاقة الوجه ومزيد الاحترام ولا يكره القيام لأكابر أهل الإسلام على سبيل الإكرام.

وقد ورد إكرام العلماء وإكرام طلبة العلم في نصوص كثيرة، ويلتفت إلى الحاضرين التفاتاً قصداً بحسب الحاجة ويخص من يكلمه أو يسأله أو يبحث معه على الوجه عند ذلك بمزيد الالتفات إليه، والإقبال عليه وإن كان صغيراً أو وضيعاً فإن ترك ذلك من أفعال المتكبرين.

وأن يقدم قبل الشروع في البحث والتدريس قراءة شيء من القرآن تبركاً وتيمناً كما هو العادة، فإن كان ذلك في مدرسة شرط الواقف ذلك اتبع الشرط، ويدعو عقيب القراءة لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويسمي الله تعالى ويحمده ويصلي على النبي ﷺ ويترضى عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين سلفاً وخلفاً.

ويدعو لأئمة المسلمين ومشايخه ولنفسه ووالديه والحاضرين ووالديهم أجمعين ولواقف المكان جزاء لحسن فعله وتحصيلاً لقصده، وكان بعضهم يؤخر ذكر نفسه في الدعاء عن الحاضرين تأدباً وتواضعاً لكن الدعاء لنفسه قربة وبه إليه حاجة والإيثار بالقرب وما يحتاج إليه شرعاً خلاف المشروع.

ويؤيده قوله تعالى : ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، وقال

النبي ﷺ: «**ابدأ بنفسك ثم بمن تعول**»، وهذا الحديث وإن ورد في الإنفاق فالمحققون يستعملونه في أمور الآخرة؛ وبالجملة فالكل حسن وقد عمل بالأول قوم وبالثاني آخرون.

فإذا تعددت الدروس قدم الأشرف فالأشرف والأهم فالأهم فيقدم التفسير ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم المذهب ثم الخلاف ثم النحو أو الجدل، وكان بعض العلماء الزهاد يختم الدروس برقائق تفيد الحاضرين تطهير الباطن من عظة ورقة وزهد وصبر.

فإن كان في مدرسة ولواقفها شرط اتبعه ولا يخل بما هو أهم ويصل في درسه ما ينبغي وصله ويقف في مواضع الوقف ومنقطع الكلام، ولا يذكر شبهة في الدين في درس ويؤخر الجواب عنها إلى درس آخر بل يذكرهما معا أو يتركهما معا، ولا يقيد ذلك بمصنف يلزم منه تأخير الجواب عنها لما فيه من المفسدة لا سيما إذا كان الدرس يجمع الخواص والعوام.

وينبغي أن لا يطيل الدرس تطويلاً يمل ولا يقصره تقصيراً يخل، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة والتطويل ولا يبحث في شيء إلا في مقامه ولا يؤخره أو يقدمه إلا لضرورة تقتضي ذلك ولا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.

روى الخطيب في الجامع عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يحب الصوت الخفيض ويبغض الصوت الرفيع**»؛ قال أبو عثمان محمد ابن الشافعي: ما

سمعت أبي يناظر أحداً قط فرفع صوته؛ قال البيهقي : أراد والله أعلم فوق عادته، والأولى أن لا يجاوز صوته مجلسه ولا يقصر عن سماع الحاضرين، فإن حضر فيهم ثقيل السمع فلا بأس بعلو صوته بقدر ما يسمعه، فقد روي في فضيلة ذلك حديث.

ولا يسرد الكلام سرداً بل يرتله ويرتبه ويتمهل فيه ليتفكر فيه هو وسامعه، وقد روي أن كلام رسول الله ﷺ كان فصلاً يفهمه من سمعه، وأنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم عنه وإذا فرغ من مسألة أو فصل سكت قليلاً حتى يتكلم من في نفسه كلام عليه لأنه لا يقطع على العالم كلامه.

فإذا لم يسكت هذه السكتة ربما فاتت الفائدة، وأن يصون مجلسه عن اللغط وعن رفع الأصوات واختلاف جهات البحث، قال الربيع : كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فعدا إلى غيرها يقول حتى نفرغ من هذه المسألة ثم نصير إلى ما تريد، ويذكر للحاضرين ما جاء في المماراة من الكراهية لا سيما بعد ظهور الحق، وأنه لا يليق بأهل العلم تعاطي المنافسة لأنها سبب العداوة والبغضاء، بل يجب أن يكون المقصود من الاجتماع ظهور الحق وطلب الفائدة.

ويتلو قوله تعالى : ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فإن ذلك مفهم أن إرادة إبطال الحق وتحقيق الباطل صفة إجرام فليحذر

منه؛ قال السلامي : رأيت الإمام أبا حنيفة ومالكاً رحمهما الله في مسجد النبي ﷺ بعد العشاء الأخيرة وهما يتذاكران حتى إذا وقف أحدهما على القول الذي قال به الآخر وعمل عليه أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعسف ولا تخطئة حتى صليا الغداة في مجلسهما.

وينبغي أن يكون له نقيب فطن درب بصير بالأمور ينزل الناس منازلهم ويزجر من تعدى في بحثه أو ظهر منه سوء أدب أو تعنت في بحث أو ترك إنصاف بعد ظهور الحق أو كثرة صياح بغير فائدة أو إساءة على غيره من الحاضرين أو الغائبين أو ترفع في المجلس على من هو أعلى منه أو نوم أو تحدث مع غيره أو ضحك أو استهزاء بأحد من الحاضرين أو فعل ما يخل بأدب الطالب أو ترك ما ينبغي فعله أو فعل ما ينبغي تركه.

ويأمر بسماع الدروس والإنصات لها عند انتهاء الكلام، وأن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه ويسمع السؤال من مورده على وجهه ولا يترفع عن سماعه فيحرم الفائدة، وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده أو تحرير العبارة لحياء أو قصور ووقع على المعنى عبر عن مراده وبين وجه إيراده ثم يجيب بما عنده أو يطلب ذلك من غيره وإذا سئل عما لا يعلمه قال : لا أعلمه أو لا أدري فإنها نصف العلم.

وينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها، فإن قول المسؤول لا أدري لا يضع من قدره كما ظنه بعض الجهلة بل يرفعه لأنه

دليل على عظم محله وقوة دينه وتقوى ربه وطهارة قلبه وكمال معرفته وحسن تثبته، وإنما يأنف من قول لا أدري من ضعفت ديانته وقلت معرفته لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين، وهذه جهالة ورقة دين وربما اشتهر خطأه بين الناس واتصف بما فر منه واحترز عنه.

وقد أدب الله تعالى العلماء بقصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام حين لم يرد موسى العلم إلى الله عز وجل لما سئل هل في الأرض أحد أعلم منك، وأن يتودد للغرباء وينبسط لهم ليشرح صدورهم فإن للقادم دهشة ولا يكثر الالتفات والنظر إليهم استغراباً لهم فإن ذلك يخجلهم.

وإذا أقبل بعض الفضلاء وقد شرع في مسألة أمسك عنها حتى يجلس فإن أقبل في أثناء المسألة أعادها له أو مقصودها وإذا أقبل فقيه وقد بقي لفراغه وقيام الجماعة بقدر ما يصل الفقيه إلى المجلس فليؤخر تلك البقية ويشتغل عنها ببحث أو غيره إلى أن يجلس الفقيه ثم يعيد ما كان فيه أو يتم تلك البقية لئلا يخجل المقبل بقيامهم عند جلوسه.

وينبغي مراعاة مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور وتأخيره إذا لم يكن عليه فيه ضرر ولا مزيد كلفة وأفتى بعض أكابر العلماء أن المدرس إذا قدم الدرس في مدرسة قبل طلوع الشمس أو أخره إلى بعد الظهر لم يستحق معلوم التدريس إلا أن يقتضي ذلك شرط الواقف لمخالفته

العرف المعتاد في ذلك.

وقد جرت العادة أن يقول كل مدرس عند ختم كل درس : والله تعالى أعلم، وكذلك يكتب المفتي بعد كتابة الجواب، لكن الأولى أن يقول قبل ذلك كلاما يشعر بختم الدرس كقوله وهذا آخره أو وما بعده يأتي إن شاء الله تعالى ونحو ذلك ليكون قوله والله تعالى أعلم ذكراً خالصاً لله تعالى.

ولهذا ينبغي أن يستفتح كل درس ببسم الله الرحمن الرحيم ليكون ذاكرا لله تعالى في بدئه وختمه، والأولى للمدرس أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة فإن فيه فوائد وآداباً له ولهم منها عدم مزاحمتهم ومنها إن كان في نفس أحد بقايا سؤال سأله، ومنها عدم ركوبه بينهم إن كان يركب وغير ذلك.

ويستحب إذا قام أن يدعو بما ورد به الحديث سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك؛ وينبغي أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له ولا يذكر الدرس من علم لا يعرفه سواء شرطه الواقف أم لم يشرطه فإن ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس.

قال النبي ﷺ : «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»، وعن الشبلي: من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه، وعن أبي حنيفة رضي الله عنه : من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقي.

واللبيب من صان نفسه عن تعرضها لما يعد به ناقصاً وبتعاطيه ظالماً أو بإصراره عليه فاسقاً وأقل مفاسد ذلك أن الحاضرين يفقدون الإنصاف لعدم من يرجعون إليه عند الاختلاف، لأن رب الصدر لا يعرف المصيب فينصره ولا المخطئ فيزجره.

وقيل لأبي حنيفة رضي الله عنه: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه فقال: ألهم رأس؟ قالوا: لا فقال لا فقه لهؤلاء أبداً.

وينبغي أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى ونشر العلم وإحياء الشرع ودوام ظهور الحق وخمول الباطل واغتنام ثوابهم وتحصيل ثواب من ينتهي إليه علمه من بعدهم وبركة دعائهم له وترحمهم عليه ودخوله في سلسلة العلماء، فإن دوام خير الأمة بكثرة علمائها وعداده في جملة مبلغي وحي الله تعالى وأحكامه فإن تعليم العلم من أهم أمور الدين وأعلى درجات المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها يصلون على معلم الناس الخير**».

وأن لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته فإن ذلك يؤدي إلى تفويت العلم على كثير من الناس لكن الشيخ يحرض المبتدئ على حسن النية بتدريج قولاً وفعلاً ويعلمه أنه ينال بحسنها الرتبة العلية وفيض اللطائف وأنواع الحكم وتنوير القلب وانشراح الصدر وتوفيق العزم

وإصابة الحق وحسن الحال وتسديد المقال وعلو الدرجات يوم القيامة.

روي عن أبي يوسف أنه قال : مات أبي وأنا صغير وأسلمتني أمي إلى قصار فكنت أدعه وألزم حلقة الإمام، فلما طال ذلك جاءت أمي إلى الإمام وقالت له : ليس للصبي أستاذ غيرك أطعمه من مغزلي وهو يتيم فقال لها الإمام : دعيه فإنه يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفَيْرُوزَجِ، فولت وهي تقول : هذا شيخ ذهب عقله، فدفع الإمام إلي صرة فيها مائة درهم، وقال : احملها إلى أمك وقل لها : لكِ في كل شهر من أستاذي مثلها فلزمته حتى نفعني الله تعالى بالعلم، وتقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل على مائدته وأدخل راكب بغلتي وترفع دوني الستور إلى داخل القصر من غير استئذان، فلما كان في بعض الأيام قُدم إلى هارون صحن فيروزج فيه فالوذج بدهن فستق فقال لي : كل منه فليس في كل يوم يعمل لنا مثله، فضحكت، فسألني عن ذلك؟ فأخبرته فقال : لعمري إن العلم ينفع ويرفع ديناً ودنيا وترحم على الإمام، وقال : كان ينظر بعين قلبه ويرى ما لا يراه غيره بعين رأسه، وقد وسع الله تعالى علي في الدنيا حتى كان في ملكي سبع مائة بغل وثلاث مائة فرس عربية، وأما المال فلا أحصيه.

هذا ما أعطاه الله معجلاً في الدنيا ببركة العلم، وأما في الآخرة فما روي عن مكحول النسفي أنه قال : لما مرض أبو يوسف أوصى لأهل مكة بمائة ألف درهم ولأهل المدينة بمائة ألف درهم ولأهل الكوفة بمائة ألف

درهم ولأهل بغداد بمائة ألف درهم؛ وروى محمد بن شجاع أن معروفا الكرخي رحمه الله بعث رجلاً من أصحابه إلى دار الإمام أبي يوسف لما علم بموته، وقال : إذا أخرج أعلمني لأصلي عليه فذهب الرجل فاستقبلته جنازته وقد صلي عليه في مسجده، فلم يلحق الرجل بمعروف إلا وقد صلي عليه فأظهر معروف الغم لفوات صلاته عليه فقال رجل : لم تتأسف على فوات صلاة على رجل من عمال السلطان ولي القضاء؟ فقال : إني رأيت البارحة كأني دخلت الجنة فرأيت قصراً فرشت مجالسه وأرخيت ستوره وقام ولدانه فقلت : لمن هذا؟ فقالوا : لأبي يوسف، قلت : سبحان الله العظيم وبم استحق هذا؟ قالوا : بتعليم العلم وصبره على أذاهم.

وأن يرغب الطلبة في العلم وطلبه في أكثر الأوقات بذكر ما أعد الله تعالى للعلماء من منازل الكرامات وأنهم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويرغبهم فيما يعين على تحصيله من الاقتصار على الميسور وقدر الكفاية من الدنيا والقناعة بذلك عن شغل القلب بالتعلق بها وغلبة الفكر وتفريق الهم بسببها، فإن انصراف القلب عن تعلق الأطماع بالدنيا والإكثار منها والتأسف على فائتها أجمع لقلبه وأروح لسره وأشرف لنفسه وأعلى لمكانته وأقل لحساده وأجدر لحفظ العلم وازدياده، ولذلك قل من نال من العلم نصيباً وافراً إلا من كان في مبادئ تحصيله على ما ذكرنا من الفقر والقناعة والإعراض عن طلب الدنيا وعرضها الفاني.

أنشد عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى :

قــد أرحنــا واســترحنا ... مــن غــدو ورواح
واتصـــال بأمـــير ... ووزيـــر ذي ســـماح
بكفـــاف وعفـــاف ... وامتنـــاع وصـــلاح
وجعلنـا اليـأس مفتاحاً ... لأبـــواب النجـــاح

وأن يحب لطالبه ما يحب لنفسه كما جاء في الحديث، ويكره له ما يكره لنفسه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أكرم الناس علي جليسي الذي يتخطى رقاب الناس إلي لو استطعت أن لا يقع الذباب عليه لفعلت وفي رواية : إن الذباب ليقع عليه فيؤذيني.

وينبغي أن يعتني بمصالحه ويعامله بما يعامل أعز أولاده من الشفقة والإحسان إليه ومساواته له كما روى شريك بن عبد الله عن الإمام أبي حنيفة أنه كان كثير التفكر دقيق النظر لطيف الاستخراج في العلم والعمل والبحث والصبر مع المتعلم إذا كان فقيراً أغناه وأجرى عليه رزقاً وعلى عياله، وإذا تعلم قال له : وصلت إلى الغنى الأكبر بعلم الحلال والحرام وكان يبر طلبته ويبعث إلى كل واحد منهم على قدر منزلته.

وأن يصبر عليه إذا بدا منه نقص، إذ الإنسان لا يكاد يخلو عنه، ويبسط عذره بحسب الإمكان ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح

وتلطف لا بعنف وتعنيف، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه فإن عرف ذلك لذكائه بالإشارة فلا حاجة إلى صريح العبارة.

وإن لم يفهم ذلك إلا بالتصريح أتى به وراعى التدريج في التلطف ويؤدبه بالآداب السنية، ويحرضه على الأخلاق المرضية ويوصيه بالأمور العرفية على الأوضاع الشرعية ،كما فعل الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه مع تلميذه يوسف بن خالد السهمي فيما حكاه عنه قال : كنت أختلف بالبصرة إلى عثمان البتي فقيه أهلها وكان يذهب مذهب المعتزلة والشيعة فأخذت من مذاهبهم وناظرت عليها ثم استأذنت للخروج إلى الكوفة لتلقي مشايخها والنظر في مذاهبهم والاستماع منهم، فدلوني على سليمان الأعمش لأنه أفقههم في الحديث، وكان معي مسائل في الحديث سألت عنها المحدثين فلم أجد أحداً يعرفها فذكرت ذلك في حلقة الأعمش فذكر له ذلك فقال : ايتوني به فمضيت إليه فقال لي لعلك تقول : أهل البصرة أعلم من أهل الكوفة، كلا ورب البيت الحرام ما ذلك كذلك، وما أخرجت البصرة إلا قاصاً أو معبراً أو نائحاً والله لو لم يكن في الكوفة إلا رجل ليس من أهلها ولكن من مواليها يعلم من المسائل ما لا يعلمه الحسن ولا ابن سيرين ولا قتادة الأعمى ولا البتي ولا غيرهم؛ وغضب علي غضباً شديداً حتى خفت أن يضربني ثم قال لبعض من حضره : اذهب به إلى مجلس النعمان، فوالله لو رأى أصغر أصحابه علم أنه لو قام أهل الموقف لأوسعهم جواباً ودخل في قلبي من الرعب منه ما الله عالم به، فقام معي الرجل واتبعته

فلما خرج من المسجد قال النعمان : يكون في بني حرام فسئل عنه، فإنه بهذه المسائل أعلم فسألت حتى أتيت بني حرام وقد دخل وقت العصر، فإذا أنا بكهل قد أقبل حسن الوجه حسن الثياب خلفه غلام أشبه الناس به فلما دنا سلم ثم صعد المئذنة فأذن أذاناً حسناً، فتوسمت فيه أنه الإمام ثم صلى ركعتين خفيفتين تامتين أشبه بصلاة الحسن وابن سيرين، فاجتمع نفر من أصحابه وتقدم فأقام وصلى بهم فلما سلم استند إلى المحراب وأقبل بوجهه إلى الناس فحياهم ثم سأل كل واحد من أصحابه عن حاله، فلما انتهى إلي قال : كأنك غريب من أهل البصرة وقد نهيت عن مجالستنا؟ قلت : نعم قال ما اسمك؟ فأخبرته باسمي ونسبي وكنيتي فأخبرته فقال : أكنت من المختلفة إلى البتي؟ قلت : نعم قال : لو أدركني لترك كثيراً من قوله، ثم قال : هات ما معك وابدأ قبل أصحابك، فإن بك وحشة من الغربة وحق لمثلك من المتفقهة التقدم ولكل داخل دهشة ولكل قادم حاجة، قال: فسألته عن المسائل التي كانت مشكلة علي، فأجابني عنها فحكيت له ما جرى بيني وبين الأعمش، فقال : حفظك الله تعالى يا أبا محمد يحب أن ينوه اسم بلده بغيره فاشتغلنا إلى المغرب، فلما صلى المغرب اشتغل بالصلاة والتسبيح إلى أن صلى العشاء الأخيرة، وصلى بعدها ركعتين خفيفتين في غر موضع الفرض ثم خرج من المسجد وأخذ بيدي، وقال : أين نزلت فأخبرته فقال : تحول إلى دار الخيزران بجنب حجرتي وقال لبعض أصحابه: اذهبوا به إلى منزله وتعرفوا حاله وما يحتاج إليه وأصلحوا شأنه وعرفوا

جيرانه موضعه منا وليبت عنده الليلة من شاء منكم وليبكر من غاب منكم إليه، وحولوه إلى الحجرة التي ذكرت، ثم ودعني وانصرف إلى منزله؛ فمضيت أنا مع أصحابه إلى منزلي فلما وصلنا إلى الخان أوصوا بي أهل الخان وقاموا بحوائجي وعرضوا علي المال والنفس وعملوا بما أمرهم به وجاؤوا من الغد، ونقلوني إلى دار الخيزران وحملوا كتبي ووجه الإمام إلي صرة فيها دراهم كثيرة وثياب وطعام مع ابنه حماد، وكان هو الغلام الذي رأيته خلفه ثم كان يتعاهدني ويبرني ويقوم بحوائجي وحوائج أصحابي من أهل البصرة، وكان كلما حضرت الدرس وقف لي وحث الناس على بري وتقدمي وكان له دعوة يوم الجمعة يجمع أصحابه في بيته ويطبخ لهم ألوان الأطعمة، وكان لا يأكل معنا ويقول أنفرد بنفسي لئلاً تحتشموا، قال ثم استأذنته في الخروج إلى البصرة فقال: حتى أخلي لك نفسي فأتقدم لك بالوصية فيما تحتاج إليه من معاشرة الناس وتأديبهم ومراتب أهل العلم وسياسة الرعية ورياضة الخاصة والعامة وتفقد أمر العامة فإنك متى أسأت معاشرة الناس صاروا لك أعداء، وإن كانوا لك أصدقاء ثم قال: كأني بك وقد دخلت البصرة وأقبلت على المخالفة بها ورفعت نفسك عليهم وتطاولت بعلمك لديهم وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم وهجرتهم وهجروك وشتمتهم وشتموك وضللتهم وبدعوك واتصل ذلك الشين بنا وبك واحتجت إلى الانتقال عنهم والهرب منهم، وليس هذا برأيي لأنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بد حتى يجعل الله له مخرجاً، فإذا دخلت البصرة واستقبلك

الناس وزاروك وعرفوا قدرك وحقك فأنزل كل رجل منهم منزلته وأكرم أهل الشرف وعظم أهل العلم ووقر الشيوخ ولاطف الأحداث وتقرب من العامة ودار التجار واصحب الأخيار ولا تتهاون بسلطان ولا تحقرن أحداً ولا تقصرن في إقامة مروءتك ولا تخرجن سرك إلى أحد، ولا تثقن بصحبة أحد حتى تمتحنه ولا تألفن ما ينكر عليك في الظاهر وإياك والانبساط إلى السفهاء، ولا تجيبن دعوة خاصة ولا تقبلن هدية من غير قريب أو ممن لم تجر عادته بالهدية، وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر، واستجد ثيابك واستفرد دابتك وأكثر من استعمال الطيب وقرب مجلسك، وليكن ذلك في أوقات معلومة واجعل لنفسك خلوة تلم بها حوائجك وابحث عن أخبار حشمك، وتقدم في تقويمهم وتأديبهم واستعمل في ذلك الرفق ولا تكثر العتاب فيهون العدل وحافظ على صلواتك وبادر بطعامك، فإنه ما ساد بخيل قط وبالإحسان إلى من يحسن إليك، وخذ بالعفو وامر بالعرف وتغافل عما لا يعنيك واترك كل ما يؤذيك، وليكن لك بطانة تعرفك أخبار الناس فمتى عرفت بفساد شيء بادرت إلى صلاحه ومتى عرفت بصلاح زدت فيه رغبة وعناية في زيارة من يزورك ومن لا يزورك وبادر في إقامة الحقوق، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك واعف عمن أساء إليك ومن تكلم فيك منهم بالقبيح فتكلم فيه بالحسن الجميل، ومن مات منهم قضيت حقه ومن كانت له فرحة هنيته بها ومن كانت له مصيبة عزيته بها فيها ومن أصابته جائحة توجعت

له بها، ومن استنهضك في أمر من الأمور نهضت له ومن استعانك أعنته، ومن استنصرك نصرته وأظهر التودد إلى الناس ما استطعت وأحسن السلام على قوم لئام، ومتى جمع بينك وبين قوم مجلس أو ضمك وإياهم مسجد وجرت المسائل وخاضوا فيه بخلاف ما عندك لا يبد لك منهم خلاف، وإن سئلت عنها أخبرت بما عندك من القول ثم قل : وفيها قول آخر كذا وكذا، والحجة له كذا وكذا، فإن سمعوه عرفوا منزلتك ومقدارك وعظموا محلك وأعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظر فيه وخذ كلاً منهم بحفظ شيء من ذلك، وخذهم بجليل العلم دون دقيقه وآنسهم ومازحهم أحياناً، وحادثهم فإن ذلك يستديم المودة ومواظبة العلم وأطعمهم أحياناً واقض حوائجهم واعرف مقدارهم وتغافل عن زلاتهم وارفق بهم وسامحهم، ولا تبد لأحد منهم ضجرا ولا ضيق صدر وكن كواحد منهم وعامل الناس معاملتك لنفسك، وارض منهم بما ترضى لنفسك واستعن على نفسك بالصيانة لها والمراقبة لأحوالها ولا تضجر لمن لا يضجر عليك، ودع الشغب واستمع لمن يتكلم ولا تقطع عليه كلامه قبل أن يفرغ منه، ولا تكلف الناس ما لا يكلفونك وارض لهم ما رضوا لأنفسهم وقدم إليهم حسن النية واستعمل الصدق واطرح الكبر جانباً وإياك والغدر وإن غدروا بك وأد الأمانة وإن خانوك وتمسك بالوفاء واعتصم بالتقوى وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم، فإنك إن تمسكت بوصيتي هذه رجوت أن تسلم ثم قال له إنه يحزنني مفارقتك ويؤنسني معرفتك فأوصلني بكتبك وعرفني

حوائجك ولتكن لي كلك فإن لك كلي ثم أخرج دنانير وكسوة وزاداً وخرج هو وأصحابه شيعوني حتى بلغنا شط الفرات فودعني وودعتهم فقدمت البصرة وعملت بما قال، فما مضى أيام حتى صاروا كلهم لي أصدقاء وبطلت المجالس واجتمعوا إلي وظهر مذهبه بالبصرة كما ظهر بالكوفة وبطل مذهب الحسن وابن سيرين، وما زالت هداياه وكتبه تتواصل إلي إلى أن قضى نحبه رحمه الله تعالى، فهدانا الله تعالى به لأنه معلم صالح وأستاذ ناصح فمن مثله.

تنبيه

قال أصحابنا : ينبغي لطالب العلم أن يحصل هذه الوصية المباركة عند الرجوع إلى أهله ولا بد للمدرس والمفتي والقاضي في معاملة الناس منها.

وأن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهيمه لا سيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه وجودة ذهنه ويحرص على ضبط الفوائد وحفظ النوادر والفرائد ولا يدخر عنه من أنواع العلوم ما يسأله عنه وهو أهل له لأن ذلك ربما يوحش الصدر وينفر القلب ويورث الوحشة.

وكذلك لا يلقي إليه ما لم يتأهل له لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه فإن سأله الطالب شيئاً من ذلك لم يجبه ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه وأن منعه إياه منه شفقة عليه ولطف به لا بخل عليه ثم يرغبه عند ذلك في الاجتهاد والتحصيل ليتأهل لذلك ولغيره ويحرص على تعليمه وتفهيمه

يبذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار لا يحتمله ذهنه أو بسط لا يضبطه حفظه.

ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره ويبدأ بتصوير المسائل ويوضحها بالأمثلة وذكر الدلائل ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها ويذكر الأدلة والمأخذ لمحتملها ويبين له معاني أسرار حكمها وعللها وما يتعلق بتلك المسألة من فرع وأصل ومن وهم فيها في حكم وتخريج ونقل بعبارة حسنة الأداء بعيدة عن تنقيص أحد من العلماء.

ويقصد ببيان ذلك الوهم طريق النصيحة وتعريف النقول الصحيحة ويذكر ما يشابه تلك المسألة ويناسبها وما يفارقها ويقاربها ويبين مأخذ الحكمين والفرق بين المسألتين ولا يمتنع من ذكر لفظة يستحي من ذكرها عادة إذا احتيج إليها ولم يتم التوضيح إلا بذكرها فإن كانت الكناية تفيد معناها وتحصيل مقتضاها تحصيلاً بيناً لم يصرح بذكرها، بل يكتفي بالكناية عنها.

وكذلك إذا كان في المجلس من لا يليق ذكرها بحضوره لحيائه أو لجفائه كنى عنها بغيرها، ولهذه المعاني واختلاف الحال ورد في حديث النبي ﷺ التصريح تارة والكناية أخرى والله أعلم.

وإذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على

الطلبة يمتحن بها فهمهم لها وضبطهم لما شرح لهم فمن فهمه منهم شكره ومن لم يفهمه تلطف في إعادته له ومن فوائد طرح المسائل أن الطالب ربما استحيي من قوله لم أفهم إما لرفع كلفة الإعادة عن الشيخ أو لضيق الوقت أو لحياء من الحاضرين أو لئلا تتأخر قراءتهم بسببه.

ولذلك قيل : لا ينبغي للشيخ أن يقول للطالب هل فهمت إلا إذا أمن من قوله نعم قبل أن يفهم فإن لم يأمن من كذبه إما لحياء أو لغيره فلا يسأله عن فهمه، وينبغي للشيخ أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس وبإعادة الشرح بعد فراغه فيما بينهم ليثبت في أذهانهم ويرسخ في أفهامهم ولأنه يحثهم على استعمال الفكر ومؤاخذة النفس بطلب التحقيق.

وأن يطالب الطلبة في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات ويمتحن ضبطهم لما قدمه لهم من الفوائد العجيبة والقواعد الغريبة ويختبرهم بمسائل تبتني على أصل قرره أو دليل ذكره فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه ليبعثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد ومن رآه مقصراً ولم يخف نفوره عنفه على قصوره وحرضه على علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم لا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطاً والشكر انبساطاً.

ويعيد ما يقتضي الحال إعادته ليفهمه الطالب فهماً راسخاً وإذا سلك الطالب في التحصيل فوق طاقته وخاف الشيخ ضجره أوصاه بالرفق بنفسه

وذكره بقول النبي ﷺ: «**إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»، ونحو ذلك مما يحمله على الأناة والاقتصاد في الاجتهاد، وكذلك إذا ظهر له منه نوع سآمة أو مبادئ ضجر أمره بالراحة وتخفيف الاشتغال.

ولا يشير على الطالب بتعلم ما لا يحتمله فهمه أو سنه ولا بكتاب يقصر ذهنه عن فهمه فإن استشار الشيخ من لا يعرف حاله في الفهم والحفظ في قراءة فن أو كتاب لم يشر عليه بشيء حتى يجرب ذهنه ويعلم حاله في الفهم والحفظ فإن لم يحتمل الحال التأخير أشار عليه بكتاب سهل من الفن المطلوب فإن رأى ذهنه قابلاً وفهمه جيداً نقله إلى كتاب يليق بذهنه وإلا تركه.

وذلك لأن نقل الطالب إلى ما يدل نقله إليه على جودة ذهنه يزيد انبساطه وإلى ما يدل على قصوره يقلل نشاطه ولا يمكن الطالب من الاشتغال في فنين أو أكثر بل ولا في فن واحد في مكانين أو أكثر فإن ذلك يضره بل يقدم الأهم فالأهم وإذا علم أو غلب على ظنه أنه لا يفلح في فن أشار عليه بتركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه.

وأن يذكر للطلبة قواعد الفن التي لا تنخرم إما مطلقاً كتقديم المباشرة على السبب في الضمان أو غالباً كاليمين على المدعي عليه إذا لم تكن بينة إلا في القسامة، والمسائل المستثناة من القواعد كقول الشافعية العمل بالجديد من كل قولين قديم وجديد إلا في أربعة عشر مسألة ويذكرها.

ويبين كل أصل وما يبنى عليه من كل فن يحتاج إليه من علمي التفسير والحديث وأصولي الدين والفقه واللغة والتصريف والنحو ونحو ذلك إما بقراءة كتاب في الفن أو بتدريج على الطول وهذا كله إذا كان الشيخ عارفاً بتلك الفنون وإلا فلا يتعرض لها بل يقتصر على ما يتقنه منها ومن ذلك ما يقع من النوادر والمسائل الغريبة والفتاوى العجيبة والمعاني الدقيقة ونوادر الفروق والمعاياة.

ومن ذلك ما لا يسع الفاضل جهله كأسماء المشهورين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين وكبار الزهاد والصالحين وضبط كناهم وأعمارهم ووفياتهم وما يستفاد من محاسن آدابهم ونوادر أحوالهم ليحصل له مع الطول فوائد كثيرة النفع ونفائس غزيرة الجمع، وليحذر كل الحذر من منافسة بعضهم لكثرة تحصيله لأن ثواب فضائلهم عائد إليه وحسن تربيتهم محسوب عليه وله من جهتهم في الدنيا الدعاء والثناء والذكر الجميل وفي الآخرة الثواب الجزيل.

وأن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة فإن ذلك ربما يوحش الصدر وينفر القلب فإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً وأشد اجتهاداً وأحسن أدباً أظهر إكرامه وتفضيله وبين أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب فلا بأس بذلك لأنه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات.

وكذلك لا يقدم أحداً في نوبة غيره أو يؤخره عن نوبته إلا إذا رأى في ذلك مصلحة تزيد على مصلحة مراعاة النوبة فإن سمح بعضهم لغيره في نوبته فلا بأس وينبغي أن يتودد لحاضرهم ويذكر غائبهم بخير وحسن ثناءه وينبغي أن يعلم أسمائهم وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم ويكثر الدعاء لهم بالتوفيق والصلاح.

وأن يراقب أحوالهم في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً فمن صدر منه من ذلك ما لا يليق عرض الشيخ له بالنهي عن ذلك فإن لم ينته نهاه عن ذلك سراً فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهراً وغلظ عليه القول إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره ويتأدب به كل سامع فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده والإعراض عنه إلى أن يرجع ولا سيما إذا خاف على بعض رفقائه وأصحابه من الطلبة موافقته وكذلك يتعاهد ما يعامل به بعضهم بعضاً من إفشاء السلام وحسن التخاطب في الكلام والتحابب والتعاون على البر والتقوى وعلى ما هم بصدده.

وبالجملة فكما يعلمهم مصالح دينهم لمعاملة الله تعالى يعلمهم مصالح دنياهم لمعاملة الناس وأن يسعى في مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما يقدر عليه من جاه أو مال فإن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن يسر على معسر يسر الله عليه حسابه يوم القيامة ولا سيما إذا كانت الإعانة على طلب

العلم الذي هو من أفضل القربات.

وإذا غاب بعض الطلبة أو ملازم الحلقة أزيد من العادة يسأل عنه وعن أحواله وما يتعلق به فإن لم يخبر عنه بشيء أرسل إليه أو قصده بنفسه وهو أفضل فإن كان مريضاً أو في غم خفض عليه وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به وسأل عنهم وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن.

وأن يتواضع للطالب وكل مسترشد سائل إذا قام بما يجب عليه من الحقوق لله تعالى وحقوقه ويخفض له جناحه ويلين له جانبه، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وصح عنه ﷺ: «**إن الله أوحى إلي أن تواضعوا وما تواضع أحد لله تعالى إلا رفعه الله**»، وهذا لعامة الناس فكيف بمن له حق الصحبة وحرمة التودد وشرف الطلب، وفي الحديث: «**لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه**»؛ وعن الفضيل: من تواضع لله تعالى ورثه الحكمة وقد مر ما فيه كفاية في هذا المعنى.

واعلم أن الطالب الصالح أعود على العالم بالدنيا والآخرة من أقرب الناس إليه، ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله تعالى ولدينه يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعد موتهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر كما جاء في الحديث الصحيح

عن النبي ﷺ: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**».

قلت: وهذه الثلاثة موجودة في معلم العلم، أما الصدقة فإقراؤه إياه ألا يرى قوله ﷺ في المصلي وحده: «**من يتصدق على هذا أي بالصلاة معه**»، ليحصل له فضيلة الجماعة، ومعلم العلم يحصل للطالب فضيلة العلم التي هي أفضل من صلاة في جماعة، وينال بها شرف الدنيا والآخرة؛ وأما العلم المنتفع به فظاهر لأنه كان سبباً لإيصال ذلك العلم إلى كل من انتفع به.

وأما الدعاء الصالح له فالمعتاد الجاري على ألسنة أهل العلم والحديث قاطبة الدعاء لمشايخهم وأئمتهم وبعض أهل العلم يدعو لكل من يذكر عنه شيء من العلم وربما يقرأ بعضهم الحديث بسنده فيدعو لجميع رجال السند فسبحان من اختص من شاء من عباده بما شاء من جزيل عطائه.

وينبغي أن يترحب بالطلبة إذا لقيهم وعند إقبالهم عليه ويكرمهم إذا جلسوا إليه ويناديهم بأحب الأسماء إليهم وبما فيه تعظيم وتوقير لهم من كنية أو لقب، عن عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يكني أصحابه إكراما لهم.

ويعاملهم بطلاقة الوجه وظهور البشر وحسن المودة وإظهار الشفقة، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلق بهم بعد رد سلامهم ويعاملهم

بطلاقة الوجه وظهور البشر وحسن المودة وإعلام المحبة وإظهار الشفقة لأن ذلك أشرح لصدره وأطلق لوجهه وأبسط لسؤاله ويزيد في ذلك لمن يرجى فلاحه ويظهر صلاحه؛ لأنهم وصية رسول الله ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوا إليكم فاستوصوا بهم خيراً**».

وكان البويطي يدني الغرباء ويقربهم إذا طلبوا العلم ويعرفهم فضل إمام مذهبه وفضل كتبه ويقول: كان الإمام يقول كذا ويأمر بكذا.

وينبغي لطالب العلم أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معاينه وحقائق غوامضه فإن العلم كما قال بعضهم صلاة السر وعبادة القلب وقربة الباطن كما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبيث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديها.

فإذا طهر القلب للعلم ظهرت بركته ونما كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا وفي الحديث: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»؛ وقال سهل: حرام على قلب أن

يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله عز وجل.

وأن يحسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به وإحياء الشريعة وتنوير قلبه وتخلية باطنه والقرب من الله تعالى يوم لقائه والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله، قال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي، ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحصيل الرياسة والجاه والمال ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له وتصديره في المجالس ونحو ذلك، فيستبدل الأدنى بالذي هو خير.

قال الإمام أبو يوسف : أريدوا بعلمكم وجه الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه التواضع مع الطلبة واستصغار النفس واستجهالها إلا وأسدد وأوفق لجواب ما أسأل عنه ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح.

واعلم أن من شروط تطهير القلب التوبة الماحية للحوبة، ومن شروطها أن لا تظلم أحداً من الأنام وانبذ ما في يديك من الحطام ونخّ المكسب الحلال من المكسب الحرام واهرب من قبيح الأعمال في كل الأحوال وخذ منه ما يكفّك ويكفيك وذر منه ما يشغلك ويلهيك.

فإذا فعلت ذلك فاشدد مئزر الحذر وألزم قلبك طول الفكر وعود عينيك السهر وكن فاراً من البشر واجعل التوحيد أنيسك والحزن جليسك والزهد شعارك والورع دثارك والصمت قرينك والتواضع خدينك والتقوى

طويتك والنصح مطيتك والرب أمنيتك واقطع نهارك بالجوع والظمأ وأفن ليلك بالسهر والبكاء.

واذكر من عظيم ما خلا وتصرم ومضى، وانشر ديوانك وأظهر أحزانك ومثّل الجنة عن يمينك والنار عن شمالك والصراط تحتك والميزان بين يديك والرب سبحانه وتعالى مشرف عليك يقول لك اقرأ كتابك وأعلن وأوضح قولك وتبين وأنت مشفق مما فيه حذر من فضائحه ودواهيه تقول: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾، وأعلنها وأبداها.

حتى إذا هممت من شدة خوفك بالجحود أقام منك عليك الشهود فأين المهرب من بين يديه وأين المفر إلا إليه عزت والله المطالب وضاقت المذاهب وتقطعت الأسباب يوم العرض والحساب والمرجع والمآب فإذا رأيت ذلك عياناً وأيقنته إيقاناً وعرفته بياناً فاهجر كل فريق يلهيك وينسيك ويطغيك.

وجالس أهل المعرفة والعلم والبصيرة والفهم بالصمت والوقار والذلة والافتقار وإياك وملاحاة الرجال ولكن تعلم واحفظ وتفهم فإذا علمت فاعمل وإذا عملت فأخلص وإذا أخلصت فأشفق وإذا أشفقت فاوْجَل من أن لا تقبل وخذ القوت والقوام من الشراب والطعام.

وإذا نطقت فزن الكلام لتسلم من شرك الآثام واهجر المنام وقم في

الظلام واعتب نفسك في الخلوات وافطمها عن الشهوات وذكر نفسك ما فات وحذرها ما هو آت وتزوّد على قدر المسافة واعلم أن لكل عمل آفة فآفة النسك الرياء وآفة العقل الهوى وآفة الزهد الأمل وآفة الغنى البخل.

والعلل أكثر من أن تحصى فيأمن من فنيت أيامه ولياليه وبقيت آثامه ومساويه إن شئت فأطل وإن شئت فأقصر وإن شئت فأقلل وإن شئت فأكثر فإنك مسؤول عن خرجك وكسبك وحامل أثقالك إلى ربك وهو السائل وأنت المسؤول فبأي شيء تحتج وما عساك تقول إن أقررت أخذت بالإقرار وإن أنكرت لم ينفعك الإنكار عند من لا تغيب عنه الأسرار ولا تحجب عنه الأستار ولا يخفى عليه ما دجى عليه الليل والنهار.

فانظر لنفسك قبل طول الندم وزلل القدم ومحل العدم فقد تصرمت أيامك ونفدت أعوامك ودنا حمامك، وتدارك التفريط بالفعل الجميل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اختيار العلم والأستاذ والشريك والثياب

أيـا طالباً فاخـتر من العلـم نافعاً
لدينك في حال وما احتاج مشكلا

له مـا حـوى التوحيـد قـدم كـذا
اعرف الآلة بإتقان الدلائل فيصلا

وإن كان إيمـان المقـلد عـبرة
لدينـا وبالإهمـال يأثـم مذلـلا

اعلم أنه ينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه وما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثم ما يحتاج إليه في المآل ويقدم علم التوحيد ويعرف الله تعالى بالدليل فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحاً عندنا لكن يكون آثماً بترك الاستدلال.

والمختار عند جمهور أهل السنة أن التقليد هو قبول قول الغير من غير طلب حجة ودليل، لا يجوز في الأصول كوجود الباري تعالى وتقدس

وإثبات صفاته التي يجب ثبوتها له تعالى وما يستحيل عليه عز وجل وهذه هي المتعلقة بما يجب الاعتقاد فيه ولا تعلق لها بالعمل، بل يجب تحصيل العلم بها بالنظر في البراهين القطعية.

وأجاز عبيد الله بن الحسين العنبري والحشوية التقليد فيها، واختلف العلماء في إيمان المقلد هل هو صحيح أم لا، فذهب أكثر أهل السنة إلى صحته وإن كان عاصياً بترك الاستدلال والنظر المؤدي إلى معرفة قواعد الدين وهو كفساق أهل الملة في جواز مغفرته وتعذيبه بقدر ذنبه ثم عاقبة أمره الجنة لا محالة بما معه من الإيمان وهو مذهب الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والأوزاعي والثوري وأكثر المتكلمين وهو المختار وعليه العمل عند أهل السنة قاطبة.

ولا عبرة بمن خالف هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم، والحكم بصحته ليس لصحة التقليد بل لوجود حقيقة الإيمان منه وهو التصديق بجميع ما علم مجيء النبي ﷺ به بالضرورة فهذا مثاب ومعاقب من جهتين.

وأن يبتدئ أولاً بكتاب الله تعالى فيتقنه حفظاً وتفسيراً، ويتقن سائر علومه فإنه أصل العلوم وأمها وأهمها ثم في كل فن مختصرا يجمع فيه بين طرفيه، ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ، وليحذر من الاعتماد في ذلك على الكتب ابتداءً بل يعتمد في كل فن على من هو أحسن تعليماً له وأكثر تحقيقاً فيه وتحصيلاً منه وأخبرهم بالكتاب الذي قرأه وذلك

بعد مراعاة الصفات المتقدمة من الدين والصلاح والشفقة وغيرها.

فإن كان شيخه لا يجد من قراءته وشرحه على غيره منعةً فلا بأس بذلك وإلا راعى قلب شيخه إن كان أرجاهم نفعاً لأن ذلك أنفع له وأجمع لقلبه عليه وقال بعض العلماء يقدم بعد حفظ كتاب الله العزيز مختصراً لطيفاً في أصول الدين ليتقدم له عقيدة أهل السنة والجماعة لئلا يسبق إلى عقله بعض التخيلات الفاسدة والاعتقادات الباطلة.

ثم بعد إتقانه بمختصر لطيف واضح العبارة في الفقه في مذهبه ليصل به إلى معرفة أداء ما افترض عليه من العبادات وتمييز صحيحها من فاسدها والمعاملات ليميز في تصرفاته بين الحلال والحرام الذي هو الأصل في طلب العلم.

ثم مختصرا في العربية يستعين به على معرفة مفردات الألفاظ ثم مختصرا في أصول الفقه واضح العبارة ليكون له أساساً يبني عليه فروعه ثم مختصرا في علوم الحديث، ثم يتدرج بعد حصول هذه المختصرات إلى الكشف في التفاسير وكتب الحديث ومبسوطات الفروع واختلاف العلماء فإذا تمرن على هذا الاستدراج حصل له الذوق والتصرف والتفنن في أقوال العلماء وفنون العلم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

على محدث فاختر عتيقاً ليمنه
ولا تشتغل علم الجدال المعطلا
بعيد انقراض العالمين فإنه
يبعد عن فقه ويورثك القلى
ويتلف أعماراً ويورث وحشةً
وذا من علامات القيمة عن علا
وقوم ترى لا يسعدون بفهمهم
كلاماً لرب العز والفقه معتلا

اعلم أنه ينبغي لطالب العلم أن يختار من الكتب في الفن الذي يشتغل فيه ما كان أجمع لفنه وأوضح في عبارته وأشهر عند أهله وأكثر تداولاً بين علمائه لأنه يصل إلى مقصوده في أيسر مدة.

وليحذر في ابتداء أمره من النظر في كتب الاختلاف بين العلماء مطلقاً سواء كان في العقليات أو النقليات فإنه يحير الذهن ويشوش الفكر ويدهش العقل بل يتقن أولاً كتاباً واحداً في فن ما أو كتباً في فنون إن احتمل ذهنه ذلك على طريقة واحدة يرتضيها له شيخه فإن كانت طريقة شيخه نقل المذاهب والاختلاف ولم يكن له رأي واحد.

قال الغزالي: فليحذر منه فإن ضرره أكثر من النفع به وكذلك يحذر في ابتداء حاله وطلبه من المطالعة في تفاريق المصنفات فإنه يضيع زمانه ويغرق ذهنه بل يعطي الفن الذي يأخذه والكتاب الذي يقرأه كليته حتى يتقنه وليحذر من التنقل من كتاب إلى آخر قبل إتمامه وإتقانه من غير موجب فإنه علامة الضجر وعدم الفلاح.

أما إذا تحققت أهليته وتأكدت معرفته فالأولى أن لا يدع فناً من العلوم الشرعية إلا نظر فيه فإن ساعده القدر وطول عمره على التبحر فيه فذاك وإلا فقد استفاد منه ما يخرج به من عداوة الجهل بذلك العلم ويعتني من كل فن بالأهم فالأهم ولا يغفلن عن العمل الذي هو المقصود بالعلم.

وليحذر من الاشتغال بعلم الجدال الذي ظهر بعد انقراض أكابر العلماء فإنه يكل الطبع ويشغل القلب ويضيع العمر ويبعد عن الفقه ويورث الوحشة والعداوة والمنافرة والتنافس والحقد في الصدور وهذه كلها صفات مذمومة أما المناظرة لإظهار الحق فقد أجمعت الأمة على شرعيتها بين المجتهدين.

وإنما شرعت لإصابة الحق ومعرفته وتمييزه عن الخطأ وإظهار الصواب والجدال المنهي عنه الجدال بالباطل لإبطال الحق وتجويز الباطل لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾، دون الجدال بالحق وهو الذي يقصد به الوصول إلى الحق مع رياضة النفس وسكونها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ

أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقوله تعالى : ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

فهذا مأمور به فلا يكون منهياً عنه وقد أثنى الله تعالى على المناظرين بهذا القصد بقوله تعالى ويتفكرون في خلق السماوات والأرض فإنه ورد في معرض المدح والثناء عليهم والمنهي عنه لا يكون ممدوحاً عليه.

وأنشدوا :

قوم بفهم كتاب الله ما سعدوا
وخلطوا وادعوا فهم الإشارات
وكل من جهل الأحكام ليس له
فيما يزخرفه غير الفشارات

قال المصنف رحمه الله تعالى :

إذا ما انتجاباً للأساتيذ رمته
عليماً مسناً متقياً تقبلا
كما اختار نعمان ليفقه شيخه
وقوراً مسناً صابراً متحملاً

اعلم أنه ينبغي للطالب أن يختار من المشايخ الأعلم والأورع والأسن كما اختار أبو حنيفة رحمه الله تعالى حماد بن سليمان رحمه الله تعالى بعد

التأمل والتفكر، وقال : وجدته شيخاً وقوراً حليماً صبوراً؛ وينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله تعالى فيمن يأخذ العلم عنه ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحققت شفقته وظهرت مروءته وعرفت عفته واشتهرت صيانته وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً.

ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورعٍ أو دينٍ أو عدمِ خلق جميل، فقد ورد عن بعض السلف أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، وليحذر من التقيد بالمشهورين وترك الأخذ عن الخاملين فقد عد الغزالي رحمه الله وغير ذلك من الكبر على العلم وجعله عين الحماقة لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ويغتنمها حيث ظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه.

فإنه يهرب من مخافة الجهل كما يهرب من الأسد والهارب عن الأسد لا يأنف من دلالة من يدله على الخلاص فإذا كان الخامل ممن ترجى بركته كان النفع به أعم والتحصيل من جهته أتم.

وإذا سبرت أحوال السلف والخلف لم تجد النفع يحصل غالباً والفلاح يدرك طالباً إلا إذا كان للشيخ من التقوى نصيب وافر وعلى شفقته ونصحه للطلبة دليل ظاهر وكذلك إذا اعتبرت المصنفات وجدت الانتفاع بتصنيف الأتقى الأزهد أوفر والفلاح بالاشتغال به أكثر.

وليجتهد على أن يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية تمام اطلاعٍ وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع لا ممن أخذ عن بطون الأوراق ولم يعرف بصحبة المشايخ الحذّاق.

قال الشافعي رضي الله عنه : من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام، وقال بعضهم : من عظم البلية تمشيخ الصحفية أي الذين تعلموا من الصحف لأن العلوم لا تكتسب إلا من صدور الرجال.

قال بعضهم :

ولا بد من شيخ يريك شخوصها
وإلا فنصف العلم عندك ضائع

قال المصنف رحمه الله تعالى :

ألا شاورن في كل أمر نبينا
به كان مأموراً وقد كان أعقلا

يقولون مرء نصف مرء ولا شيء
فمرء له رأي يصوب بها أعملا

ونصف له رأى يصوب ولم يكن
يشاور ولا شيء فعن دين قد خلا

وأنفـع أشـيـاء وأجـدر تجـارة
علـوم جديـر بالمشـورة فافعـلا

اعلم أنه ينبغي للطالب إذا عزم على الارتحال لطلب العلم أن يشاور أهل الديانة والصلاح والتقوى في كل أمر مهم فإن الله تعالى أمر رسوله عليه السلام بالمشاورة في الأمور ولم يكن أفطن ولا أتم حزماً منه ومعصوم عن الخطأ ومع ذلك أمر بالمشاورة وكان يشاور أصحابه رضي الله تعالى عنهم في جميع الأمور حتى حوائج البيت.

وقال علي رضي الله تعالى عنه : ما هلك امرؤ عن مشورة ويقال رجل ونصف رجل ولا شيء فالرجل من له رأي صائب ويشاور ونصف الرجل من له رأي صائب ولكن لا يشاور أو يشاور ولا رأي له ولا شيء من لا رأي له ولا يشاور.

وقال جعفر بن محمد الباقر رضي الله تعالى عنهما لسفيان الثوري : شاور في أمرك الذين يخشون الله تعالى فطلب العلم من أعلى الأمور وأصعبها فكانت المشورة فيه أهم وأوجب وأن ينقاد لشيخه في أموره ولا يخرج عن رأيه وتدبيره بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، ويشاوره فيما يقصده ويتحرى رضاه فيما يعتمده ويبالغ في خدمته ويتقرب إلى الله بخدمته ويعلم أن ذلك لشيخه عز وخضوعه له فخر وتواضعه له رفعة.

ويقال إن الشافعي رضي الله عنه عوتب على تواضعه للعلماء فقال:

أهين لهم نفسي وهم يكرمونها
ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وقال بعضهم :

شاور صديقك في الخفي المشكل
واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه
في قوله شاورهم وتوكل

وقال آخر :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
بحزم نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً
فإن الخوافي تابع للقوادم

وقال آخر :

خصائص من تشاوره ثلاث
فخذ منها جميعا بالوثيقة

وداد خالــص ووفــور عقــل
ومعرفــة بحالــك في الحقيقــة

فمـن حصلـت لـه هـذه المعـاني
فتابــع رأيــه والــزم طريقــه

قال المصنف رحمه الله تعالى :

ولا تــتردد في دروس أئمــة
بل امكث له الشـهرين حتى تأملا

وتختـار أسـتاذاً فإنـك إن تكـن
ذهبـت إلى حـبر لتبـدأ مـن علا

فلـم تـك في يمـن إذا مـا تركتـه
ووصى بـه بعـض المشـايخ فاقبلا

إلا إن الصــبر والثبــات معظـم
ولكـن عزيـز قل لـكل إلي انقلا

اعلم أنه ينبغي للطالب إذا دخل بلدة أن يسأل عن علمائها ولا يعجل بالاشتغال عليهم بها والاختلاف إليهم بل يمكث مدة شهرين فيها حتى يتأمل ويختار أستاذاً فإنه إذا لازم عالماً وبدأ عليه ربما لا يعجبه درسه فيتركه ويذهب إلى غيره فلا يبارك له في التعلم، وإذا مكث واختار أمن

من تركه والإعراض عنه وانتفع بعلمه؛ واعلم أن الصبر والثبات أمر عظيم وأصل كبير في جميع الأمور ولكنه عزيز.

قال بعضهم :

لــكل إلى شــأو العــلى حــركات
ولكــن قليــل في الرجــال ثبــات

وقال آخر :

لا تيئسن إذا ما ضقت من فرج
يـأتي بـه الله في الروحـات والدلج
فمـا تجـرع كأس الصـبر معتصم
بـــالله إلا أتـــاه بالفـــرج

وقال آخر :

إن الأمور إذا ضاقت مسالكها
فالصبر يرتق منها كل ما يرتجى
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ويقال : الشجاعة صبر ساعة، وأن يلزم حلقة شيخه في التدريس والإقراء بل في جميع مجالسه إذا أمكن فإنه لا يزيده إلا خيراً وتحصيلاً

وأدباً وتفضيلاً ولا يشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة ينتظر متى يسقط عليه منها شيء ويجتهد على مواظبة خدمته والمسارعة إليها فإن ذلك يكسبه شرفاً وتبجيلاً.

ولا يقتصر في الحلقة على سماع درسه فقط إذا أمكنه فإن ذلك علامة قصور الهمة وعدم الفلاح بل يعتني بسائر الدروس المشروحة ضبطاً وتعليقاً ونقلاً ويشارك أصحابها حتى كأن كل درس له ولعمري إن الأمر كذلك للحريص، فإن عجز عن ضبط الجميع اعتنى بالأهم منها؛ وينبغي مذاكرة كلام الشيخ وما وقع فيه من الفوائد والضوابط والقواعد وغير ذلك فإن للمذاكرة نفعاً عظيماً وذلك عند القيام من مجلسه قبل تفرق أذهانهم وتشتت خواطرهم وشرود أفهامهم.

ثم يتذاكرون فيما بينهم في بعض الأوقات قال الخطيب أفضل المذاكرة مذاكرة الليل وكان جماعة من السلف يبتدئون في المذاكرة من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح فإن لم يجد الطالب من يذاكره ذاكر نفسه وكرر معنى ما سمعه ليعلق ذلك على خاطره فإن تكرار المعنى على القلب كتكرار اللفظ على اللسان سواء بسواء وقل أن يفلح من اقتصر على الفكر والتعقل بحضرة الشيخ خاصةً ثم يقوم ولا يعاوده.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

تصبر على الأستاذ والكتب لا تدع
مبـــترةً تمـــم ولا تتنقـــلا

إلى بـلدةٍ أخـرى بغـير ضرورةٍ
وأيضـاً إلى فـن بـلا أن تكمـلا

يضيـع أوقاتـاً ويشـغل قلبكـم
يفـوت أغراضـاً ويؤذيـك فاعقلا

وهـا فاصبرن عما تريد من الهوى
فإن الهوى أنشد كذا اصبر على البلا

كمـا بـان في بيـت العـلي مثـاله
ألا لـن تنـال العلـم أنشـد ممثـلا

اعلم أنه ينبغي للطالب أن يثبت ويصبر على الأستاذ وعلى كتابه حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يقرر الأول وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذي المسلم وينبغي أن يصبر عما تريده نفسه وهواه.

قال بعضهم :

إن الهوى لهو الهوان بعينه
وصريع كل هوىً صريع هوان

ويصبر على المحن والبليات قيل خزائن المنى تحت قناطير المحن؛ قال علي رضي الله تعالى عنه:

ألا لن تنال العلم إلا بستة
سأنبيك عن مجموعها ببيان

ذكاء وحرص واصطبار وبلغة
وإرشاد أستاذ وطول زمان

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وآثر شريكاً متقياً مجده
وصاحب طبع مستقيم فتفضلا

ومن مفتن فابعد ومن مفسد كذا
ومن مبطل فاحذر وكسلان رحلا

وقل كل مولود عن المرء أنشدن
ولا تصحب الكسلان فاعتبر انجلا

اعلم أنه ينبغي للطالب أن يختار الشريك المجد الورع وصاحب الطبع

المستقيم ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان **قال بعضهم في معناه:**

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فـكل قريـن بالمقـارن يقتـدي
فـإن كان ذا شر فجانبـه سرعـةً
وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي

وقال آخر:

لا تصحـب الكسـلان في حالاته
كـم صالـح بفسـاد آخر يفسـد
عدوي البليد إلى الجليد سريعةً
كالجمر يوضع في الرماد فيخمد

قال النبي ﷺ : «**كل مولود يولد على فطرة الإسلام إلا أن أباه يهودانه وينصرانه ويمجسانه الحديث**»؛ وقال بعضهم :

إن كنـت تبـغي العلـم مـع أهلـه
أو شـاهـداً يخـبر عـن غائـب
فاعتـبر الأرض بأسـمائها
واعتـبر الصاحـب بالصاحـب

لقوله النبي ﷺ : **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**.

وينبغي لطالب العلم أن يترك العشرة، فإن تركها من أهم ما ينبغي له ولا سيما لغير الجنس وخصوصاً لمن كثر لعبه وقلت فكرته فإن الطباع سراقة وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة وذهاب المال والعرض إن كانت لغير أهل وذهاب الدين إن كانت لغير أهله.

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيده منه كما روي عن النبي ﷺ : **«اغد عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالث فتهلك»**، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يفيده ولا يستفيد منه ولا يعينه على ما هو بصدده فليتلطف في قطعها في أول الأمر قبل تمكنها فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها.

ومن الجاري على ألسنة الفقهاء : الدفع أسهل من الرفع، فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً ديناً تقياً ورعاً زكياً كثير الخير قليل الشر حسن المداراة قليل المماراة إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وإن احتاج واساه وإن ضجر صبره **كما قيل**:

إن أخاك الصدق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك
شتت شمل نفسه ليجمعك

واعلم أن أسباب الألفة خمسة أشياء : وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر، فأما الدين فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله ﷺ أصحابه وأمته فقال : «**لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**».

وهذا وإن كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر ترات الجاهلية وإحن الضلالة؛ فقد بعث رسول الله ﷺ والعرب أشد الناس تقاطعاً وتعادياً وأكثرهم اختلافاً وتمادياً وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم إلى أن أسلموا فذهب تقاطعهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالإسلام إخواناً متواصلين وبألفة الدين أعواناً متناصرين لقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا﴾.

يعني أعداءً في الجاهلية فألف بينكم بالإسلام، وعلى حسب التآلف على الدين تكون العداوة فيه إذا اختلف بأهله وأما النسب فلأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التجادل والفرقة أنفةً من استعلاء الأباعد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «**إن الرحم إذا تماست تعاطفت**»،

ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت بها عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من ناوأها متناصرةً على من شاقها وعاداها.

وأما المصاهرة فلأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وإيثار فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المصاهرة لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾؛ يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة.

وأما المؤاخاة بالمودة فلأنها تكسب تصادق الميل إخلاصاً ومصافاة ويحدث بخلوص المصافاة وفاء واقياً ومحاماة صافية وهذا أعلى مراتب الألفة وعمدتها لأن أصل الألفة المصافاة ونتيجتها الوفاء ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم وقال عليه السلام: «**عليكم بإخوان الصدق فإنهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء**».

وقال ﷺ : «**المرء كثير بأخيه**»، وقال عمر رضي الله عنه : لقاء الإخوان جلاء الأحزان؛ وقال علي رضي الله عنه : الغريب من ليس له حبيب؛ وقيل : أفضل الذخائر صديق مساعد بعضد وساعد، وقيل : من اتخذ إخواناً كانوا له أعواناً.

وأنشدوا في معناه:

هموم رجال في أمور كثيرة
وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسما
فجسماهما جسمان والروح واحد

وأما البرّ فلأنه يوصل إلى القلوب ألطافاً ويزيدها محبة وانعطافاً ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون به وقرنه بالتقوى له لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى وبين رضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته ولقوله عليه السلام: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**»، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: ذكر عبادي إحساني إليهم ليحبوني فإن عبادي لا يحبون إلا من أحسن إليهم؛ وقيل فيه: الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله فأحبهم طرا إليه أبرهم لعياله.

واعلم أن البر نوعان صلة ومعروف، فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال في جهاتٍ محمودةٍ بغير عوضٍ مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها وإباؤها.

وأما المعروف فهو نوعان أيضا قول وعمل فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة

الطبع ويجب أن يكون محدوداً كالسخاء فإنه إن أسرف فيه كان ملقاً مذموماً وإن توسط واقتصد فيه كان معروفاً وبراً محموداً وأما العمل فهو بذل الجاه والإسعاد بالنفس والمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم وليس في هذا النوع شرف ولا لغايته حد؛ والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى : تعظيم العلم وأهله

إذا رمت علماً وانتفاعاً رزقته
ففخم أساتيذاً وأهله بجّلا

فحرمته أولى من الطاعة اعلمن
فمن هتكها كفر ومن يعص ذللا

ومن جملة التعظيم إعلاء معلم
رأيت أحق الحق أنشد ليقبلا

ومن رام أن يضحى وليده عالماً
فقيهاً غريباً أين يلقى ليجللا

ولا تمش قدام المعلم أقللن
كلاماً به إن مل لا تسأل أثقلا

اعلم أن الطالب لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره قيل ما وصل من وصل إلا بالحرمة وما يسقط من سقط إلا بترك الحرمة وقيل الحرمة خير من الطاعة ألا ترى أن الإنسان لا يكفر بالمعصية وإنما يكفر بترك الحرمة، ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم؛ قال علي رضي الله عنه : أنا عبد من علمني حرفاً إن شاء باع أو استرق.

وأنشدوا:

رأيت أحق الحق حق المعلم
وأوجبه حفظاً على كل مسلم
لقد حق أن يهدى إليه كرامة
لتعليم حرف واحد ألف درهم

فإن من علمك حرفاً واحداً مما تحتاج إليه في الدين فهو أبوك في الدين؛ وكان الشيخ الأستاذ الإمام شديد الدين الشيرازي رحمه الله تعالى يقول عن مشايخنا : من أراد أن يكون ابنه عالماً ينبغي أن يراعي الغرباء من الفقهاء ويكرمهم ويطعمهم ويعطيهم شيئاً فإن لم يكن ابنه عالماً يكون حافد عالم.

ومن توقير المعلم أن لا يمشي قدامه ولا يجلس مكانه؛ وكان ابن عباس رضي الله عنهما صلى على جنازة وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه معه، فلما أراد زيد أن يركب بغلته عضده وأخذه بركابه فقال له زيد: لا تفعل هذا يا ابن رسول الله، قال : بهذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقبل زيد رأسه فقال : لا تفعل، قال : بهذا أمرنا أن نكرم أهل بيت نبينا ﷺ.

وقال الإمام أحمد بن حنبل لخلف الأحمر : لا أقعد إلا بين يديك أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه، وقال الغزالي : لا ينال العلم إلا بالتواضع، وإلقاء السمع ومهما أشار عليه شيخه بطريق التعليم فليقلده وليدع رأيه فخطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه.

وقد نبه الله تعالى على ذلك في قصة موسى عليه السلام والخضر بقوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ الآية، هذا مع علو قدر موسى الكليم عليه الصلاة والسلام في الرسالة والعلم حتى شرط عليه السكوت؛ فقال : ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

وأن ينظر له بعين الإجلال ويعتقد فيه درجة الكمال فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء؛ وقال : اللَّهُمَّ استر عيب شيخي عني ولا تذهب بركة علمه مني.

وقال الشافعي رضي الله عنه :كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رضي الله عنه صفحاً رقيقاً هيبةً له لئلا يسمع وقعها؛ وقال الربيع : والله

ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له؛ وحضر بعض أولاد الخليفة المهدي عند شريك فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث فلم يلتفت إليه شريك ثم عاد فعاد شريك بمثل ذلك فقال استخف بأولاد الخلفاء قال : لا ولكن العلم أجل عند الله تعالى من أن أضيعه.

ويروي : العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه؛ وإذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل ووراءه بالنهار إلا إن اقتضت الحال خلاف ذلك لزحمة أو غيرها، وإذا كان في زحمة صانه عنها بيديه ويتقدم عليه في المواطن الخطرة ويحترز من ترشيش ثيابه ومن مزاحمته بكتفه أو بركابه إن كانا راكبين وملاصقة ثيابه.

وإذا مشى أمام الشيخ التفت إليه بعد كل قليل فإن كان الشيخ وحده يكلمه حالة المشي وإن كانا في ظل فليكن عن يمينه؛ وقيل عن يساره متقدماً عليه قليلاً ملتفتاً إليه ولا يمشي لجانب الشيخ إلا لحاجة أو إشارة منه ويؤثره بجهة الظل في الصيف وبجهة الشمس في الشتاء وبجهة الجدار في الرصيف ونحوه وبالجهة التي لا تقرع الشمس فيها وجهه إذا التفت إليه.

ولا يمشي بين الشيخ وبين من يحدثه بل يتأخر عنهما إذا تحدثا أو يتقدم ولا يقرب ولا يستمع ولا يلتفت فإن أدخله في الحديث فليأت من جانب آخر ولا يشق بينهما وإذا مشى مع الشيخ اثنان فاكتنفاه فقد رجح بعضهم أن يكون أكبرهما عن يمينه وإذا لم يكتنفاه تقدم أكبرهما وتأخر

أصغرهما.

وإذا صادف الشيخ في طريقه بدأه بالسلام ويقصده إن كان بعيداً ولا يناديه ولا يسلم عليه من بعيد ولا من ورائه بل يقرب منه ويتقدم عليه ثم يسلم ولا يشير إليه ابتداءً بالأخذ في طريق حتى يستشيره ويتأدب فيما يستشيره الشيخ بالرد إلى رأيه ولا يقول لما رآه الشيخ كان خطأ وهذا خطأ ولا ليس هذا برأي بل يحسن خطابه في الرد إلى الصواب كقوله يظهر أن المصلحة في كذا ولا يقول الرأي عندي كذا وشبه ذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى :

ولا تبدأ التكليم إلا بإذنه
ولا تجلسن دهراً مكانه مجللا

فحاصله فاطلب رضاه وجنبن
تساخطه في كل أمرٍ له امثلا

ولكن بعصيان الإله فلا تطع
فما ساغ للمخلوق عصيان ذي العلا

إلى آخره.

اعلم أنه ينبغي للطالب أن لا يبتدئ الكلام عند الشيخ إلا بإذنه ولا يكثر الكلام عنده ولا يسأل شيئاً عنه ملالته ويراعي الوقت ولا يدق

الباب بل يصبر حتى يخرج فالحاصل أنه يطلب رضاه ويجتنب سخطه ويمتثل أمره في غير معصية الله تعالى فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق جل اسمه؛ كما قال عليه السلام : «**إن شر الناس من يذهب دينه لدنيا غيره وبمعصية الخالق**».

ومن توقير الأستاذ توقير أولاده ومن يتعلق به وكان الشيخ برهان الدين صاحب الهداية يحكي أن واحداً من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس وكان يقوم في خلال الدرس أحياناً فسئل عن سبب القيام فقال إن ابن أستاذي يلعب مع الصبيان في السكة ويجيء أحياناً إلى باب المسجد فإذا رأيته أقوم له تعظيماً لأستاذي.

وكان القاضي فخر الدين الأرسابندي رئيس الأئمة بمرو وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام، وكان يقول إنما وجدت هذا المنصب بخدمة الأستاذ فإني كنت أخدم أستاذي القاضي الإمام أبا زيد الدبوسي رحمه الله تعالى وكنت أخدمه وأطبخ طعامه ولا آكل منه شيئاً.

وحكي أن الشيخ الإمام الأجل شمس الدين الحلواني رحمه الله تعالى خرج من بخارى وسكن في بعض القرى أياماً لحادثة وقعت وقد زارته تلامذته غير الشيخ الإمام القاضي شمس الأئمة أبي بكر الزرنجري فقال له حين لقيه لم لم تزرني فقال كنت مشغولاً بخدمة الوالدة فقال ترزق العلم ولا ترزق رونق الدرس، وكان كذلك فإنه كان يسكن أكثر أوقاته في القرى

ولم ينتظم له الدرس فإن من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليلاً.

وحكي عن هارون الرشيد رحمه الله أنه بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب فرآه يوماً يتوضأ ويغسل رجله وابن الخليفة يصب عليه الماء فعاتبه الخليفة في ذلك وقال إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه فلم لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك.

وينبغي أن لا يخاطب الشيخ بتاء الخطاب وكافه ولا يناديه بل يقول يا سيدي ويا أستاذ وقال الخطيب يقول أيها العالم أو الحافظ ونحو ذلك وما تقولون في كذا وما رأيكم في كذا وشبه ذلك ولا يذكره في غيبته أيضاً باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتعظيمه كقوله قال شيخنا أو الأستاذ كذا ونحو ذلك وأن يعرف له حق التعليم ولا ينسى له فضله.

قال شعبة : كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبداً ما حييت وقال ما سمعت من أحد شيئاً إلا واختلفت إليه أكثر مما سمعت منه وأن يعظم حضرته ويرد غيبته ويغضب له فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس؛ وأن يدعو له مدة حياته ويراعي ذريته وأقاربه وأولاده بعد وفاته ويتعاهد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه ويسلك في السمت والهدى مسلكه.

ويراعي في العلم والدين عادته ويقتدي بحركاته وسكناته في عادته

وعيادته ويتأدب بآدابه ولا يدع الاقتداء به، وأن يصبر على جفوته وسوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة مما وقع والاستغفار وينسب الموجب إليه ويجعل العيب منه عليه فإن ذلك أبقى لمودة الشيخ وأحفظ لقلبه وأنفع للطالب في دنياه وآخرته.

وعن بعض السلف : من لم يصبر على ذل التعليم بقي عمره في عماية الجهالة ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة؛ **وأنشد:**

إن المعلم والطبيب كلاهما
لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه
واصبر لجهلك إن جفوت معلما

غيره:

جهلت فعاديت العلوم وأهلها
كذلك يعادي العلم من هو جاهله

ومن كان يهوى أن يرى متصدراً
ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

غيره:

تفنن وخذ من كل علم فإنما
يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للذي أنت جاهل
به ولعلم أنت تتقنه سلم

وقال الشافعي رضي الله عنه: قيل لسفيان بن عيينة: إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض فإن تغضب عليهم يوشك أن يذهبوا أو يتركوك فقال للقائل: هم حمقى إذا مثلك إذ تركوا ما ينفعهم لسوء خلقي.

وقال أبو يوسف رحمه الله تعالى: خمسة يجب على الناس مداراتهم وعد منهم العالم ليقتبس من علمه وأن يشكر الشيخ على ما أوقفه عليه من دقيقة أدب أو نقيصة صدرت منه، ويعد ذلك من الشيخ من نعم الله تعالى عليه باعتناء الشيخ به ونظره إليه فإن ذلك أميل لقلب الشيخ وأبعث على الاعتناء بمصالحه.

وإذا أوقفه الشيخ على دقيقة من أدب أو نقيصة صدرت منه وكان يعرفها من قبل فلا يظهر أنه كان عارفاً بها وغفل عنها بل يشكر الشيخ على إفادته ذلك واعتنائه بأمره فإن كان له في ذلك عذر وكان الإعلام أصلح فلا بأس به وإلا تركه إن لم يترتب على الترك مفسدة فيتعين الإعلام.

وأن لا يدخل على الشيخ إلا باستئذان سواء كان الشيخ وحده أو مع غيره فإن استأذن بحيث يعلم الشيخ ولم يأذن له انصرف من غير تكرير استئذان وإن شك في علم الشيخ به فلا يزيد في الاستئذان فوق ثلاث مرات أو ثلاث طرقات بالباب وليكن الطرق خفياً بأظفار الأصابع ثم بالأصابع ثم بالحلقة قليلاً فإن كان الموضع بعيداً عن الباب فلا بأس برفع ذلك بقدر ما يسمع لا غير فإذا أذن له وكانوا جماعة قدم أفضلهم وأسنهم بالدخول والسلام عليه ثم يسلم عليه الأفضل فالأفضل.

وينبغي أن يدخل على الشيخ كامل الهيئة متطهر البدن والثياب نظيفهما بعد ما يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر وقطع رائحة كريهة لا سيما إن كان يقصد مجلس العلم فإنه مجلس عبادة ومتى دخل على الشيخ في غير المجلس العام وعنده من يتحدث معه فسكتوا عن الحديث أو وجده وحده يصلي أو يذكر أو يكتب أو يطالع فترك ذلك أو سكت ولم يبدأه بكلام أو بسط حديث فليسلم ويخرج سريعاً إلا أن يأذن له في المكث.

وإذا مكث فلا يطل إلا أن يأمره بذلك وإذا دخل على الشيخ أو جلس عنده فليكن قلبه فارغاً من الشواغل الدنيوية وذهنه حاضرا لا في حال نعاس ولا غضب ولا جوع شديد أو عطش أو نحو ذلك لينشرح صدره لما يقال له ويعي ما يسمعه.

وإذا حضر مكان الشيخ فلم يجده جالساً انتظره كيلا يفوت على نفسه

درسه فإن كل درس يفوت لا عوض له ولا يطرق عليه الباب ليخرج إليه فإن كان نائماً صبر حتى يستيقظ أو ينصرف ويعود والصبر خير له فقد روي أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يجلس في طلب العلم على باب زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه حتى يستيقظ فيقال له : ألا نوقظه لك؟ فيقول : لا، وربما طال مقامه حتى تقرعه الشمس.

ولا يطلب من الشيخ القراءة في وقت يشق عليه فيه أو لم تجر عادته بالإقراء فيه ولا يخترع عليه وقتاً خاصاً به دون غيره وإن كان رئيساً أو كبيراً لما فيه من الترفع والحمق على الشيخ والطلبة والعلم وربما استحيي الشيخ منه فترك لأجله ما هو أهم عنده في ذلك الوقت فلا يفلح الطالب فإن بدأه الشيخ بوقت معين أو خاص لعذر عائق له عن الحضور مع الجماعة أو لمصلحة رآها الشيخ فلا بأس بذلك إن شاء الله تعالى.

قال المصنف:

وفوض إلى الأستاذ أمرك إنه
تجارب في علم خلت عنك حصلا

وما بين أستاذٍ وبينك وسّعن
جلوساً لدرس قيس قوس مبجلا

تبعد عن أخلاق تذم فإنها
كلاب من المعنى عي لا يدخل الملا

توسط في علم ملائكة لكم
ولا سيما كبيراً به لن يحصلا

اعلم أن من تعظيم العلم تعظيم الشركاء ومن يتعلم منه والتملق مذموم إلا في طلب العلم، فإنه ينبغي أن يتملق الطالب لأستاذه وشركائه ليستفيد منهم وأن يسمع العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة وإن سمع مسألة واحدة أو كلمة واحدة ألف مرة قيل من لم يكن تعظيمه بعد ألف مرة كتعظيمه في أول مرة فليس بأهل للعلم.

وينبغي لطالب العلم أن لا يختار نوعاً من العلم بنفسه بل يفوض أمره إلى الأستاذ فإن الأستاذ قد حصلت له التجارب في ذلك وعرف ما ينبغي لكل واحد وما يليق بطبعه.

قال الشيخ الإمام الأستاذ برهان الدين صاحب الهداية : كان طالب العلم في الزمان الأول يفوض أمره في التعليم إلى أستاذه وكان يصل إلى مقصوده ومراده والآن يختارون بأنفسهم ولا يحصل مقصودهم من العلم والفقه.

وحكي أن محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح بدأ بكتاب الصلاة على محمد بن الحسن فقال له محمد اذهب فتعلم علم الحديث لما

رأى أن ذلك العلم أليق به وبطبعه فطلب علم الحديث فصار فيه مقدماً على جميع أئمة الحديث وينبغي أن لا يجلس الطالب قريباً من أستاذه عند السبق بغير ضرورة، بل ينبغي أن يكون بينه وبين الأستاذ قدر القوس فإنه أقرب إلى التعظيم وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة فإنها كلاب معنوية.

وقال النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة**»؛ وإنما يتعلم الإنسان بواسطة الملك والأخلاق الذميمة تعرف في كتاب الأخلاق، وكتابنا هذا لا يحتمل بيانها خصوصاً عن التكبر ومع التكبر لا يحصل العلم وقيل العلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي.

وأن يكون جلوسه بين يدي الشيخ جلسة الأدب كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ طاوياً رجله اليمنى مقيمها في صدره متوركاً رجله اليسرى أو متربعاً بتواضع وخضوع وسكون وخشوع مصغياً إلى الشيخ ناظراً إليه مقبلاً بكليته عليه متعقلاً لقوله بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانيةً.

ولا يلتفت من غير ضرورة لا سيما عند بحثه له أو كلامه معه، ولا يضطرب لضجة يسمعها ولا يلتفت إليها، ولا ينفض كميه ولا يحسر عن ذراعيه ولا يعبث بيديه أو رجليه أو بشيء من أعضائه ولا يضع يده على لحيته أو فمه أو يعبث بها في أنفه أو يستخرج بها منه شيئاً ولا يفتح فاه

ولا يقرع سنه ولا يضرب الأرض براحته أو يخط عليها بأصابعه ولا يشبك يديه أو يعبث بإزاره ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط أو شيء ولا يعتمد على يده ولا يعطي الشيخ جنبه أو ظهره ولا يكثر كلامه من غير حاجة ولا يحكي ما يضحك منه أو ما فيه بذاءة أو ما يتضمن سوء مخاطبة أو سوء أدب ولا يضحك لغير عجب ولا لعجب دون أن لا يضحك الشيخ، فإن غلبه تبسم تبسم بغير صوت البتة.

ولا يكثر التنحنح من غير حاجة ولا يبصق ولا يتنخع ما أمكنه ولا يلفظ النخامة من فيه بل يأخذها من فيه بمنديل أو خرقة أو طرف ثوبه ويتعاهد تغطية أقدامه وإرخاء ثيابه وسكون يديه عند بحثه أو مذاكرته وإذا عطس خفض صوته جهده وستر وجهه بمنديل وإذا تثاءب ستر فاه بعد رده جهده.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية وأن تجلس أمامه ولا تشيرن عنده بيديك ولا تعمد بعينيك غيره ولا تقولن قال فلان خلاف قولك ولا تغتابن عنده أحداً ولا تطلبن عثرته وإن زل قبلت معذرته وعليك أن توقره لله تعالى وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته ولا تسارّ في مجلسه ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه إذا كسل ولا تشبع من طول صحبته فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

ولقد جمع رضي الله عنه في هذه الوصية ما فيه كفاية ومن تعظيم الشيخ أن لا يجلس إلى جانبه ولا على مصلاه أو وسادته وإن أمره الشيخ بذلك فلا يفعله، إلا إذا جزم عليه جزماً يشق عليه مخالفته فلا بأس بامتثال أمره في تلك الحال ثم يعود إلى ما يقتضيه الأدب وقد تكلم الناس في أي الأمرين أولى امتثال الأمر أو سلوك الأدب.

والذي يترجح ما قدمته من التفصيل فإن عزم الشيخ بما أمره به بحيث يشق عليه مخالفته فامتثال الأمر أولى وإلا فسلوك الأدب أولى لجواز أن يقصد الشيخ تجربته وإظهار احترامه والاعتناء به فيقابل هو ذلك بما يجب من تعظيم الشيخ والأدب معه.

وأن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان ولا يقول له لم ولا لا نسلم ولا من نقل هذا ولا أين موضعه وشبه ذلك فإن أراد استفادته تلطف في الوصول إلى ذلك بأدب ثم هو في مجلس آخر أولى على سبيل الاستفادة وعن بعض السلف من قال لشيخه لم لم يفلح أبداً وإذا ذكر الشيخ شيئاً فلا يقول هكذا قلتُ أو خطر لي أو سمعت أو هكذا قال فلان ولا قال فلان خلاف هذا أو روى فلان خلافه أو هذا غير صحيح ونحو ذلك إلا أن يعلم إيثار الشيخ ذلك.

وإذا أصر الشيخ على قول أو دليل لم يظهر له أو على غير صواب فلا يغير وجهه أو عينيه أو يشير إلى غيره كالمنكر لما قاله بل يأخذه ببشر ظاهر

وإن لم يكن الشيخ مصيباً لغفلة أو سهوٍ أو قصور نظر في تلك الحال فإن العصمة في البشر مخصوصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وليحتفظ من مخاطبة الشيخ بما لا يليق به من الكلام مثل إيش بك أو فهمت وسمعت وتدري أو يا إنسان ونحو ذلك وكذلك لا يحكي له ما خوطب به غيره ولا يليق خطاب شيخ به وإن كان حاكياً مثل قال فلان لفلان أنت قليل البر وما عندك خير وشبه ذلك بل يقول إذا أراد الحكاية ما جرت العادة بالكناية به مثل قال فلان لفلان الأبعد قليل البر وما عند البعيد خير وشبه ذلك.

وليحتفظ من مناجاة الشيخ بصورة رد عليه فإنه يقع من الناس كثيراً مثل أن يقول له الشيخ أنت قلت كذا فيقول ما قلت كذا أو يقول له الشيخ مرادك في سؤالك كذا أو خطر لك كذا فيقول لا أو ما هذا مرادي أو ما خطر لي هذا وشبه ذلك، وكذلك إذا استفهمه الشيخ استفهام تقرير وجزم كقوله ألم أقل كذا أو أليس مرادك كذا فلا يبادر بالرد عليه بل يسكت أو يعبر بكلام لطيف يفهم الشيخ قصده منه.

فإن لم يكن بد من تحرير قصده وقوله فليقل فأنا الآن أقول كذا أو أعود إلى قصد كذا ويعيد كلامه ولا يقل الذي قلته أو الذي قصدته لتضمنه الرد عليه، وكذلك ينبغي أن يقول في موضع لم ولا نسلم فإن قيل لنا كذا أو فإن منعنا ذلك أو فإن سئلنا عن كذا أو فإن أورد كذا وشبه ذلك ليكون

مستفهماً للجواب سائلاً له بحسن أدب ولطف عبارة.

وإذا سمع الشيخ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية أو يُنشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاء مستفيد منه في الحال متعطش إليه فرح به كأنه لم يسمعه قط قال عطاء إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئاً وعنه أنه قال إن الشاب ليتحدث بحديث فأستمع إليه كأني لم أسمعه قط ولقد سمعته قبل أن يولد.

فإن سأله الشيخ عند الشروع في ذلك عن حفظه له فلا يجيب بنعم لما فيه من الاستغناء عن الشيخ فيه ولا يقل لا لما فيه من الكذب بل يقول أحب أن أسمعه من الشيخ أو أستفيد منه أو بعد عهدي به أو هو من جهتكم أصح فإن علم من حال الشيخ أنه أراد امتحان ضبطه أو حفظه وإظهار تحصيله فلا بأس باتباع غرضه وابتغاء مرضاته، وينبغي للطالب أن لا يكرر سؤال ما يعلمه ولا استفهام ما يفهمه فإنه يضيع الزمان وربما أضجر الشيخ.

قال الزهري : إعادة الحديث أشد من نقل الصخر وينبغي للطالب أن لا يقصر في الإصغاء والتفهم أو يشغل ذهنه بفكرٍ أو حديث ثم يستعيد الشيخ ما قاله لأن ذلك إساءة أدب، وكان بعض المشايخ لا يعيد لمثل هذا إذا استعاده شيئا ويزجره عقوبة له وإذا لم يسمع كلام الشيخ لبعده أو لم

يفهمه مع الإصغاء إليه والإقبال عليه فله أن يسأل الشيخ الإعادة والتفهيم بعد بيان عذره بسؤال لطيف.

وأن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره ولا يُساوقه فيه ولا يُظهر معرفته به أو إدراكه له قبل الشيخ فإن عرض الشيخ عليه ذلك ابتداء والتمسه منه فلا بأس وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه أي كلام كان ولا يسابقه فيه بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه ثم يتكلم.

ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه أو مع غيره وليكن ذهنه حاضراً في جهة الشيخ بحيث إذا أمره بشيء أو سأله عن شيء أو أشار إليه لم يحوجه إلى إعادته ثانياً ولا يعترض عليه بقوله فإن لم يكن الأمر كذا وإذا ناوله الشيخ شيئاً تناوله باليمين وإن ناول الشيخ شيئاً ناوله باليمين، فإن كانت ورقة يقرأها ينشرها ثم يدفعها إليه ولا يدفعها إليه مطويةً إلا إذا علم أو ظن إيثار الشيخ لذلك.

وإذا أخذ من الشيخ ورقة بادر إلى أخذها منشورة قبل أن يطويها أو يتربها وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه مهياً لفتحه والقراءة فيه من غير احتياج إلى إدارته فإن كان النظر في موضع معين فليكن مفتوحاً كذلك ويعين له المكان ولا يحذف إليه الشيء حذفاً من كتاب أو ورقة أو غير ذلك ولا يمد يده إليه إذا كان بعيداً ولا يحوج الشيخ إلى مد يده أيضاً للأخذ

منه أو للإعطاء بل يقوم إليه قائماً ولا يزحف زحفاً.

وإذا جلس بين يديه كذلك فلا يقرب منه قرباً كثيراً ينسب فيه إلى سوء أدب ولا يضع رجله أو يده أو شيئاً من بدنه أو ثيابه على ثياب الشيخ أو وسادته أو سجادته ولا يشير إليه بيده أو يقربها من وجهه أو صدره وإذا ناوله قلماً ليكتب به فليمده قبل إعطائه إياه.

وإن وضع بين يديه دواةً فلتكن مفتوحةً مهيأةً للكتابة منها وإن ناوله سكيناً فلا يصوب إليه شفرتها ولا نصابها ويده قابضة على الشفرة بل تكون عرضاً وحد شفرتها إلى جهته قابضاً على طرف النصاب مما يلي النصل جاعلاً نصابها على يمين الآخذ وإن ناوله سجادة ليصلي عليها نشرها أولاً والأدب أن يفرشها هو عند قصد ذلك وإذا فرشها ثنى مؤخر طرفها الأيسر كعادة الصوفية فإن كانت مثنية جعل طرفيها إلى يسار المصلي وإن كان فيها صورة محراب تحرى به جهة القبلة إن أمكن.

ولا يجلس بحضرة الشيخ على سجادة ولا يصلي عليها إذا كان المكان طاهراً وإذا قام الشيخ بادر القوم إلى أخذ السجادة وإلى الأخذ بيده وعضده إن احتاج إلى ذلك وإلى تقديم نعله إن لم يشق ذلك على الشيخ وليقصد بذلك كله التقرب إلى الله تعالى وإلى قلب الشيخ وقيل أربعة لا يأنف الشريف منها وإن كان أميراً قيامه من مجلسه لأبيه وخدمته للعالم الذي يتعلم منه والسؤال عما لا يعلم وخدمته للضيف؛ والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: الجد والمواظبة والهمة

ولا بـد من جد له والذين جاهدوا
هـدوا اقرأ وطالب أنشـدن ليقبلا

ومـا احتجت في علـم فجد ثلاثة
فنفسـك والأسـتاذ والأب مقبـلا

وما الجـد إلا الجد فالجـد جد به
بتجديـد إنشـاد تمنيـت مكمـلا

فواظـب على درس في أول ليلـةٍ
وآخرهـا وبين العشـائين فاعملا

كـذا سـحر وقـت مبـارك له
أيـا طالـب العلـم أنشـد اعقـلا

ألا فاسـهرن بالليل واغنم حداثةً
فكـد بقـدر الكد من شـاء كملا

ورافـق برفـق لا تفـارق يمنـه
ولا تجهدن جهداً جهيداً فتفشـلا

اعلم أنه لابد للطالب من الجد والمواظبة والملازمة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، وقيل: من طلب

شيئاً وجدّ وجده ومن قرع الباب ولجّ ولج وقيل بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى وقيل يحتاج في العلم والتعلم والتفقه إلى جد ثلاثة المتعلم والأستاذ والأب إن كان الأحياء.

وأنشد الشيخ سديد الدين الشيرازي للشافعي رحمهما الله تعالى:

الجـد يـدني كل أمـر شاسـع
والجـد يفتـح كل بـاب مغلـق

وأحـق خلـق الله بالهـم امـرؤ
ذو همـة يبـلى بعيـش ضيـق

ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

آخر:

تمنيـتَ أن تمـسي فقيهـاً مناظراً
بغير عناء والجنون فنون

إذا كان كسـب المال دون مشـقة
محالا فكسب العلم كيف يكون

وقال المتنبي :

ولـم أر في عيـوب النـاس شـيئاً
كنقـص القادريـن على التمـام

ولابد من سهر الليالي كما قال بعضهم :

بقـدر الكـد تكتسـب المعـالي
ومـن طلـب العـلى سـهر الليـالي

تـروم العـز ثـم تنـام ليـلاً
يغـوص البحـر مـن طلـب اللآلي

فمـا للمقلـين سـوى التمـني
ومـا للنائمـين سـوى الخيـال

وقيل : اتخذ الليل جملاً تدرك أملاً.

وقال آخر :

مـن شـاء أن يحتـوي آمـاله جمـلا
فليتخـذ ليلـه في دركهـا جمـلا

أقلـل طعامك كي تحظى به سـهراً
إن شئت يا صاحبي أن تبلغ الأملا

وقيل : من أسهر نفسه بالليل فقد فرح قلبه بالنهار.

وينبغي لطالب العلم أن يتقنع من القوت بما تيسر وإن كان يسيراً ومن اللباس بما ستر مثله وإن كان خلقاً فبالصبر على ضيق العيش تنال سعة العلم وبجمع شمل القلب عن مفترقات الآمال تتفجر فيه ينابيع الحكم؛ وقال أبو حنيفة رضي الله عنه يستعان على الفقه بجمع الهم ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا يزيد.

وقال مالك رضي الله عنه : لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضر به الفقر ويؤثره على كل شيء؛ وقال الشافعي رضي الله عنه : لا يصلح طلب هذا العلم إلا لمفلس، قيل ولا الغني المكفي؛ قال ولا الغني المكفي؛ وقال أيضا : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح.

وقال الخطيب : يستحب للطالب أن يكون عزباً ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجية وطلب المعيشة عن إكمال الطلب وقال سفيان الثوري رحمه الله من تزوج فقد ركب البحر فإن ولد له ولد فقد كسر به وبالجملة ترك التزويج لغير المحتاج إليه أو لغير القادر عليه أولى لاسيما إذا كان رأس مال الطالب جمع الخاطر واجتماع القلب واستعمال الفكر، ولا بد لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره فإن ما بين العشائين ووقت السحر وقت مبارك.

وقال **بعضهم** :

يـا طالـب العلـم بـاشر الـورعا
وجانـب النـوم واتـرك الشـبعا
ودم على الدرس لا تفارقـه
فالعلـم بـالدرس قـام وارتفعـا

وأن يقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم أيام الحداثة وعنفوان الشباب وما بقي من عمره فإن بقية العمر لا قيمة لها؛ **قال بعضهم** :

بقـدر الكـد تعطـى مـا تـروم
فمـن رام المـنى ليـلا يقـوم
وأيـام الحداثـة فاغتنمهـا
إلا أن الحداثـة لا تـدوم

واعلم أن أجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الإبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل وقال الخطيب أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم وسط النهار ثم الغداة، قال : وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع وقال وأجود أماكن الحفظ الغرف وكل موضع بعيد عن الملهيات قال وليس بمحمود الحفظُ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب غالباً

ومن أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال أكل القدر اليسير من الحلال.

قال الشافعي رضي الله عنه : ما شبعت منذ ست عشرة سنةً وسبب ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب وكثرة الشرب جالبة لكثرة النوم وكثرة النوم جالبة للبلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم هذا مع ما في ذلك من الكراهة الشرعية والتعرض لخطر الأسقام البدنية.

وقال بعضهم :

أبيض خميص البطن والزاد حاضر
أخاف على المقت أن أتضلعا

فإنك إن أعطيت نفسك سؤلها
وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقيل : إن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام والشراب ولم ير أحد من الأولياء والأئمة والعلماء وصف أو يوصف بكثرة الأكل ولا حمد به وإنما تحمد كثرة الأكل من الدواب المرصدة للعمل والذهن الصحيح أشرف من تبديده وتعطيله بالقدر الحقير من طعام وشراب يؤول أمرهما إلى ما قد علم، ولو لم يكن من آفات كثرة الطعام والشراب إلا الحاجة إلى كثرة دخول الخلاء لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يصون نفسه عنه ومن رام الفلاح في العلم وتحصيل البغية فيه مع كثرة الأكل والشرب والنوم فقد

رام مستحيلاً في العادة.

والأولى أن يكون أكثر ما يأخذ الإنسان من الطعام والشراب ما ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ملأ بن آدم وعاءً شراً من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**»؛ رواه الترمذي، فإن زاد على ذلك فالزيادة إسراف خارج عن السنة وقد قال الله تعالى﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾، قال بعض العلماء جمع الله تعالى في هذه الكلمات الطب كله ومن هذه الكلمة استفيد أكثر الطب والله أعلم.

قال المصنف:

ألا إن هـذا الديـن فارو وأنشـدن
كلم أرى مثل الرفق في يمنه اجتلا

على همـة عال أمـورك فابنـين
على قـدر أنشـدها ولـو أنمـا تحلا

وكم من حياء أنشد ويا نفس مثلن
دعي نفـسي أنشـدها تأمل لتعقلا

فضائـل علـم والمناقـب إنـه
به حسـن ذكر غـب موت تحصلا

وذاك حياة بعد موت فأنشدن
مثني لذاك الجاهلون ممثلا
فلذة علم كان بكفيك داعياً
وفقهٍ إذا ما اعتز والفقه مثلا
وقلل طعاماً كي تقل بلا غم
ولا تك الحال الطعام فتثقلا
توافق سبعون نبياً كذا أعلمن
على أن نسيانا يقولون حصلا
فمن بلغم كثر وكثرة بلغم
بتكثير شرب الماء ذا أن تؤكلا
ويقطع خبز يابس لبلاغم
وأكل على الريق الزبيب المقللا
كذاك سواك وهو في الشرع سنة
وفنه زادكم حفظاً كذي القيء قللا
وفي كل أسبوع عليك بقيئةٍ
ففيها أمان من بلاغم فافعلا

إذا أنـت تقليـل الطعـام تريـده
فـفي عفـة مـع صحـة فتأمـلا
فعـار له أنشـد ثلاثـة اروين
معاقبـة العقـبى بكـثرة حصـلا
ومـا بطنـة إلا مزيـل لفطنـة
ولا تكـثرن أكل الطعام فتثقلا
وألطـف مطعـوم وأشـهاها قدمن
كـذاك لا سـيما كلـه حـتى يقللا
ولا تـك بالجيعـان دهـرك آكلاً
ولكـن بأغـراض يصـح بهم كلا
كأن تتقـوى في صـلاةٍ وصومهـا
وفي عمـل قـد شـق كـثرة فافعلا

وينبغي للطالب أن لا يجهد نفسه جهداً يضعف النفس حتى تنقطع عن العمل بل يستعمل الرفق فإنه أصل عظيم في جميع الأشياء، قال رسول الله ﷺ ألا إن هذا الدين متين أي محكم فأوغل فيه برفق أي ادخل برفق ولا تبغض نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وقال ﷺ: «**نفسك مطيتك فارفق بها**»، وقال بعضهم:

لـــم أر مثـــل الرفـــق في يمنـــه
يســتخرج العـذراء مـن خدرهـا

مـــن يســـتعن بالرفـــق في أمـــره
يســتخرج الحيـة مـن جحرهـا

ولا بد لطالب العلم من الهمة العالية في العلم فإن المرء يطير بهمته كما يطير الطير بأجنحته.

قال المتنبي :

على قـدر أهـل العزم تـأتي العزائم
وتـأتي على قـدر الكريـم المـكارم

وتعظـم في عين الصغـير صغارها
وتصغـر في عين الكريـم العظائم

وقال امرؤ القيس :

ولـو إنمـا أسـعى لأدنى معيشـة
كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنمــا أســعى لمجــد مؤثــل
وقـد يـدرك المجـد المؤثـل أمثالي

والركن في تحصيل الأشياء الجد والمواظبة، فمن كانت له همة عالية ولم يكن له جد أو كان له جد ولم تكن له همة عالية لا يحصل له من العلم إلا قليل؛ وذكر الشيخ الأستاذ رضي الدين النيسابوري رحمه الله تعالى في كتاب مكارم الأخلاق أن الإسكندر لما أراد أن يسافر ليستولي على المشرق والمغرب شاور الحكماء فقال: كيف أسافر لهذا القدر من الملك فإن الدنيا قليلة فانية وملكها أمر حقير فليس هذا من علو الهمة فقالت له الحكماء: سافر ليحصل لك ملك الدنيا والآخرة فقال: هذا حسن.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها**»؛ **وقيل في هذا المعنى:**

ولا تعجل بأمرك واستدمه
فما ضلت عبادة مستديم

وقال أبو حنيفة لأبي يوسف رحمهما الله تعالى: كنتَ بليداً فأخرجتك المواظبة، وإياك والكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة، وقال الشيخ أبو نصر الصفار الأنصاري رحمه الله تعالى:

يا نفس يا نفس لا ترخي عن العمل
في البر والعدل والإحسان في مهل

فكل ذي عمل في الخير مغتبط
وفي بلاء وشؤم كل ذي كسل

آخر:

كم من حياء وكم من عجز وكم ندم
جم تولد للإنسان من كسل

آخر:

دعي نفسي التكاسل والتواني
وإلا فاثبتي في ذا الهوان
فلم أر للكسالى الحظ يحظى
سوى ندم وحرمان الأمان

واعلم أن الكسل من قلة التأمل في مناقب العلم وفي فضائله فينبغي للمتعلم أن يتعب نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم فإن العلم يبقى والمال يفنى والعلم النافع يحصل به حسن الذكر ويبقى ذلك بعد وفاته فإنه حياة أبدية، وكفى بلذة العلم والفقه والفهم داعياً وباعثاً للعاقل.

قال بعضهم:

الجاهلون فموتى قبل موتهم
والعالمون وإن ماتوا فأحياء

الجاهلـون وإن أعمالهـم كـثرت
لا يسـتوون لأهـل العلـم والأدب
إن الـكلاب إذا ألبسـتها ذهبـا
فليس كالأسد العاري من الذهب
والحبـس بالجـص والآجـر تعمـره
وليس في الفضل مثل المسجد الخرب

وقال آخر:

إذا مـــا اعـــتز ذو علـــم بعلـــم
فعلـــم الفقـــه أولى باعـــتزاز
وكـم طيـب يفـوح ولا كمسـك
وكـــم طـــير يطـــير ولا كبـــاز

وقد يتولد الكسل من كثرة البلغم والرطوبات وطريق تقليله تقليل الطعام؛ قيل اتفق سبعون نبياً عليهم الصلاة والسلام على أن النسيان من كثرة البلغم وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء وكثرة شرب الماء من كثرة الأكل والخبز اليابس يقطع البلغم، وكذا أكل الزبيب على الريق ولا يكثر منه حتى لا يحتاج إلى شرب الماء فيزيد البلغم والسواك يقلل البلغم ويزيد في الحفظ والفصاحة فإنه سنة يزيد في ثواب الصلاة وقراءة القرآن وكذا

القيء يقلل البلغم والرطوبات وطريق تقليل الأكل التأمل في منافع قلة الأكل وهو الصحة والعفة والإيثار.

وقال بعضهم :

فعـــار ثــم عـــار ثــم عـــار
شـقاء المـرء مـن أجـل الطعـام

وقال ﷺ : «**ثلاثة يبغضهم الله من غير جرم الأكول والبخيل والمتكبر**»؛ والتأمل في مضار كثرة الأكل وهي الأمراض وكلالة الطبع، وقيل : البطنة تذهب الفطنة؛ وحكي عن جالينوس أنه قال : الرمان نفع كله، والسمك ضرر كله، وقليل السمك خير من كثير الرمان، والأكل فوق الشبع ضرر محض، ويستحق به العقاب في الآخرة.

وطريق التقليل أيضا أكل الأطعمة الدسمة وتقديم الألطف والأشهى وعدم الأكل مع الجيعان، ولا تغتفر كثرة الأكل إلا لغرض التقوى على الصلاة والصيام والأعمال الشاقة.

واعلم أنه ينبغي للطالب أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به ولا يقنع بظاهر الحل شرعاً مهما أمكنه التورع ولم تلجئه حاجة أو يجعل حظه الجواز بل

يطلب الرتبة العلية ويقتدي بمن سلف من العلماء الصالحين في التورع عن كثير مما كانوا يفتون بجوازه.

وأحق من اقتدي به في ذلك سيدنا محمد ﷺ حيث لم يأكل التمرة التي وجدها في الطريق خشية أن تكون من الصدقة مع بعد كونها منها ولأن أهل العلم يقتدى بهم ويؤخذ عنهم فإذا لم يستعملوا الورع فمن يستعمله وينبغي له أن يستعمل الرخص في مواضعها عند الحاجة إليها ووجود سببها ليقتدى به فيها فإن الله تعالى يحب أن تؤتي رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

وأن يقلل المطاعم التي هي من أسباب البلادة وضعف الحواس كالتفاح الحامض والباقلاء وشرب الخل وكذلك ما يكثر استعماله البلغم المبلد للذهن المثقل للبدن ككثرة الألبان والسمك وأشباه ذلك وينبغي أن يستعمل ما جعله الله تعالى سبباً لجودة الذهن كمضغ اللبان والمصطكى على حسب مزاجه وأكل الزبيب بكرةً والجلاب ونحو ذلك بما ليس هذا موضع شرحه.

وينبغي أن يجتنب ما يورث النسيان بالخاصية كأكل أثر سؤر الفأر وقراءة ألواح القبور والدخول بين جملين مقطورين وإلقاء القمل الحي ونحو ذلك من المجربات فيه وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ولا يزيد في اليوم والليلة على ثماني ساعات وهي ثلثهما فإن احتمل حاله أقل من ذلك فعل ولا بأس بترويح النفس والقلب والذهن عند الكلال أو الضعف بتنزه وتفرج

في المنتزهات ليعود إلى حاله.

ولا بأس بمعاناة المشي ورياضة البدن به فقد قيل إنه ينعش الحرارة ويذيب فضول الأخلاط وينشط البدن ولا بأس أيضاً بالوطء الحلال إذا احتاج إليه فقد قال الأطباء بأنه يخفف الفضول وينشط البدن ويصفي الذهن إذا كان عند الحاجة باعتدالٍ ويحذر كثرته حذر العدو فإنه كما قيل ماء الحياة يراق في الأرحام يضعف السمع والبصر والعصب والحرارة والهضم وغير ذلك من الأمراض الردية.

والمحققون من الأطباء يرون أن تركه أولى إلا لضرورة أو استشفاء وبالجملة فلا بأس أن يريح نفسه إذا خاف مللاً، فإن النفس تملّ من الدأب في الجد، وترتاح إلى شيء من اللهو المباح.

قال بعض العرب : روحوا الأذهان كما تروحوا الأبدان؛ وكان بعض الأكابر من العلماء يجمع أصحابه في بعض أيام السنة في بعض أماكن النزه ويتمازحون فيما لا ضرر فيه ولا يقدح في دين ولا عرض؛ وكان الزهري يحدث ثم يقول : هاتوا طرفكم هاتوا من أشعاركم أفيضوا من بعض ما يخف عليكم ويأنس به طباعكم فإن للأدب مجاجة والقلب ذو تقلب؛ وما زالت الأفاضل تعجبهم الملح ويميلون إليها لأنها تريح النفس والقلب من كد الفكر، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

إذا رمـت للأسـباق بـدءاً فآثـرن
لذلـك يـوم الأربعـاء تقبـلا

فـذا مسـعد كل الأمـور بدأتهـا
فنحـس لكفـار وفي مؤمنـين لا

ويـروى كمـا مـن شيء حديثاً له
اختمن وفي يومه الأنوار مبديه ذو العلا

وفي سـبق قـدر لمـن هـو مبتـدئ
بقـدر إذا ثنيـت ذاك تعقـلا

وزد كلمـةً في كل يـوم مدرجـاً
ليمكنـه ضبـط بهـا لـو مطـولاً

إذا سـبق طـال ابتـداءً فإنـه
إلى عـشر مـرات يحـوج ليعقـلا

وذا في انتهـاء كان أيضـاً يرومـه
وفي تركـه عـسراً لمـا اعتـاد أولا

إلا سـبقاً علـق بعيـد تقـرر
ومـن نسـخ فابـدأ لما كان أسـهلا

ومـا أنـت لم تفهـم فـلا تكتبنه

يـكل بـه الطبـع ولـلذكاء مزيلا

تعلـم بفهـم مـن أسـاتيذ وافهمن

بكـثرة تكـرار وأن تتأمـلا

عليـك بفهـم إن تهاونـت مـرةً

يكـن عادةً فـادع الإله ليسـهلا

وإملاء بعض الناس في ذاك انشدن

وقـد قال مقبولاً كاخدم به اعملا

وذاكـر وناظر في علـوم وطارحن

ولكـن بإنصـاف وكـن متأمـلا

ولا تغفين فيها وعن شـغب فغب

مشـاوده هـذا بـذا لـن يحصـلا

وإلـزام خصـم أن نويـت وقهـره

فمـع معانـد فافعـل وإلا فأبسـلا

وجـدوى طـراحٍ كان أقـوى لأنـه

بذلـك تكـرار وغـيره فافعـلا

وفي كل أوقات تعلم دقائقاً
وما دركها إلا بأن تتأملا

وقوم كلاماً بالتأمل إن تقل
فذلك رأس العقل أوصيك فانقلا

وكن مستفيداً في الأحايين كلها
ومن كل أشخاص له الحكمة أرسلا

وقيل لابن عباس بما كنت مدركاً
بأن كنت سؤالاً وقلب تعقلا

فعدن تكراراً بتقدير مبلغ
فقر بإتمام وإلا تململا

فأمسية خمّس وما قبلها أربعاً
منقصاً فنقصاً ثم أحده فشكلا

ولا تتخافت في دروسٍ مكدراً
ولا تجهرن فيها مضراً معطلا

اعلم أنه كان شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله يوقف بداية السبق على يوم الأربعاء وكان يروي في ذلك حديثاً ويستدل به ويقول قال رسول الله ﷺ ما من شيء بدئ فيه يوم الأربعاء إلا وقد تم وهكذا كان يفعل

الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ويروى هذا الحديث عن أستاذه الشيخ الإمام قوام الدين أحمد بن عبد الرشيد رحمه الله تعالى، أنه قال سمعت ممن أثق به أن الشيخ الإمام يوسف الهمداني رحمه الله تعالى كان يوقف كل أعمال الخير على يوم الأربعاء وهذا لأن يوم الأربعاء خلق الله تعالى فيه النور وهو يوم نحس على الكفار فيكون مباركاً للمؤمنين.

وأما قدر السبق في الابتداء فكان أبو حفص الكبير يحكي عن الشيخ القاضي الإمام عمر بن أبي بكر الزرنجري أنه قال قال مشايخنا ينبغي أن يكون قدر السبق للمبتدئ قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين ويزيد بالرفق والتدريج فأما إذا طال السبق في الابتداء واحتاج إلى الإعادة عشر مرات في التدريج فهو في الانتهاء أيضاً يكون كذلك لأنه يعتاد ذلك ولا يترك تلك العادة البتة إلا بجهد كثير وقد قيل السبق حرف والتكرار ألف.

وينبغي أن يبتدئ بشيء يكون أقرب إلى فهمه وكان الشيخ الإمام الأستاذ شرف الدين العقيلي رحمه الله يقول الصواب عندي في هذا ما فعله مشايخنا رحمهم الله فإنهم كان يختارون للمبتدئ صغارات المبسوط لأن ذلك أقرب إلى الفهم والضبط وأبعد عن الملالة وأكثر وقوعاً بين الناس.

وينبغي أن يعلق السبق بعد الضبط والإعادة كثيراً فإنه نافع جداً وليأخذ من الحفظ والشرح ما يمكنه ويطيقه حاله من غير إكثار يمل ولا تقصير يخل بجودة التحصيل، ولا يكتب شيئا لا يفهمه فإنه يورث كلال الطبع ويذهب الفطنة ويضيع الأوقات.

وأن يصحح ما يقرأه قبل حفظه تصحيحاً متقناً إما على الشيخ أو على غيره ممن يعينه ثم يحفظه بعد ذلك حفظاً محكماً ثم يكرره عليه بعد حفظه تكراراً جيداً ثم يتعاهده في أوقات يقررها لتكرار يواظبه ولا يحفظ شيئاً قبل تصحيحه لأنه يقع في التحريف والتصحيف.

وقد تقدم أن العلم لا يؤخذ من الكتب فإنه من أضر المفاسد؛ وينبغي أن يحضر معه الدواة والقلم والسكين للتصحيح وليضبط ما يصححه لغةً وإعراباً، وينبغي أن يجتهد في الفهم من الأستاذ أو بالتأمل والتفكر وكثرة التكرار فإن من قلل السبق وكثر التكرار والتأمل يدرك ويفهم؛ وقيل حفظ حرفين خير من سماع وقرين، وختم حرفين خير من حفظ سطرين.

وإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك ولم يفهم الكلام اليسير فينبغي أن لا يتهاون بالفهم بل يجتهد ويدعو الله تعالى ويتضرع إليه فإنه تعالى يجيب من دعاه ولا يخيب من رجاه؛ وإذا شرح ما حفظه من المختصرات وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمات انتقل إلى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة في الخلوات، وتعليق ما يمر به أو يسمعه من الفوائد النفيسات والفروع الغريبة والمسائل الدقيقات وحل المشكلات والفروق بين الأحكام المتشابهات من جميع أنواع العلوم.

ولا يستقل بفائدة يسمعها أو يتهاون بقاعدة يضبطها بل يبادر إلى حفظها وتعليقها، ولتكن همته في طلب العلم عالية ولا يكتفي بالقليل

من العلم مع إمكان الكثير ولا يقنع من إرث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام باليسير، ولا يؤخر تحصيل فائدة تمكن منها أو يشغله الأمل عنها فإن للتأخير آفات ولأنه إذا حصلها في الزمن الحاضر حصل في الزمن الثاني غيرها.

ويغتنم وقت فراغه ونشاطه وزمن عافيته ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة بالإنصاف والتأني والتأمل، ويحترز عن الشغب والغضب فإن المناظرة والمذاكرة والمطارحة إنما تكون لاستخراج الصواب وذلك إنما يحصل بالتأمل والإنصاف ولا يحصل ذلك بالغضب والشغب فإن كانت نيته إلزام الخصم وقهره فلا يحل ذلك إلا لإظهار الصواب والتمويه والحيلة فيما لا يجوز إلا إذا كان الخصم متعنتاً لا طالباً للحق.

وكان محمد بن يحي رحمه الله تعالى إذا توجه عليه الإشكال ولم يحضره الجواب يقول ما ألزمته لازم وأنا فيه ناظر وفوق كل ذي علم عليم.

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من مجرد التكرار لأن فيها تكراراً وزيادة وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر ولكن إذا كانت مع منصف سليم الطبيعة.

وإياك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع فإن الطبيعة سراقة والأخلاق متعدية والمجاورة مؤثرة وقيل العلم من شرطه لمن خدمه أن يجعل الناس كلهم خدمه.

وأنشد الشيخ الإمام الأجل قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الأنصاري إملاءً للقاضي الخليل بن أحمد بن محمد السرخسي في سرخس بحضرة العلماء الأعلام وأئمة أهل الإسلام:

اخـدم العلـم خدمـة المسـتفيد
وأدم درســـه بفعـــل حميـــد
وإذا مــا حفظـت شـيئاً أعـده
ثــم أكـــده غايـــة التأكيـــد
ثــم علقـــه كي تعـــود إليـــه
وإلى درســـه على التأبيـــد
فـــإذا أمنـــت منـــه فواتـــاً
فابتـــدئ بعـــده بـــشيء جديـــد
مــع تكــرار مــا تقــدم منــه
واعتنـــاء بشـــأن هـــذا المزيـــد
ذاكـــر النـــاس بالعلـــوم لتحـــي
لا تكـــن مـــن أولي النـــهى ببعيـــد
إن كتمـــت العلـــوم أنسيـــت حتى
لا تـــرى غـــير جاهـــل وبليـــد

ثـم ألجمـت في القيامـة نـاراً
وتلهبـت في العـذاب الشـديد

فينبغي للطالب أن يكون متأملاً في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك فإنما تدرك الدقائق بالتأمل ولهذا قيل تأمل تدرك ولا بد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صواباً فإن الكلام كالسهم فلا بد من تقويمه بالتأمل وهو التثبت والتأني في موارد النصوص.

وأنشدوا:

أوصيك في نظم الكلام بخمسة
إن كنت للموصي الشفيق مطيعاً
لا تغفلن سبب الكلام ووقته
والكيف والكم والمكان جميعا

واعلم أن التأمل أصل كبير للفقيه المناظر، وقيل : رأس العقل أن يكون الكلام بالتثبت في التأمل، وينبغي أن يعتاد الاستفادة في جميع الأوقات من جميع الأشخاص قال النبي ﷺ الحكمة ضالة المؤمن أين ما وجدها أخذها وقيل خذ ما صفا ودع ما كدر.

وحكى الشيخ الإمام الأستاذ فخر الدين الكشاني رحمه الله تعالى أنه كانت جارية لأبي يوسف أودعها عند محمد بن الحسن لما ذهب إلى الحجاز

الشريف فقال لها محمد هل تحفظين عن أبي يوسف شيئاً من الفقه فقالت: لا إلا أنه كان يكرر كثيراً ويقول سهم الدور ساقط في الشِّرب فحفظ محمد تلك المسألة منها وكانت تشكل عليه وارتفع إشكاله بهذه الكلمة وعلم أن الاستفادة ممكنة من كل أحد.

ولهذا قال أبو يوسف حين قيل له بما أدركت العلم؟ قال : ما استنكفت من الاستفادة ولا بخلت بالإفادة، وقيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بم أدركت العلم؟ قال : بلسان سؤول وقلب عقول؛ وإنما تفقه أبو حنيفة رضي الله عنه بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان بزازاً.

وبهذا يعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع الكسب وكان أبو حفص الكبير يكتسب ويكرر فإن كان ولا بد لطالب العلم من الكسب لقيام أوده ونفقة العيال فليكتسب وليكرر وليذاكر ولا يكسل فإنه ليس لصحيح العقل والبدن عذر في ترك التعلم والتفقه، فإن أبا يوسف لم يكن أحد أفقر منه ولم يمنعه ذلك من التفقه، وقيل لعالم : بم أدركت العلم؟ فقال : باب غني، لأنه يصطنع به أهل العلم والفضل، وذلك سبب الزيارة.

وقال أبو حنيفة : إنما أدركت العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمت ووقفت على حكمة قلت الحمد لله فيزداد علي؛ وهكذا ينبغي للطالب أن يشتغل بالشكر باللسان والأركان والمال، ويرى الفهم والتوفيق والعلم من الله تعالى، ويطلب الهداية من الله تعالى بالدعاء والتضرع فإنه هادي من

استهداه وعاصم من استعصمه وأهل الحق هداهم الله تعالى وعصمهم عن الضلالة وأهل الضلالة طلبوا الحق من المخلوق والعاجز، وهو العقل وهو لا يدرك جميع الأشياء كالبصر لا يبصر جميع الأشياء فحجبوا وضلوا وأضلوا.

قال رسول الله ﷺ : «**العاقل من عمل بعقله**»، فالعمل بالعقل أولا أن يعرف عجز نفسه؛ قال ﷺ : «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»، فإذا عرف عجز نفسه عرف قدر ربه ولا يعتمد على عقله بل يعتمد ويتوكل على الله تعالى ويطلب الحق منه فإنه يهديه إلى صراط مستقيم.

ومن كان له مال كثير فأنفقه في طلب العلم فنعم المال الصالح للرجل الصالح المتصرف في طلب العلم، ومن كان له مال فلا يبخل به وينبغي أن يتعوذ بالله تعالى من البخل قال النبي ﷺ : «**أي داء أدوى من البخل**».

وكان أبو الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني فقيراً يبيع الحلوى وكان يعطي الفقهاء من الحلوى ويقول لهم ادعوا لابني فببركة جوده واعتقاده وشفقته وتضرعه لله تعالى نال ابنه ما نال؛ وقد كان لمحمد بن الحسن مال كثير حتى كان له ثلاثمائة وكيل على ماله فأنفقه كله على العلم والفقه ولم يبق له ثوب نفيس فرآه أبو يوسف في ثوب خلق فأرسل إليه ثياباً نفيسة فلم يقبلها وقال: عجل لكم وأجل لنا ولعله إنما لم يقبلها، وإن كان قبول الهدية سنة لما رأى في ذلك من المذلة لنفسه، وقال عليه السلام : «ليس لمؤمن أن يذل نفسه».

وحكي أن فخر الإسلام الأرسابندي رحمه الله تعالى جمع قشور البطيخ الملقاة وأكلها في مكان خال، فرأت ذلك جارية وأخبرت مولاها بذلك فاتخذ له دعوة ودعاه إليها فلم يقبل؛ وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يكون ذا همة عالية حتى لا يطمع في أموال الناس.

قال ﷺ : «**إياك والطمع فإنه فقر حاضر**»، ولا يبخل بما عنده من المال بل ينفق عليه وعلى غيره، وكان في الزمان الأول يتعلمون الحرف ثم يتعلمون العلم حتى لا يطمعون في أموال الناس، وفي الحكمة : من استغنى بمال الناس افتقر والعالم إذا كان طماعاً لا تبقى حرمة العلم، ولا يقول الحق، ولهذا كان يتعوذ صاحب الشرع ويقول: أعوذ بالله من طمع يدني إلى طبع.

وينبغي للمؤمن أن لا يرجو إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ويظهر ذلك بمجاوزة حد الشرع فمن عصى الله تعالى خوفاً من المخلوق فقد خاف غير الله تعالى وإذا لم يعص الله لخوف المخلوق وراقب حدود الشرع فلم يخف إلا الله تعالى، وكذا في جانب الرجاء وينبغي لطالب العلم أن يعد ويقدر لنفسه تقديراً في التكرار فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ وينبغي أن يكرر سبق الأمس خمس مرات وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات والسبق الذي قبله ثلاثاً والذي قبله اثنين والذي قبله واحدة فهذا أدعى إلى التكرار والحفظ.

وينبغي أن لا يعتاد المخافتة في التكرار لأن الدرس والتكرار ينبغي أن يكون بقوة ونشاط ولا يجهد جهداً يجهد نفسه لئلا ينقطع عن التكرار فخير الأمور أوسطها وحكي عن أبي يوسف أنه كان يذاكر مع الفقهاء بقوة ونشاط وكان صهره عنده يتعجب في أمره ويقول أنا أعلم أنه جائع مذ خمسة أيام ومع ذلك هو يناظر مع القوة والنشاط، وينبغي أن لا يكون لطالب العلم فترة فإنها آفة.

وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يقول : إنما فقت شركائي بأن لم تقع مني فترة قط في التحصيل وكان أستاذنا شيخ الإسلام فخر الدين القاضي خان يقول ينبغي للمتفقه أن يحفظ نسخة واحدةً من الفقه دائماً حتى يتيسر له بعد ذلك حفظ ما سمع من الفقه.

وينبغي للطالب أن يبكر بابتداء سماع الحديث ولا يهمل الاشتغال به وبعلومه والنظر في إسناده ورجاله ومعانيه وأحكامه وفوائده ولغته وتواريخه، ويعتني أولاً بصحيح البخاري ومسلم ثم ببقية الكتب الأعلام والأصول المعتمدة في هذا الشأن كموطأ مالك وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه وجامع الترمذي ومسند الشافعي، ولا ينبغي أن يقتصر على أقل من ذلك.

ونعم المعين للفقيه كتاب السنن الكبير لأبي بكر البيهقي ومن ذلك المسانيد كمسند أحمد بن حنبل وابن حميد والبزار، ويعتني بمعرفة صحيح

الحديث وحسنه وضعيفه ومسنده ومرسله وسائر أنواعه، فإنه أحد جناحي العالم بالشريعة والمبين لكثير من الجناح الآخر وهو القرآن ولا يقنع بمجرد السماع كغالب محدثي هذا الزمان بل يعتني بالدراية أشد من اعتنائه بالرواية، لأن الدراية هي المقصودة بنقل الحديث وتبليغه.

وإذا رد الشيخ عليه لفظة وظن أو علم أن ذلك خلاف الصواب كرر اللفظة مع ما قبلها ليتنبه الشيخ لها أو يأتي بلفظ الصواب على سبيل الاستفهام فربما وقع ذلك سهواً أو سبق لسان لغفلة ولا يقل بل هي كذا بل يتلطف في تنبيه الشيخ فإن لم يتنبه قال: فهل يجوز فيها كذا فإن رجع الشيخ إلى الصواب فلا كلام وإلا ترك تحقيقها إلى مجلس آخر بتلطف لاحتمال أن يكون الصواب مع الشيخ.

وكذلك إذا تحقق خطأ الشيخ في جواب مسألة لا يفوت تحقيقه ولا يعسر تداركه كالكتابة في رقاع الاستفتاء وكون السائل غريباً أو بعيد الدار أو مشنعاً تعين تنبيه الشيخ على ذلك في الحال بإشارة أو تصريح فإن ترك ذلك خيانة للشيخ فيجب نصحه بإيقاظه لذلك بما أمكن من تلطف أو غيره.

وإذا وقف على مكان كتب قبالته بلغ العرض أو التصحيح وينبغي أن يتأدب مع حاضري مجلس الشيخ فإنه أدب معه واحترام لمجلسه وهم رفقاؤه فيوقر أصحابه ويحترم كبراءه وأقرانه ولا يجلس وسط الحلقة ولا

قدام أحد إلا لضرورة كما في مجلس التحدث ولا يفرق بين رفيقين ولا بين متصاحبين إلا بإذنهما أو رضاهما معاً ولا فوق من هو أولى منه.

وينبغي للحاضرين إذا جاء القادم أن يرحبوا به ويوسعوا له ويتفسحوا لأجله ويكرموه بما يكرم به مثله وإذا فسح له في المجلس وجلس ضم نفسه غير معط أحدا ظهره ولا جنبه وغير خارج عن صف الحلقة بتقدم أو تأخر ولا يتكلم في أثناء درسه أو درس غيره بما لا يتعلق به ولا بدرس فرع منه إلا بإذن الشيخ.

وإن أساء بعض الطلبة أدبه على غيره لم ينهره غير الشيخ إلا بإشارته أو سراً بينهما على سبيل النصيحة وإن أساء أحد أدبه على الشيخ تعين على الجماعة انتهاره والانتصار للشيخ بقدر الإمكان وفاء لحقه ولا يشارك أحد أحدا من الجماعة في حديث ولا سيما للشيخ.

قال بعض الحكماء : من الأدب أن لا يشارك الرجل في حديثه وإن كان أعلم به منه؛ وأنشد أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي **في هذا المعنى**:

ولا تشارك في الحديث أهله
وإن عرفت فرعه وأصله

فإن علم إيثار الشيخ ذلك أو المتكلم فلا بأس وأن لا يستحي من سؤال ما أشكل عليه وتفهم ما لم يعقله بتلطف وأدب وحسن خطاب وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه من رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال وقيل: من رق وجهه رق علمه.

وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله نساء الأنصار لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن في الدين، وقالت أم سُليم رضي الله تعالى عنها لرسول الله ﷺ: إن الله لا يستحيي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت.

ولا يسأل عن شيء في غير موضعه إلا لحاجة أو علم بإيثار الشيخ ذلك وإذا سكت الشيخ عن الجواب لم يلح عليه وإن أخطأ في الجواب فلا يرد في الحال عليه.

وكذا لا ينبغي أن يستحي من قوله لم أفهم إذا سأله الشيخ لأن ذلك يفوت عليه مصلحته العاجلة والآجلة أما العاجلة فحفظ المسألة ومعرفتها واعتقاد الشيخ فيه الصدق والورع والرغبة والآجلة سلامته من الكذب والنفاق واعتياده التحقيق، قال الخليل: منزلة الجهل بين الحياء والأنفة وينبغي أن يُراعي نوبته فلا يتقدم عليها بغير رضا من له النوبة.

روي أن أنصارياً جاء إلى النبي ﷺ يسأله وجاء رجل من ثقيف فقال النبي ﷺ: «**يا أخا ثقيف إن الأنصاري قد سبقك بالمسألة فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك**».

قال الخطيب : يستحب للسابق أن يقدم على نفسه من كان غريباً لتأكد حرمته ووجوب ذمته كما فعل أبو حنيفة رضي الله عنه مع يوسف بن خالد السمتي وغيره من القادمين عليه.

وقد روي في ذلك حديثان عن بن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وكذلك إذا كان للمتأخر حاجة ضرورية وعلمها المتقدم أو أشار الشيخ بتقديمه فيستحب إيثاره فإن لم يكن شيء من ذلك ونحوه فقد كره قوم الإيثار بالنوبة لأن الإيثار إلى العلم والمسارعة إليه قربة والإيثار بالقرب مكروه ويحصل تقديم النوبة بتقديم الحضور في مجلس الشيخ أو المكان ولا يسقط حقه بذهابه إلى ما يضطر إليه من قضاء حاجة وتجديد وضوء إذا عاد بعده.

وإذا تساوق اثنان وتنازعا أقرع بينهما أو تقدم الشيخ أحدهما إن كان متبرعاً وإن كان عليه إقراؤهما فالقرعة، وأن يحضر معه كتابه الذي يقرأ منه ويحمله بنفسه ولا يضعه حال القراءة على الأرض مفتوحاً بل يحمله بيده ويقرأ منه ولا يقرأ حتى يستأذن الشيخ ولا يقرأ عند شغل قلب الشيخ أو ملله أو غمه أو غضبه أو جوعه أو عطشه أو نعاسه أو تعبه.

وإذا رأى الشيخ قد آثر الوقوف اقتصر ولا يحوجه إلى قوله اقتصر وإن لم يظهر له ذلك وأمره بالاقتصار اقتصر حيث أمره من غير استزادة وإذا عيّن له قدراً فلا يتعداه ولا يقول طالب لغيره اقتصر إلا بإشارة الشيخ أو ظهور إيثاره ذلك.

وإذا أراد أن يبتدئ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يُسمي الله تعالى ويحمده ويصلي على النبي ﷺ ويترضى عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعين وتابع التابعين ثم يدعو للشيخ ولوالديه ولمشايخه ولسائر المسلمين.

وكذلك يفعل كلما شرع في قراءة درس أو تكراره أو مطالعته أو مقابلته في حضور الشيخ أو في غيبته إلا أنه بحضرة الشيخ يذكره في الدعاء عند قراءته عليه ويترحم على مصنف الكتاب وإذا دعا الطالب للشيخ قال عقبه ورضي الله عنا وعنكم أو عن شيخنا وإمامنا ونحو ذلك ويقصد به الشيخ.

وإذا فرغ من الدرس دعا للشيخ أيضاً ويدعو الشيخ أيضاً للطالب كلما دعا له فإن ترك الطالب الاستفتاح بما ذكرناه جهلاً أو نسيانا نبهه عليه وعلمه إياه وذكره به فإنه من أهم الآداب.

وقد ورد الحديث في ابتداء الأمور المهمة بحمد الله تعالى وهذا منها، وينبغي للشيخ أن يُرغب الطلبة في التحصيل ويدلهم على مظانه ويصرف عنهم الهموم الشاغلة ويهون عليهم مؤنته ويذاكرهم بما حصله من الفوائد والقواعد والغرائب وينصحهم في الدين؛ فبذلك يستنير قلبه ويزكو عمله ومن بخل عليهم لم يثبت علمه وإن ثبت لم يثمر وقد جرب ذلك جماعة من السلف.

ولا يفخر عليهم أو يعجب بجودة ذهنه بل يحمد الله تعالى على ذلك ويستزيده منه بدوام شكره، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله: التوكل

ولا تشغلن في الرزق قلبك فاجهدن
وذا كان عـن كل المعـالي معطـلا

ومـن يتـوكل أو تـوكل توكلـوا
أو فليتـوكل مـن تفقـه دع انقـلا

ولا تـك في هـم لأمـر معيشـةٍ
وقل إن من منه الذي ليس مبطلا

حضـور القلـب في صـلاةٍ فإنـه
من أعمال عقباكم من القوت كملا

بوسـعك للدنيـا علائـق قللـن
ومـن ثم يختار اغترابـاً من اعقلا

تغـرب تجـد فيهـا تغـرب فتنـين
صعوبـة أسـفار لعلـم تحمـلا

على قـدر أمـر قـد يكـون عناؤه
لدى أكـثر هذا عن الغـزو فضلا

ومن مهدنا فاعلم إلى اللحد وقته
ومن سوف يتركه قل الآن رحلا

اعلم أنه لا بد لطالب العلم من التوكل في طلب للعلم ولا يهتم لأمر الرزق ولا يشغل قلبه بذلك، روى الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن عبد الله بن الحارث الزبيدي ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**من تفقه في دين الله كفاه الله تعالى همه ورزقه من حيث لا يحتسب**»، فإن من أشغل قلبه بأمر الرزق من القوت والكسوة قلما يتفرغ لتحصيل مكارم الأخلاق ومعالي الأمور.

وأنشدوا:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فينبغي لكل أحد أن يشغل نفسه بأعمال الخير حتى لا تشغله نفسه بهواها لأنه إن لم يشغلها شغلته، وينبغي للعاقل أن لا يهتم لأمر الدنيا لأن الهم والحزن لا يرد المصيبة ولا ينفع بل يضر بالقلب والعقل والبدن ويخل بأعمال الخير ويهتم لأعمال الآخرة لأنه ينفع.

وأما قوله ﷺ : «**إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا هم المعيشة**»، فالمراد قدر هم لا يخل بأعمال الآخرة، ولا يشغل القلب شغلاً يخل بإحضار

القلب في الصلاة.

ولا بد لطالب العلم من تقليل علائق الدنيا بقدر الوسع ولهذا اختاروا التغرب وإن كان فيه من تحمل النصب والمشقة ما أخبر به النبي ﷺ في قوله السفر قطعة من العذاب لما يقاسيه من ذل التغرب والوحدة.

وأنشدوا :

تغـرب تكتسـب أدبـا ومـالا
ولا تذكـر إذا سـافرت آلا
فـإن العـود كان وقـود قـوم
فأورثـه تغربـه جـلالا

آخر :

سأحدث في بطون الأرض ضرباً
وأركـب في العـلى غـير الليـالي
فإمـا في الـثرى فبسـطت عذري
وإمـا في الثريـا ونيـل المعـالي

ولا بد من تحمل النصب والمشقة في سفر التعلم كما قال موسى عليه السلام في سفر التعلم ولم ينقل عنه في غيره من الأسفار لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ليعلم أن سفر العلم لا يخلو عن النصب لأن طلب العلم

أمر عظيم وهو أفضل من الغزاة عند أكثر العلماء.

والأجر على قدر التعب والنصب والمشقة، فمن صبر على ذلك وجد لذةً تفوق سائر لذات الدنيا ولهذا كان محمد بن الحسن رحمه الله تعالى إذا سهر الليالي وانحلت له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات.

وينبغي أن لا يشتغل بشيء آخر ولا يعرض عن الفقه، قال محمد بن الحسن: صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد فمن أراد أن يترك علمنا هذه الساعة فليترك الساعة، ودخل فقيه على أبي يوسف رحمه الله تعالى يعوده في مرض موته وهو يجود بنفسه فقال أبو يوسف: رمى الجمار راكبا أم راجلا؟ فلم يعرف الجواب ثم أجاب بنفسه.

وقيل: رئي محمد بن الحسن في المنام بعد وفاته فقيل له: كيف كنت في حال النزع فقال كنت متأملاً في مسألة من مسائل المكاتب فلم أشعر بخروج روحي.

وينبغي للفقيه أن يشتغل في جميع أوقاته ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب فإن العلائق عوائق الحقائق، ولهذا كره السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

وقال الخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادي في الجامع عن بعض أهل العلم : إنه لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه وخرب بستانه وهجر إخوانه ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته وهذا كله وإن كانت فيه مبالغة فالمقصود به أنه لا بد فيه من جمع القلب واجتماع الفكر، وقيل : أمر بعض المشايخ طالباً له بنحو ما رواه الخطيب فكان آخر ما أمره به أن قال له اصبغ ثوبك لئلا يشغلك فكر غسله، ومما نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال لو كلفت لشراء بصلة ما فهمت مسألة.

ومما يعين على جمع القلب واجتماع الفكر اليأس من الخلق، والاستئناس بالحق، **وأنشد بعضهم في المعنى** :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس
واقنع بيأسٍ فإن العز في اليأس
فالرزق عن قدر يجري إلى أجلٍ
في ضمن لا غافل عني ولا ناسي

آخر :

قنعت بيأس فاستفدت غنى الدهر
وزودني عـزاً وملكـني أمـري

وفي اليـأس مـن ذل المطامع مقنع
إذا لم يكن عزم الفتى قلة الصبر

وأنشد سيدنا علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم:

لبســـت بالعـــز ثـــوب الغـــنى
فـــصرت أمـــشي شـــامخ الـــراس
مـــا إن تفاخـــرت على معـــدم
ولا تضعضعـــت لإفـــلاس
لســـت إلى النســـناس مستأنســـاً
لكنـــي آنـــس بالنـــاس
إذا رأيـت التيـــه مـن ذي الغـنى
تهـــت على التائـــه باليـــاس

وأنشد محمد بن إبراهيم البغدادي:

إذا اشـتملت على اليـأس القلـوب
وضـاق لمـا بـه الأمـل الرحيـب
وأوطئـــت المـــكاره واطمأنـــت
وأرســـت في أماكنهـــا الخطـــوب

ولم تـر لانكشـاف الـضر وجهاً
ولا أغـنى بحيلتـه الأريـب

أتى بعـد القنـوط إليـك غـوث
يمـن بـه اللطيـف المسـتجيب

وكل الحادثـات إذا تناهـت
فموصـول بهـا الفـرج القريـب

قال المصنف رحمه الله تعالى : وقت التحصيل

وفي كل أوقـات لذلـك وقتـه
وأفضلـه شرخ الشـباب تعقـلا

كذلك ما بين العشـاءين فاعلمن
كـذا أسـحار فـفي الـكل حصلا

فل اسـتغرقن كل الأحانـين ناظراً
إذا ملـت من علم بآخـر فادخلا

وكان ابـن عبـاس متى مـل ناولوا
لدفعـه ديوانـاً كذلـك فاعمـلا

وقـد فعـل الشـيبان إذا مـا أتى له
منـام فـرش المـاء للوجـه زيـلا

اعلم أن وقت التحصيل من المهد إلى اللحد، وقد اشتغل الحسن بن زياد وهو ابن ثمانين سنة ولم ينم على فراش أربعين سنة، وأفتى بعد ذلك أربعين سنة، وأفضل أوقات التحصيل شرخ الشباب، وأنشد بعض شعراء بني عامر في المعنى وأحسن ما شاء الله :

خبر ما ورّث الرجال بنيهم
أدب صالح وحسن ثناء

هو خير من الدنانير والأوراق
في يوم شدة ورخاء

تلك تفنى والعلم والأدب الصالح
لا يفتيان حتى اللقاء

إن تأدبت يا بني صغيراً
رب يوم تعد في النبلاء

وإذا ما أضعت نفسك ألفيت
صغيراً في زمرة الغوغاء

ليس عطف القضيب ما دام
غصناً وإذا صار يابساً بسواء

وكذا وقت السحر وهو وقت مبارك، وفيه تفتح أبواب السماء، وقد

مدح الله تعالى المتهجدين فيه بقوله تعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾؛ وأنشدوا في المعنى :

اصبر على ألم الإدلاج في السحر
وفي الرواح إلى الحاجات والبكر
لا تيأسن ولا يحزنك مطلبها
فالنجح يلفى بين العجز والضجر

وكذا ما بين العشائين؛ وينبغي أن يستغرق جميع أوقاته فإذا مل من علم اشتغل بعلم آخر، كان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إذا مل من الكلام يقول : هاتوا ديوان الشعر، وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل، وكان يضع عنده دفاتر فإذا مل من نوع نظر في آخر وكان يضع عنده الماء كلما نام رش على وجهه منه ليزيل نومه ويقول : إن النوم من الحسرات؛ والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى : الشفقة والنصيحة

وكن مشفقاً جداً وعن حسد فحد
ولا تك من نصح لخلق معطلا
وإياك إياك النزاع فإنه
يضيع أوقاتاً وعن العلم مشغلا

سيكفي مسيئاً بالمساوي فأيقنن
ومن محسن يجزى بالإحسان أي ملا

دع المراء انشدها عدوك راغماً
بتكرار إسباق إذا شئت مثلا

ولا تشغلن نفساً بقهر عداتها
بمصلحة شاغل بضمنه حصلا

وبعد معاداة بلوت فانشدن
يضيع أوقاتاً ويفضحك القلا

تحمل خصوصاً من سفيه فاجدره
قل احتملوا عيسى فذا عنه نقلا

ومن سوء ظن فاحذرن بمؤمن
فمن ذا معاداة وذا لن يحللا

ويروى له ظنوا ومن حيث نية
وسوء فعال ذا إذا ساء كملا

وذو العقل أنشدها تبخ فأمثله
ولا تتركن هذا وإلا لتخذلا

اعلم أن الطالب ينبغي أن يكون مشفقاً ناصحاً غير حاسد لأن

الحسد يضر ولا ينفع، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يقول : قالوا إن ابن المعلم يكون عالماً لأن المعلم يريد أن يكون تلامذته علماء فببركة اعتقاده وشفقته يكون ابنه عالما.

ويحكى أن الصدر الأجل برهان الأئمة جعل وقت السبق لابنيه الصدر الشهيد حسام الدين والسعيد تاج الدين وقت الضحوة الكبرى بعد جميع الأسباق وكانا يقولان إن طبيعتنا تكل وتمل في ذلك الوقت فقال أبوهما إن الغرباء وأولاد الكبراء يأتونني من أطراف الأرض فلا بد من أن أقدم أسباقهم فببركة شفقته فاق أبناؤه على أكثر فقهاء الأمصار في عصره في الفقه.

وينبغي أن لا ينازع أحداً ولا يخاصمه لأن ذلك يضيع أوقاته قيل المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء ستكفيه مساويه.

أنشد الشيخ الإمام الزاهد العارف ركن الإسلام محمد بن أبي بكر المعروف بجواهر زاده:

دع المـرء لا تجـزه على سـوء فعلـه

سـيكفيه مـا فيـه وما هـو فاعله

وقال أبو الفتح البستي :

إذا شئت أن تلقى عدوك راغماً
وتقتلـه غمـاً وتحرقـه همـاً

فرم العلى وازدد من العلم إنه
من ازداد علماً زادحاسده غماً

وقيل : عليك أن تشتغل بمصالح نفسك لا بقهر عدوك، فإذا أقمت مصالح نفسك تضمن ذلك قهر عدوك، وإياك والمعاداة فإنها تفضحك وتضيع أوقاتك وعليك بالتحمل ولا سيما من السفهاء، قال عيسى عليه السلام : احتملوا من السفيه واحدة كي تربحوا عشرا.

وأنشدوا :

بلـوت النـاس قرنـا بعـد قـرن
فلـم أر غـير ختـال وقـال

ولـم أر في الخطـوب أشـد
وقعـا وأصعب من معـاداة الرجال

وذقـت مـرارة الأشـياء طـرا
ومـا ذقـت أمـر مـن السـؤال

وإياك أن تظن بالمؤمنين سوءا، فإنه منشأ العداوة ولا يحل ذلك لقوله

عليه السلام : «**ظنوا بالمؤمنين خيراً**»، وإنما ينشأ ذلك من خبث النية وسوء السريرة **كما قال أبو الطيب المتنبي** :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته
فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقال أبو الفتح البستي :

ذو العقل لا يسلم من جاهل
يسومه ظلما وإعناتا

فليختر السلم على حربه
وليلزم الإنصات إن صاتا

والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى : الاستفادة

وكن مستفيدا كل يوم تعلما
ومحبرة فالزم لكي تتحصلا

إذ العلـم صيـد والكتابـة قيـد
بتحريـره فاجهـد لـكي تتحبـلا
ولـو قلـم يـشرى بدينـار افعلـن
لتحرير ما أسـمعت في الحال فاقبلا

اعلم أنه ينبغي أن يكون الطالب مستفيدا في كل يوم حتى يحصل له الفضل، وطريق الاستفادة أن تكون معه في كل وقت محبرة حتى تكتب ما يسمعه من الفوائد، قيل ما حفظ فر وما كتب قر وقيل العلم ما يؤخذ من أفواه الرجال لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون وينقلون أحسن ما يحفظون.

وعن هلال بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول لأصحابه شيئاً من العلم والحكمة، فقلت: يا رسول الله أعد لي ما قلت؛ فقال ﷺ لي: «**هل معك محبرة**»؛ فقلت: ما معي محبرة؛ فقال عليه السلام: «**يا هلال لا تفارق المحبرة فإن الخير فيها وفي أهلها إلى يوم القيامة**».

ووصى الصدر الشهيد ابنه شمس الدين أن يحفظ في كل يوم شيئاً من العلم والحكمة فإنه يسير، وعن قريب يكون كثيراً، واشترى عصام بن يوسف رحمه الله تعالى قلماً بدينار ليكتب ما يسمع في الحال، والعمر قصير والعلم كثير فينبغي أن لا يضيع الأوقات والساعات ويغتنم الليالي والخلوات قيل الليل طويل فلا تقصره بمنامك والنهار مضيء فلا تكدره بآثامك.

وينبغي أن يغتنم الشيوخ ويستفيد منهم وليس كل ما فات يدرك؛ قال بعضهم: لهفا على فوت التلاقي لهفا ما كل فات ويبقى يلفى؛ قال علي رضي الله عنه: إذا كنت في أمر فكن فيه، وكفى بالإعراض عن علم الله تعالى حزنا وخسارا، واستعذ بالله تعالى منه ليلا ونهارا.

ولا بد لطالب العلم من تحمل المشقة والمذلة في طلب العلم والتملق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم قيل العلم عز لا ذل فيه ولا يدرك إلا بذل لا عز فيه.

وأنشدوا:

أرى لك نفساً تشتهي أن تعزها
ولست تنال العز حتى تذلها

قال المصنف رحمه الله تعالى: الورع في التعلم

ويروون من لم يتورع تورعن
وإلا ففي إحدى الثلاث لتبتلا

ومن شبع فاحذر وكثرة نومكم
ومطعوم أسواق من الأكل زحلا

إلا مسهيا فاحذر لعمرك سارق
وأهل فساد والمعاصي ومبطلا

فوجـه لذا التكـرار وجهـك قبلـة
فإنـه مسـنون فبالسـنة اعمـلا

ودعـوه أهل الخير بالخـير فاغتنم
وعن دعوة المظلوم فاحذر فتكملا

وحافظ على الآداب والسنن اسمعن
فمن يحـرم الآداب عن سـنة خلا

ومن يحرم المسـنون يحـرم فريضةً
ومحرومـه محـروم عقـبى تعقـلا

وكـثر صـلاةً خاشـعاً ذاك أعـون
لتحصيلكم وكن لأطيعوا متمثلا

فمـع دفـتر صاحـب على كل حالةٍ
وبيضاء من أوراق دعها لتشكلا

اعلم أنه لابد للطالب من الورع في التعلم، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله تعالى بأحد ثلاثة أشياء: إما أن يميته في شبابه قبل أن ينتفع بالعلم أو يوقعه في الرساتيق، أو يبتليه بخدمة السلطان**».

فمهما كان طالب العلم أورع كان علمه أنفع والتعلم له أيسر وفائدته

أكثر، ومن الورع أن يحترز عن الشبع وكثرة النوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع وأن يحترز عن أكل طعام السوق إن أمكن لأن طعام السوق أقرب إلى النجاسة والخباثة وأبعد عن ذكر الله تعالى وأقرب إلى الغفلة ولأن خواطر الفقراء تقع عليه ولا يقدرون على الشراء منه فيتأذون بذلك وتذهب بركته.

حكي أن الشيخ الإمام الجليل محمد بن الفضل كان في حال تعلمه لا يأكل من طعام السوق وكان أبوه يسكن في الرساتيق ويهيئ طعامه ويدخله إليه يوم الجمعة، فرأى عنده يوما خبز السوق فلم يكلمه ساخطاً عليه فاعتذر له وقال ما اشتريته أنا ولم أرض به ولكن أحضره شريكي فقال أبوه : لو كنت تحتاط وتتورع لم يجترئ شريكك بذلك.

هكذا كانوا يتورعون فلذلك وفقوا للعلم والنشر حتى بقي اسمهم بعد موتهم إلى يوم القيامة ووصى فقيه من زهاد العلماء طالب علم أن يحترز عن الغيبة والمشي بالنميمة وعن مجالسة المكثار لأنه إما أن يكل الطبع أو يسرق عمر الطالب في تصرفه بغير فائدة ويضيع أوقاته، وأن يجتنب أهل الفساد والمعاصي والتعطيل؛ فإن المجاورة مؤثرة لا محالة، وأن يجلس مستقبل القبلة وأن يكون مواظباً على أداء سنن النبي ﷺ ويغتنم دعوة أهل الخير ويحترز عن دعوة المظلوم لأنها ليس بينها وبين مالك الملوك حجاب ولا بواب وهي أسرع من السهم الخاطف.

وأنشدوا:

بشر أولي العدل والإنصاف بالنعم
والجائريـن بعقـبى السـوء والنقم

فالعادلـون غـداً في نـور عدلهـم
والجائـرون غداة الحشر في الظُلم

لا تظلمـن إذا مـا كنـت مقتـدراً
فالظلـم آخـره يُفـضي إلى النـدم

نامت عيونـك والمظلوم منتصب
يدعـو عليـك وعين الله لـم تنم

حلـت مصيبتـه أقوامـاً بظلمهـم
إن الظلـوم على بـالٍ مـن النقـم

فاحـذر أخي مـن المظلـوم دعوته
كيلا يصيبك سهم الليل في الظلم

هذه دار من ظلم وتعدى على الأمم
ود في القبر أنه لم يكن يعرف القلم

آخر:

أتلعب بالدعاء وتزدريه
وما يدريك ما فعل الدعاء

سهام الليل لا تخطئ ولكن
لها أجل وللأجل انقضاء

وحكي أن رجلين خرجا في طلب العلم في الغربة وكانا شريكين فرجعا بعد سنين إلى بلدهما وقد فقه أحدهما ولم يفقه الآخر فتأمل فقهاء البلدة في حالهما وسألوهما عن حالهما وتكرارهما وجلوسهما فأخبروا أن جلوس الذي فقه كان في حال التكرار مستقبلاً للقبلة والمصر والآخر كان مستدبرها ووجهه إلى غير المصر.

وقد اتفق العلماء على أن الذي تفقه ببركة استقبال القبلة تفقه، إذ هو السنة في الجلوس في أثناء العبادة إلا عند الضرورة، وببركة دعاء أهل المصر فإن المصر لا يخلو عن العباد وأهل الزهد، والظاهر أنهم دعوا له في الليل، فينبغي لطالب العلم أن لا يتهاون بالآداب والسنن فإن من تهاون بالآداب حرم السنن ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة.

قال يوسف بن الحسين: بالأدب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة وبالحكمة يقام الزهد وبالزهد تترك الدنيا وبترك

الدنيا يرغب في الآخرة وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى، وقيل لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقوفا على رأسه يأتمرون بأمره لا يخطئ أحد منهم فقال : يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك فقال : لا يا أبا القاسم ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن.

وقال أبو الحسين النوري : ليس لله تعالى في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة وآداب الشريعة حلية الظاهر والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب وقال عبد الله بن المبارك أدب الخدمة أعز من الخدمة.

حكي أن أبا عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستلقي وأمد رجلي فجاءتني عائشة المكية فقالت لي : يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم اقبل مني كلمة لا تجالسه إلا بأدب وإلا فسيُمحى اسمك من ديوان القرب وكانت من العارفات.

وقال الجلاجلي البصري : التوحيد يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له والإيمان يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهراً وباطناً فما أساء أحد الأدب في ظاهر إلا عوقب ظاهراً وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً، وقال عبد

الله بن المبارك من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل في أدب رسول الله ﷺ : «**زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها**» ولم يقل رأيت؛ وقال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامة القبول؛ وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المستحسنات قيل : ما معناه؟ قال : أن تعامل الله سراً وعلناً بالأدب فإذا كنت كذلك كنت أديباً وإن كنت أعجمياً ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة
وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال أبو علي : ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب، وكل الأدب يتلقى من رسول الله ﷺ فإنه عليه السلام مجمع الآداب ظاهراً وباطناً فقد أخبر الله سبحانه عن حسن أدبه في الحضرة الإلهية بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله ﷺ، أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الإعراض، وفي الإقبال أعرض عما سوى الله، وتوجه إلى الله تعالى وترك وراء ظهره ما سواه من العاجل والآجل.

ومعنى قوله : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ لم تسبق البصيرة البصر

فيتجاوز حده ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة والظاهر مع الباطن والقلب مع القالب والنظر مع القدم ففي تقدم النظر على القدم طغيان والمعنى بالنظر علم وبالقدم حال فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغياناً ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيراً فلما اعتدلت الأحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله.

واعلم أن الأدب أدبان : أدب قول وأدب فعل فمن تقرب إلى الله بأدب فعله منحه محبة القلوب، فالأدب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف؛ وقال أبو نصر السراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادي والعوائق واستواء السر والعلانية وحسن الأدب في مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور.

وقال ابن المبارك : قد أكثر الناس في الأدب، ونحن نقول : معرفة النفس ما لها وما عليها؛ فهذه إشارة منه إلى أن النفس هي معدن الجهالات، وترك الأدب من مخامرة الجهل فإذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه ولهذا السر لا تظهر النفس بجهالة إلا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب، ومن أقام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر.

وأنشد الشيخ الإمام نجم الدين عمر النسفي صاحب المنظومة رحمه الله تعالى :

كـن للأوامـر والنـواهي حافظـاً
وعلى الصـلاة مواظبـاً ومحافظـاً

واطلـب علـوم الـشرع واجهـد
واستعن بالطيبات تصر فهيما حافظا

واسـأل إلهك حفظ حفظك راغباً
في فضلـه فـالله خـير حافظـا

آخر :

أطيعــوا وجــدوا ولا تكســلوا
فأنتــم إلى ربكــم ترجعــون

ولا تهجعــوا فخيــار الــورى
قليـلا مـن الليـل مـا يهجعـون

وينبغي أن يستصحب الطالب دفتراً على كل حال ليطالعه، وقيل : لم يكن الدفتر في كمه لم تثبت الحكمة في قلبه، وأن يستصحب أبدا أوراقا بيضا ومحبرة ليكتب ما يسمع من الفوائد التي يستفيدها من الأساتيذ، وقد ذكرنا حديث هلال بن يسار فيما تقدم والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى : ما يورث الحفظ وما يورث النسيان

وأسباب حفظ جدكم ووِظَابِكم
وأن يقـرأ القـرآن بالنظـر اعقـلا

وكـثر صـلاة للنـبي محمـد
ومعصيـة فاتـرك شـكوت ممثـلا

إذا مـا أردت الرفـع رفع كتابكم
فبسـمل وسـبحل ثم حمدل مهللا

فكـبر فحوقـل ثـم تمـم كتابـة
وآمنـت غبـا للفرائـض كمـلا

ألا عسلا فاشرب كذا استك بسنتي
وكل كنـدرا مع سـكر ذا ليسـهلا

وإحدى مع العشرين حمراء زبيبة
على الريق كل يوم للحفظ قل كلا

ومـا ازداد بلغـم كان منسـياً
منقـض هـذا للبلاغـم قلـلا

وتكـثير ذنـب أو هموم معيشـة
وكثرة أشـغال وعصيان ذي العلا

وتحصيل علم والصلاة تخشعاً
منافيةً للْهُمَّ كاستغن مثلا
سلام له أنشده لبعض مشايخ
بزوجته المهجورة اختم ممثلا
ولا تحجمن دهراً على نقرة القفا
وكزبرةً رطبا من الأكل زحلا

اعلم أن من أقوى أسباب الحفظ الجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل وقراءة القرآن نظرا، قيل: ليس شيء أعون على الحفظ من قراءة القرآن نظراً، وهي أفضل لقوله ﷺ: «**أفضل أعمال أمتي قراءة القرآن نظرا**».

ورأى شداد بن حكيم بعض إخوانه في المنام، فقال له: أي شيء وجدته أنفع؟ قال: قراءة القرآن نظرا، وقول بسم الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عند رفع الكتاب وقول آمنت بالله الواحد الأحد الحق وحده لا شريك له وكفرت بما سواه؛ وكثرة الصلاة على النبي ﷺ فإنه رحمة للعالمين.

ومما ينسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي

لأن العلـــم فضـــل مــــن الله
وفضــل الله لا يعطـــى لعـــاصي

وكذا استعمال السواك سنة مرضية وذكر فيه عشرة فوائد، وشرب العسل وأكل الكندر مع السكر وأكل إحدى وعشرين زبيبةً حمراء كل يوم على الريق يورث الحفظ ويشفي من كثير من الأمراض والأسقام وكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان ومما يورث النسيان المعاصي وكثرة الذنوب والهموم والأحزان في أمور الدنيا وكثرة الأشغال والعلائق.

وهموم الدنيا لا تخلو عن الظلمة في القلب وهموم الدنيا تمنعه عن الخير وهموم الآخرة لا تخلو عن النور في القلب ويظهر أثره في الصلاة في كثرة الخشوع وهم الدنيا يمنعه عن الخير وهم الآخرة يحمله عليه والاشتغال بالصلاة على الخشوع وتحصيل العلم ينفي الهم والحزن.

وأنشد الشيخ الإمام نصر بن الحسن رحمه الله تعالى :

اســـتغن نـــصر بـــن الحســـن
بـــكل علـــم يخـــتزن
ذاك الذي ينـــفي الحــــزن
ومـــا عـــدا لا يؤتمـــن

وأنشد الشيخ الإمام العالم الرباني نجم الدين عمر النسفي صاحب المنظومة في أم ولد له قد أشغلته:

سـلام على مـن يتمتـني بحبهـا
ولمعـة خديهـا ولمحـة طرفهـا

سبتني وأسـبتني فتـاة مليحـة
تحيرت الأوهـام في كنـه وصفهـا

فقلت ذريني واعذريني فإنني
شغفت بتحصيل العلوم وكشفها

ولي في طلاب العلم والفضل والتقى
غنى عن غناء الغانيات وعزفها

ومن أسباب نسيان العلم أكل الكزبرة الرطبة والتفاح الحامض والنظر إلى المصلوب وقراءة ألواح القبور والمرور بين قطار الجمال وإلقاء القمل الحي على الأرض والحجامة في نقرة القفا؛ والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى : ما يجلب الرزق وما يمنع الرزق وما يزيد في العمر وما ينقصه

ولا بـد للطـلاب من علـم قوتهم
وما زاد في رزق وما ينقص اعملا

وما زاد في عمـر وفي صحـةٍ لهـم
لـكي يفرغـوا للعلـم حـتى يحصلا
وقـل لا يرد اختم فمـن ذاك يعلم
بأن ارتـكاب الذنب للرزق زيلا
كـذا صحة ثم التكثير من الكرى
فيـورث في علـم ومـال تسـفلا
قم الليل أنشدها سرور النفس قل
ونومـك عريانـا كـذا أن تبـولا
ولا تـك في حـال الجنابـة آكلاً
ولا تتهـاون في السـقوط له كلا
ومـن بصـل قـشراً فـلا تحرقنـه
وتوم وكنس البيت في الليل زحلا
ولا تتركـن في البيت دهـراً قمامةً
ولا تمـش قـدام المشـايخ فاقبـلا
ولا تـك باسـم الوالديـن مناديـاً
ومن بيتكم بيت العناكيب زيلا

ولا تفعلن غسـل اليديـن بطينة

وبالـترب لا تغسـل ولا تتسرولا

قيامـاً ولا تقعـد بلـف عمامـةٍ

وقـتراً وإسرافـاً وبخـلاً فازحـلا

قل استنزلوا الرزق الحديث فتممن

كـذاك تبعد عن توان وتكسـلا

ولا تبتكر درهماً إلى السوق ذاهباً

ولا تبطئن في العود منه كذا اعملا

ومـن نفس لا تطفـين سراجكم

وتجفيـة وجـه بالثيـاب فزحـلا

ولا تعجلوا دهراً خروج مسـاجد

بعيـد صـلاة الفجـر يا أيهـا الملا

ولا تشتروا يوماً كسيرات خبزكم

من السائلين الفقر من ذاك حصلا

وهـا قلمـاً لا تبقـين بعقـدةٍ

ولا تتهـاون في صـلاة بل اعجلا

ولا تمتشـط دهرا بمشـط مكسر
فأضدادهـا تجلـبن فقـراً مذلـلا

وكنـس فنـاءٍ ثـم غسـل ثيابكم
وتحسـين خـط ثـم قـول مرتـلا

وبشـاش وجه أيضاً للرزق جالب
فكذا ما كلها المأثور للصد ذي العلا

وواقعـة فاقـرأ خصوصـاً لياليـاً
ومزمـلا فاقـرأ كـذاك لتفضـلا

وسـورة ملك ثـم ليل كـذا اقرأن
ألـم نـشرح اقرأهـا ليـلا تسـفلا

إلا إن أقـوى الجالبـات صلاتنـا
بتعديـل أركان خاشـعاً مبجـلا

وسـنة فجـر أدِّيـن بمـنزل
وأوتـر بـه التكليـم بعـد مزحـلا

وفي نسـوة لا تكـثرن تجالسـاً
ولكن لذا الحاجات جالس وطولا

وما كان لا يعنيك لا تشـتغلن به
يفوتك مـا يعنيك جننت معقلا

إذا تـم تممهـا وقـل كل يومنـا
بعيد انشقاق الفجر سبحان كمّلا

إلى مائـة بلـغ وقـل مائـة كـذا
صباحـاً ومسـاءً كل يـوم مهلـلا

وحمـدل وسـبحل ثـم هلـل ثلاثةً
وثلاثـين كـبر زدت فـرداً تحمـلا

بعيد صلاة الفجر والمغرب أقبلن
فيجلب في الأرزاق ذاك التفضلا

وبعـد صـلاة الفجر سـبعين مرةً
قل اسـتغفروا الله الذنوب مزحلا

وحولقـة كـثر على الخـير صلـين
كثـيرةً اللّٰهُمَّ اغـن مكمـلا

بسـبعين تعـداداً لأيـام جمعـةٍ
وقل أنت في كل الجديدين مكملا

ومما يزيد العمر بر ويترككم
إذا واحترام للشيوخ كذا اعملا

وسبحل ثلاثاً في مسا وصبحة
وتمم بتشكيل وفي رحم صلا

ومن رطب أشجارا فلا تقطعنه
بلا حاجةٍ فاختم صلاةً مبجلا

عليك بقرآن وأسبغ توضأ
وحافظ لأبدان تعلم ليسهلا

من الطب شيئاً إن أردت لصحة
وقد ورد الآثار في الطب من علا

ولا بد من طب ولا سيما الذي
بطب النبي قد يسمى فحصلا

اعلم أنه لابد للطالب من معرفة ما يزيد في الرزق، وما ينقصه وما يزيد في العمر وما ينقصه مما ورد به الأثر عن سيد البشر ﷺ ثم لا بد لطالب العلم من القوت ومعرفته به وما يزيد وينقص منه وما يزيد في العمر والصحة والتفرغ لطلب العلم.

قال رسول الله ﷺ : «**لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا**

البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

ثبت بهذا الحديث أن ارتكاب الذنب سبب حرمان الرزق خصوصا الكذب وقد ورد فيه حديث خاص وكذا نوم الصبيحة يمنع الرزق وكثرة النوم تورث الفقر وفقر العلم أيضا.

وأنشدوا:

ونـــوم الصبيحـــة يمنـــع رزقـــا
ونـــوم العشـــاء يـــورث الخبـــالا

آخر:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى
خبـالا ونومـات العـشي جنـون

وأما الخلق فنوم الهاجرة وأما الخرق فنوم الضحى وأما الحمق فنوم العصر.

آخر:

سرور النـاس في لبـس اللبـاس
وجمـع العلـم في تـرك النعـاس

آخر:

أليـس مـن الخـسران أن لياليـاً
تمر بلا نفع وتحسب من عمري

آخر:

قم الليل يا هذا لعلك ترشد
إلى كم تنام الليل والعمر ينفد

ومما يمنع الرزق ويورث الفقر النوم عرياناً والبول عرياناً والأكل جنباً والتهاون بما يسقط في المائدة وحرق قشور البصل والثوم وكنس البيت في الليل وترك القمامة في البيت والمشي قدام المشايخ ونداء الوالدين باسمهما والخلال بكل خشبة وغسل اليدين بالطين والتراب والجلوس على العتبة والاتكاء على أحد مصراعي الباب والتوضأ في الميزاب وخياطة الثوب على البدن وتجفيف الوجه بالكم أو الذيل وترك بيت العنكبوت في البيت والتهاون بالصلاة وإسراع الخروج من المسجد بعد صلاة الفجر والابتكار بالذهاب إلى السوق والإبطاء في الرجوع منه وشراء كسيرات الخبز من الفقراء ودعاء الشر على الوالد وترك الدعاء لهما وترك تخمير الأواني وإطفاء السراج بالنفس وكذا الكتابة بالقلم المعقود والامتشاط بمشط مكسور والتعمم قاعداً والتسرول قائماً والتقتير والإسراف والكسل والتواني والتهاون في الأمور.

ومما يجلب الرزق الصدقة، قال ﷺ: «**استنزلوا الرزق بالصدقة**»، والبكور مبارك يزيد في جميع النعم خصوصاً في الرزق وحسن الخط؛ قال علي رضي الله تعالى عنه: عليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق؛ وقال بعض الحكماء عقول الرجال في أسنة أقلامها.

وأنشدوا:

في كفه قلم ناهيك من قلم
نبلا وناهيك من كف به اتشحى

يمحو ويثبت أرزاق العباد به
فما المقادير إلا ما محى ووحى

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده
لكان بين يديه مذعنا وسحى

وكذا بسط الوجه وطيب الكلام يزيد في الحفظ والرزق وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما كنس الفناء وغسل الإناء مجلبة للغنى وأقوى الأسباب الجالبة للرزق إقامة الصلاة بالتعظيم والخشوع وتعديل الأركان وسائر واجباتها وسننها وآدابها وصلاة الضحى في ذلك معروفة وقراءة سورة الواقعة خصوصاً بالليل وقت النوم وقراءة سورة تبارك الذي بيده الملك والمزمل والليل إذا يغشى وألم نشرح لك صدرك.

وحضور المسجد قبل الأذان والمداومة على الطهارة وأداء سنة الفجر والوتر في البيت وترك كلام الدنيا بعد الوتر وترك مجالسة النساء إلا عند الحاجة وترك كلام اللغو فإن من اشتغل بما لا يعنيه يفوته ما يعنيه يقول بزرجمهر : إذا رأيت الرجل يكثر الكلام فاستيقن بجنونه.

قال علي رضي الله عنه إذا تم العقل نقص الكلام أخذه بعضهم فقال : إذا تم عقل المرء قل كلامه، وأيقن بحمق المرء إن كان مكثرا.

ومما يزيد في الرزق قول سبحان الله بحمده سبحان الله العظيم وبحمده بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة كل يوم مائة مرة، وقول لا إله إلا الله الملك الحق المبين كل يوم صباحا ومساء مائة مرة وقول الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرة كل يوم بعد صلاة الفجر وبعد صلاة المغرب أيضاً ويستغفر الله سبعين مرة بعد صلاة الفجر ويكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول يوم الجمعة سبعين مرة اللّهُمَّ أغنني بحلالك عن حرامك واكفني بفضلك عمن سواك ويكرر هذا الثناء في كل يوم وليلةٍ ويقول بعده أنت الله العزيز الحكيم أنت الله الحليم الكريم أنت الله الملك القدوس أنت الله خالق الخير والشر أنت الله خالق الجنة والنار عالم الغيب والشهادة عالم السر وأخفى أنت الله الكبير المتعال أنت الله خالق كل شيء وإليك يعود كل شيء أنت الله ديان يوم الدين لم تزل ولا تزال أنت الله لا إله إلا أنت أحدا صمدا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم أنت الله لا إله إلا أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر لا إله إلا أنت الخالق البارئ المصور لك الأسماء الحسنى يسبح لك ما في السماوات والأرض

وأنت العزيز الحكيم.

ومما يزيد في العمر البر وترك الأذى وتوقير الشيوخ وصلة الأرحام وأن يقول حين يصبح ويمسي كل يوم ثلاث مرات سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش والحمد لله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش ولا إله إلا الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش والله أكبر ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش.

وأن يحترز عن قطع الأشجار الرطبة لا سيما المثمرة إلا عند الضرورة وإسباغ الوضوء عند المكاره والصلاة بالخشوع وانتظار الصلاة بعد الصلاة وتعظيم القرآن بأن يقف عند حدوده ويحل ما أحل الله تعالى فيه وعلى لسان نبيه ﷺ ويحرم ما حرم الله تعالى فيه وعلى لسان نبيه ﷺ والقران بين الحج والعمرة وحفظ الصحبة.

وينبغي لطالب العلم أن يتعلم شيئاً من الطب ويتبرك بالآثار الواردة في الطب الذي جمعه الشيخ الإمام العلامة أبو العباس المستغفري رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بالطب النبوي أو الكتاب الذي صنفه الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالى أو الذي جمعه الشيخ الإمام العلامة أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى بملتقط الفوائد.

ومما يزيد في الرزق أشياء ذكرها الشيخ الإمام العالم الزاهد الرباني الكاشغوري رحمه الله تعالى :

الأول : تقوى الله تعالى وحسن التوكل عليه قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾؛ أي يُسهل عليه أمر الدنيا والآخرة.

وقال رسول الله ﷺ : **«يا أيها الناس اتخذوا ربكم تجارة يأتيكم الرزق بلا تجارة ولا بضاعة»**، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : **«قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال : أتقاهم؛ فقالوا ليس عن هذا نسألك قال : يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»**؛ متفق عليه.

وقال الأعمش رحمه الله تعالى: من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف تجارته؛ وقال بعض العارفين : من عامل الله تعالى بتقواه وكان في الخلوة يخشاه سقاه كأساً من لذيذ الصفاء يغنيه عن لذة دنياه؛ وقال رسول الله ﷺ : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾؛ **وأنشدوا في التقوى:**

ألا إنما التقوى هو العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والعدم

وليس على عبد تقي نقيصة
إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه:

يريد المرء أن يعطاى مناه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدي ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفادا

الثاني: الصلاة وإقامتها بالخشوع وتعديل الأركان والجماعة في الفرائض كان رسول الله ﷺ إذا أصاب أهله خصاصة قال: «**قوموا إلى الصلاة بهذا أمرنا قال الله تعالى**: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾».

وقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله تعالى يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب**»؛ وقال رسول الله ﷺ: «الصلاة مرضاة للرب وإجابة للدعاء وقبول للأعمال وبركة في الرزق وراحة للأبدان وسلاح على الأعداء».

وعنه عليه السلام أنه قال: «**خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بهن كان له عند الله عهدا**

أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة».

وقال عليه السلام : «**الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر**»، وعنه عليه السلام أنه قال : «**لا ينظر الله تعالى إلى عبد يوم القيامة لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده**»، وعنه عليه السلام أنه قال : «**من صلى الصلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرةً تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلى الصلاة لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعتني ضيعك الله حتى إذا كانت حيث شاء الله تعالى تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه**».

الثالث : كثرة الاستغفار بالليل والنهار مع الندم وترك الإصرار.

قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، وقال عليه السلام : «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب**».

الرابع : صلاة الضحى قال النبي ﷺ : «**ركعتا الضحى تجلب الرزق وتنفي الفقر**».

الخامس : المواظبة بين المغرب والعشاء بالذكر والصلاة والقراءة قال عليه السلام : «**من صلى عشر ركعات بين المغرب والعشاء بني له قصر في الجنة**»، وقال عليه السلام : «**صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي إلا المكتوبة**».

السادس : صلاة الوتر وسنة الفجر وسائر الرواتب في البيت؛ قال عليه السلام : «**من أوتر في بيته بورك له في أهله وتجارته وفي كل شيء من أمره وإذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل في بيته نصيباً من صلاته فإن الله تعالى جاعل في بيته خيراً**»؛ وقيام الليل قربة قال النبي ﷺ : «**قيام الرجل في جوف الليل يطفئ كل خطيئة**».

ومما يعين على قيام الليل سلامة القلب من الحقد والبدع وقلة الأكل والشرب وعدم إتعاب النفس بالنهار في الأعمال المشقة؛ وأن يجتنب الآثام فإنها تحول بين العبد وبين أسباب الرحمة.

السابع : الاجتهاد بالطاعة أول النهار فإن الله تعالى يقسم أرزاق العباد ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كذا ورد به الأثر.

الثامن : كثرة السخاء وحسن الإنفاق قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ وقال عليه السلام : «**الصدقة تنمي الرزق والصدقة في السر تطفئ غضب الرب والصدقة في العلانية تذهب عن صاحبها سبعين ومائة من العاهات وتكفر الخطيئة**».

التاسع : المباكرة بالصدقة وإن قلت فإنها تنمي الرزق.

العاشر : البر وصلة الأرحام والرفق وحسن الخلق للمرأة والولد والغلام والجار وبيان حقوقهم من حقوق أهل الإسلام وقال عليه السلام : «**وسع مجلسك يوسع الله عليك رزقك**»، وقال يحيي بن معاذ في سعة الأخلاق : كنوز الأرزاق ومن ساء خلقه ضاق رزقه.

الحادي عشر : المواظبة على الوضوء وتحسينه قال عليه السلام: «**لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**».

الثاني عشر : الصيام قال عليه السلام : «**الصائم لا ترد دعوته**»، وفي الصيام فوائد إجابة الدعاء ونزول البركة وللصائم فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه.

الثالث عشر : الاعتكاف في المساجد وعمارتها وصيانتها قال الله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ إلى قوله تعالى :﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾.

وقال النبي ﷺ : «**من آثر جلوسه في المسجد على جلوسه في المنزل أعطاه الله تعالى خمس خصال يسهل عليه ضيق المعيشة وضيق القبر وكتابه بيمينه وجواز الصراط كالبرق الخاطف ودخول الجنة مع الأبرار**».

الرابع عشر : كثرة الحج والعمرة لمن استطاع إليه سبيلا ولم يضيع به حقاً واجباً عليه.

الخامس عشر: تلاوة القرآن في كل حين وأوان قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾.

وقال النبي ﷺ: «**القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده**»، وقال ﷺ: «**لا فاقة لعبد يقرأ القرآن ولا غنى له بعده**»؛ والأفضل أن يقرأ الرجل القرآن على طهارة مستقبل القبلة متخشعاً في موضع نظيف غير متربع ولا متكئ وهو على حال من يرى الله تعالى ويناجيه، فإن لم يكن يرى الله تعالى فالله تعالى يراه.

ولتكن القراءة بالتدبر وتحسين الصوت بها بأي وجه كان ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط فإن زاد حرفاً أو أخفى حرفا فهو حرام وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وفي المسجد وفي الليل والنصف الأخير أفضل وقيل أجرأ الخلق على الله تعالى من قرأ كتابه وخالف خطابه وخان عباده ونسي معاده.

وقال عليه السلام: «**إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى من الضلالة فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز حريز من الشيطان ورجحان في الميزان**».

السادس عشر: كثرة الصمت وقلة الحديث فيما لا يعني قال عليه السلام: «**من صمت نجا ومن صمت استغنى**»، وقال بعض المشايخ: إذا رأيت قساوة في قلبك ووهنا في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم بأنك تكلمت

بما لا يعينك وقال عليه السلام وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم.

وأنشدوا في هذا المعنى:

لعمـرك إن صمتـك ألـف عام
لأصلح من كلامـك في الفضول
فأمسـك كي تـرى للقـول وجهـا
يبـين صوابـه لذوي العقـول

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام : جمع الحكماء حسن الأمور في ثلاثة أشياء: في الكلام والسكوت والنظر فكل كلام ليس بذكر فهو لغو وكل سكوت ليس بفكر فهو غفلة وكل نظر ليس بعبرة فهو لهو فطوبى لمن كان كلامه ذكراً وسكوته فكراً ونظره عبرا.

وقال عليه السلام : «**رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت عن شر فسلم**».

السابع عشر : التبكير في طلب الرزق قال عليه السلام : «**اللَّهُمَّ بارك لأمتي في بكورها**»، وقال عليه السلام : «**باكروا في طلب الرزق فإن الغدوة بركة ونجاح**».

الثامن عشر : النكاح قال عليه السلام : «**عليكم بالتزويج فإنه**

يجلب الرزق»، وقال عليه السلام : «**التمسوا الرزق بالنكاح**».

التاسع عشر : إكثار حمد الله تعالى وشكره قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال عليه السلام : «**لا يرزق الله العبد الشكر فيحرمه الزيادة**»، وكان الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول: ابن آدم متى تنفك من شرك النعم وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد عليك بالشكر أعظم منها فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها.

وأنشد ابن الوراق في هذا المعنى :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً
علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها

وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه نعمة
تضيق بها الأوهام والبر والبحر

العشرون : إكثار الصلاة والسلام على النبي ﷺ قال عليه السلام : «**من صلى علي مائة مرة قضى الله تعالى له مائة حاجة سبعين منها لآخرته وثلاثين لدنياه**».

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : من أراد أن يسأل الله تعالى حاجةً فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإن الله تعالى تقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما وقال عليه السلام : «**من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب**».

الحادي والعشرون : الإحسان إلى اليتيم وهو من ليس له أب قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وشكى رجل إلى النبي ﷺ قساوة قلبه فقال ﷺ : «**أتحب أن يرق قلبك وتدرك حاجتك؟**» قال: نعم، قال : «**ارحم اليتيم وامسح على رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك**».

الثاني والعشرون : التيسير على المعسرين ورحمة المخلوقين وإغاثة الملهوفين ونصر المظلومين وقال عليه السلام : «**من أحب أن تستجاب دعوته وتقضى حاجته فلييسر على المعسرين**».

الثالث والعشرون : بر الضعفاء والغرباء وإكرامهم والإلانة القول لهم قال عليه السلام : «**أكرموا الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**»، وقال عليه السلام : «**بضعفاء أمتي تنزل الرحمة في الدنيا والآخرة**».

الرابع والعشرون : طلب العلم وإكرام المشايخ والعلماء والتماس البركة في مؤاكلتهم ومجالستهم وترك الوقيعة فيهم.

الخامس والعشرون : الاجتماع والألفة والصحبة قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، وقال عليه السلام : «**إذا تواصل أهل بيت وتحابوا ذرت عليهم البركة والرزق**».

السادس والعشرون : المواظبة على الدعاء الذي من قاله أذهب الله تعالى همه وقضى حاجته ودينه، يقوله إذا أصبح وإذا أمسى اللّٰهُمَّ إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال اللّٰهُمَّ اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك.

السابع والعشرون : تسمية الله تعالى في جميع الأعمال والأحوال قال عليه السلام : «**أقسم الله تعالى بعزته وجلاله أن لا يسمى اسمه على شيء إلا شفاه وبارك له فيه**».

الثامن والعشرون : سكنى المواضع المعروفة بالبركة وتجنب ما يدعو إلى الهلكة، جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال فقال النبي ﷺ : «**دعوها ذميمةً خاليةً**».

التاسع والعشرون : إكرام الطعام ولعق الإناء والأصابع واتخاذ الخل والملح قال عليه السلام : «**أكرموا الخبز فإن الله تعالى سخر لكم بركات السماوات والأرض والحديد والبقر وابن آدم**»، وقال عليه السلام : «**ما أهان قوم طعاماً إلا ابتلاهم الله تعالى بالجوع**».

الثلاثون : التأدب بالمشورة قال عليه السلام : «**لن يهلك امرؤ بعد مشورة**»، ومن ذلك النظافة قال عليه السلام : «**غسل الإناء وطهارة الفناء يورثان الغنى**»، وكذلك نظافة البيت والثوب والبدن فإن النظافة تورث الغنى.

وكذا يجب اجتناب الأشياء التي تورث الفقر مثل سب الريح فإن الريح مبشرة بالمطر الذي هو رحمة ونعمة ورزق وهي التي تحمل الماء وتمجد في السحاب ثم تمر به فتدره كما تدر اللقحة وهي الملقحة للشجر وهي المطيعة لله تعالى وبها يستدل على القبلة.

ومنها منع الماء والملح والنار والخمير قال ابن عباس رضي الله عنهما : منع الخمير يورث الفقر ومنع الملح يورث الداء ومنع الماء يورث الندامة ومنع النار يورث الشقاق والعداوة بين الجيران، وكذا منع الإبرة فإن من أعار إبررة كان له ثواب حجة.

ومنها كثرة النوم والظلم والبغي قال الله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ومنها الزنا قال عليه السلام : «**لا تزنوا فإن الزنا يقطع الرزق ويهدم العمر ويدخل النار ويسود الوجه والصحائف**».

ومنها الربا قال الله تعالى : ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، وقال عليه السلام: «**لا بركة في مال خالطه ربا**».

ومنها الخيانة في الكيل والوزن وهي من الكبائر قال الله تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ الآية ومنها الخيانة في كل شيء.

قال عليه السلام : «**الأمانة تجر الرزق والخيانة تجر الفقر**»، وكذا مخالطة العلماء للأمراء قال عليه السلام : «**لا تزال يد الله على هذه الأمة ما لم يعظم أبرارهم فجارهم وما لم يفارق شرارهم خيارهم وما لم تمل قراؤهم إلى أمرائهم فإذا فعلوا ذلك رفع الله تعالى عنهم البركة وسلط عليهم جبابرتهم وقذف في قلوبهم الرعب وأنزل بهم الفاقة**».

ومنها الحكم بغير ما أنزل الله والحرص على الولاية والجور فإذا حكموا بغير ما أنزل الله تعالى فشا فيهم الفقر فإن صلح الحاكم وعدل زاد فضله وتضاعف أجره وإن جار وظلم ثقل حمله ووزره.

ومنها الاحتكار في الأقوات قال عليه السلام : «**الجالب مرزوق والمحتكر ملعون**».

ومنها السؤال عن ظهر غنى ويروي سؤال الناس عن ظهر غنىً يورث الصداع في الرأس وداء في البطن وقال عليه السلام : «**من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر**».

وقال عليه السلام: «**والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه**».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: مسألة الغني شين في وجهه يوم القيامة قيل ومن الغني؟ قال: من استغنى ببلاغ يوم وليلة؛ ويروى عن علي رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يسأل بعرفات فضربه بالدرة وقال: ويلك في مثل هذا اليوم تسأل غير الله تعالى.

وقال بعض العارفين: لا تسأل أحداً من الناس شيئاً أبداً فإن كان ولا بد من سؤالهم فاسألهم ما ليس في خزائن الله تعالى.

وقال الفضيل رحمه الله تعالى: أحب الناس إلى الناس من استغنى عن الناس ولا يسأل الناس شيئاً وأحب الناس إلى الله تعالى من احتاج إلى الله تعالى وسأل الله تعالى؛ وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ينادي منادٍ يوم القيامة أين بغضاء الله تعالى في أرضه فيقوم سؤال المساجد.

وقال عليه السلام: «**إن الله تعالى يبغض السائل الملحف**»، وقال عليه السلام: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ألا فاتقوا الله تعالى وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوا شيئاً من فضل الله تعالى بمعصيته فإنه لا ينال ما عند الله تعالى إلا بطاعته ألا وإن لكل امرئ رزقاً هو يأتيه لا محالة فمن رضي به**

بورك له فيه فوسعه ومن لم يرض به لم يبارك له فيه فلم يسعه إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله».

وكذا رمي القمل الحي وإحراقه بالنار وإحراقه بالنار وغسل القدم باليمين والبول في الماء الراكد وغسل الجنابة في موضع البول والنجاسة والمشي وسط الغنم والعبث باللحية وقرع الأسنان وتشبيك الأصابع وفرقعتها ووضع الكف على الأنف وقطع الظفر بالسن وكشف العورة إلى جهة الشمس والقمر واستقبال القبلة ببول أو غائط والتثاؤب في الصلاة والبزاق في موضع الخلاء وعلى الرماد ووضع اليد على الخد من غير عذر وأعظمها التهاون بما يسقط من المائدة وترك التسمية على الطعام وكثرة الكذب ولبس نعل الشمال قبل اليمين والأكل على ظهر المائدة المقلوبة والله تعالى أعلم.

فصل في مراعاة الأدب مع الكتب وما يتعلق بتصحيحها وضبطها ونسخها وحملها ووضعها والانتفاع بها.

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه بشراء أو إجارة أو عارية، لأنها آلة التحصيل ولا يجعل كثرة جمعها حظه من العلم ولا نصيبه من الفهم كما يفعله كثير من الأغبياء والجهلة لأن فيها تعطيلا لأهلها عن الاستفادة منها.

وأنشدوا :

يا من يرى العلم جمع المال والكتب
خدعت والله ليس الجد كاللعب

العلم ويحك ما في الصدر تجمعه
حفظاً وفهماً وإتقاناً فداك أبي

ما إن ينال الفتى علماً ولا أدباً
براحة النفس واللذات والطرب

لا ولا باكتساب المال يجمعه
شتان بين اكتساب العلم والذهب

إن الحياء لخير كله أبداً
ما لم يحل بين نفس المرء والطلب

وقال آخر :

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه
ولم يستفد علماً نسي ما تعلما

فكم جامع للكتب في كل مذهب
يزيد مع الأيام في جمعه عما

وإذا أمكن تحصيلها بشراء لم يشتغل بنسخها ولا ينبغي أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر عليه تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه ولا يهتم المشتغل بالمبالغة في تحسين الخط وإنما يهتم بتصحيحها وتصحيحه ولا يستعير كتاباً مع إمكان شرائه أو إجارته.

ويستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها وكره قوم إعارتها والأول أولى لما فيه من الإعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل والأجر.

قال رجل لأبي العتاهية : أعرني كتابك فقال إني أكره ذلك فقال : أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره فأعاره، وطلب الإمام الشافعي من الإمام محمد بن الحسن رحمهما الله تعالى لما كان في بدء أمره يشتغل عليه كتبه فمنعه فكتب إليه :

يا ذا الذي لم ترعين من رآه مثله
العلم يأبى أهله أن يمنعوه أهله

فبعث له كتبه فنقلها واستفاد منها وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة بل يرده إذا قضى حاجته ولا يحبسه إذا طلبه المالك واستغنى عنه.

ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه ولا يحشيه ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه أو خواتمه إلا إذا علم رضى صاحبه وقيل يجوز له أن

يصححه بغير إذن صاحبه دون أن يحشيه بغير إذنه وهو كما يكتب المحدث على جزء سمعه أو كتبه ولا يسوده ولا يعيره غيره ولا يودعه لغير ضرورة حيث يجوز شرعاً ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه.

فإن كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط وإصلاحه ممن هو أهل لذلك وحسن أن يستأذن الناظر فيه وإذا نسخ منه بإذن صاحبه أو ناظره فلا يكتب منه والقرطاس في بطنه أو على كتابته ولا يضع المحبرة عليه.

وقال الشيخ الإمام المعروف بقاضي خان : إن لم يرد بذلك الاستخفاف فلا بأس به والأولى أن لا يفعل ومن تعظيم العلم أن لا يمد رجله إلى كتاب ولا يمر بالقلم الممدود فوق كتابته وإذا نسخ من كتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي الكتب المعروف لئلا يسرع تقطيع حبكه.

وإذا وضعها في مكان مصفوفة فلتكن على كرسي أو خشبة ويجعل بينها وبين الأرض خلوا وكذا بينها وبين ما يصادفها أو يسندها من حائط أو غيره لئلا تتندى أو تبلى وإذا وضعها على خشب أو نحوه جعل فوقها وتحتها ما يمنع ما يأكل جلودها.

ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علوها وشرفها وجلالة مصنفها فيضع الأشرف أعلى الكل ثم يراعي التدريج فإن كان فيها مصحف كريم

جعله أعلى الكل والأولى أن يكون في خريطة ويعلق في صدر المجلس أو قبلته ثم كتب الحديث الصرف كصحيحي البخاري ومسلم ثم تفسير القرآن ثم تفسير الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم النحو والتصريف ثم أشعار العرب ثم العروض.

فإن استوى كتابان في فن جعل الأعلى أكثرهما قرآناً أو حديثاً فإن استويا فبجلالة المصنف فإن استويا فأقدمهما كتابة وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين فإن استويا فأصحهما وينبغي أن يكتب اسم الكتاب عليه في جانب آخر الصفحات من أسفل ويجعل رؤوس حروف الترجمة إلى الحاشية التي من جانب البسملة وفائدتها معرفة الكتاب وتيسر إخراجه من بين الكتب.

ولا يضع ذوات القطع الكبير فوق ذوات القطع الصغير لئلا يكثر تساقطها ولا يجعل الكتاب خزانة الكراريس أو غيرها ولا مخدة ولا مروحة ولا مكبساً ولا مسنداً ولا متكأ ولا مقتلة للبق والقمل وغيرهما لا سيما على الورق ولا يطوي حاشية الورق أو زاويتها ولا يعلم بعود أو شيء جاف بل بورقة ونحوها.

وإذا علم بظفره فلا يكبسه قوياً وإذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتعهده عند إرادة أخذه ورده وإذا اشترى كتاباً تعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه وتصفح أوراقه واعتبر صحته.

ومما يغلب على الظن صحته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فاشهد له بالصحة وقال بعضهم: لا يضيء الكتاب حتى يظلم يريد إصلاحه بحواشيه، وإذا نسخ شيئاً من العلوم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة مستقبل القبلة طاهر البدن والثياب بحبر طاهر وورق طاهر.

ويحكى عن شمس الأئمة الحلواني أنه قال: ما نلت هذا العلم إلا بتعظيم الكتب فإني ما أخذت ورقة قط إلا وأنا على طهارة؛ وكان الشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي في ليلة من الليالي ينسخ وكان مبطوناً فكان كلما قام يتوضأ حتى توضأ في تلك الليلة سبع عشرة مرة وهذا لأن العلم نور والوضوء نور فيزداد نور العلم به ويحصل له التأثير.

ويبتدئ كل كتاب يكتبه ببسم الله الرحمن الرحيم، فإن كان الكتاب مبدوءاً فيه بخطبة تتضمن حمد الله تعالى والصلاة على رسوله ﷺ كتبها بعد البسملة لانعقاد الإجماع على تقديم البسملة على الحمدلة والتثليث بالصلاة على النبي ﷺ.

ثم يكتب ما يريد وهكذا يفعل في ختم الكتاب أو آخر كل جزء منه بعد ما يكتب هذا آخر الجزء الأول أو الثاني مثلاً ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن كمل الكتاب ويكتب إذا كمل تم الكتاب الفلاني فإن في ذلك فوائد كثيرة وكلما كتب اسم الله تعالى أتبعه بالتعظيم مثل تعالى أو سبحانه

أو عز وجل أو تقدس ونحو ذلك وكلما كتب اسم النبي ﷺ كتب بعده ﷺ لقصد موافقة الأمر في قوله تعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

ولا يختصر الصلاة في الكتابة ولو وقعت في السطر مراراً كما يفعله بعض الجهلة فيكتب صلعم أو صلم أو صلسم وكل ذلك غير لائق بحق النبي ﷺ، وقد ورد في كتابة الصلاة بكمالها وترك اختصارها آثار كثيرة وإذا مر بذكر صحابي لا سيما الأكابر منهم كتب رضي الله عنه.

ولا يكتب الصلاة والسلام لأحد غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإذا مر بذكر أحد من السلف فعل ذلك أو كتب رحمه الله ولا سيما الأئمة الأعلام وهداة الإسلام وينبغي أن يجتنب الكتابة الدقيقة في النسخ فإن الخط علامة فأبينه أحسنه.

وكان بعض السلف إذا رأى خطاً دقيقاً قال : هذا خط من لا يوقن بالخلف من الله تعالى وقال بعضهم اكتب ما ينفعك وقت حاجتك إليه ولا تكتب ما لا تنتفع به وقت الحاجة والمراد وقت الكبر وضعف البصر وقد يقصد بعض السفارة بالكتابة الدقيقة خفة المحمل وهذا وإن كان قصداً صحيحاً إلا أن المصلحة الفائتة به في آخر الأمر أعظم من المصلحة الحاصلة بخفة المحمل.

وقال الشيخ الإمام قاضي خان : ينبغي أن يجود كتابه ولا يقرمطه ويترك الحاشية إلا عند الضرورة، ورأى الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى

كاتباً يقرمط في الكتابة فقال له : إن عشت تندم وإن مت تشتم يعني إذا شخت وضعف بصرك ندمت على ذلك.

وقال مجد الدين السرخسي : ما قرمطنا ندمنا وما انتخبنا ندمنا وما لم نقابل ندمنا وينبغي أن يكون تقطيع الكتاب مربعاً لأنه تقطيع الإمام أبي حنيفة رحمه الله وهو أيسر للرفع والوضع وينبغي أن يجرد الكتاب عن الحمرة فإنه صنيع الفلاسفة لا صنيع السلف ومشايخنا كرهوا استعمال المركب الأحمر والكتابة بالحبر أولى من الكتابة بالمداد لأنه أثبت ولا يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجري ولا رخوا جدا فيسرع إليه الحفا.

قال بعضهم : إذا أردت أن تجود خطك فأطل جلفتك وأسمنها وحرف قطتك وأيمنها ولتكن السكين حادة جداً للبري والكشط خاصة لا تستعمل في غير ذلك؛ وليكن ما يقط عليه القلم صلباً جداً ولذلك يحمد القصب الفارسي اليابس جداً والآبنوس الصلب الصقيل.

وينبغي أن يصحح الكتابة بالمقابلة على أصل صحيح أو شيخ وأن يشكل المشكل ويعجم المعجم ويضبط الملتبس ويتفقد مواضع التصحيف وإذا احتاج ضبط ما في متن الكتاب إلى ضبطه في الحاشية وبيانه فعل وكتب عليه بياناً؛ وكذا إن احتاج إلى ضبطه مبسوطاً في الحاشية وبيان تفصيله مثل أن يكون في الكتاب اسم حريز فيقول في حاشيته هو بالحاء المهملة وراء بعدها وبالياء الخاتمة بعدها زاي أو هو بالجيم والياء الخاتمة

بين رائين مهملتين وشبه ذلك.

وقد جرت العادة في الكتابة بضبط الحروف المعجمة بالنقط وأما المهملة فمنهم من يجعل الإهمال علامة ومنهم من ضبطه بعلامة تدل عليه من نقط أو حكاية شكل أو شكلة صغيرة كالهلال وغير ذلك وينبغي أن يكتب على ما صحح وهو في محل شك لفظة صح صغيرة وعلى ما وقع خطأ كذا ويكتب في الحاشية صوابه كذا إن كان يتحققه وإلا ضبب عليه ضبة وهي صورة رأس ص تكتب فوق الكتابة غير متصلة بها فإذا تحققه بعد ذلك وكان المكتوب صواباً زاد تلك الصاد حاء لتصير صح وإلا كتب الصواب في الحاشية كما تقدم.

وإذا وقع في النسخة زيادة فإن كانت كلمة واحدة فله أن يكتب عليها "لا" وأن يضرب عليها وإن كانت الزيادة أكثر من كلمة فإن شاء كتب فوق أولها لفظة "من" أو "لا"، وعلى آخرها لفظة "إلى" ومعناه من هنا ساقط إلى هنا وإن شاء ضرب على الجميع بأن يخط عليه خطاً دقيقاً يحصل به المقصود ومنهم من يجعل مكان الخط نقطاً متتالية.

وإذا تكررت الكلمة سهواً من الكاتب ضرب على الثانية لوقوعها صواباً في موضعها إلا إذا كانت الأولى آخر سطر فإن الضرب عليها أولى صيانة لأول السطر إلا إذا كانت مضافاً إليها فالضرب على الثانية أولى لاتصال الأولى بالمضاف وإذا أراد تخريج شيء في الحاشية ويسمى اللحق بفتح الحاء

المهملة علم له في موضعه بخط منعطف قليلاً إلى جهة التخريج وجهة اليمين أولى إن أمكن ثم يكتب التخريج من محاذاة العلامة صاعداً إلى أعلى الورقة صاعدا لا تازلاً إلى أسفلها لاحتمال تخريج آخر بعده.

ويجعل رؤوس الحروف إلى جهة اليمين سواء كان في جهة يمين الكتابة أو يسارها وكذا يجعل أول التخريج أو الساقط إلى جهة اليمين سواء كان في جهة يمين الكتابة أو يسارها ويكتب في آخر التخريج أو الساقط لفظة صح وبعضهم يكتب بعد صح الكلمة التي تلي التخريج علامة على اتصال الكلام.

ولا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة على حواشي كتاب يملكه ولا يكتب في آخره صح فرقاً بينه وبين التخريج وبعضهم يكتب عليها لفظة حاشية أو فائدة وبعضهم يكتبها في الآخر وبعضهم يكتب في آخرها دارة.

ولا ينبغي تكثير الحواشي لئلا يظلم الكتاب أو تضيع مواضعها على الطالب ولا تنبغي الكتابة بين الأسطر وقد فعله بعضهم بين الأسطر المتفرقة بالحمرة وغيرها وترك ذلك أولى مطلقاً ولا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول بما يسرع إظهاره للكشف والمطالعة فإنه أظهر في البيان ولا بأس بالرمز على أسماء أو مذاهب أو أقوال أو طرق أو أنواع أو لغات أو أعداد ونحو ذلك.

ومتى فعل ذلك بين اصطلاحه في فاتحة الكتاب ليفهم الخائض فيه معانيها وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم خلافاً لقول أصحابنا على ما قدمناه لقصد الاختصار فإن لم يكن ما ذكرناه من الأبواب والفصول والتراجم بالحمرة أتى بما يميز ذلك من تغليظ القلم وطول المشق ونحو ذلك ليسهل الوقوف عليه عند قصده.

وينبغي أن يفصل بين كل كلامين بدارة أو ترجمة أو قلم غليظ ولا يوصل الكتابة كلها على طريقة واحدة لما فيه من عسر استخراج المقصود وتضييع الزمان ولا يفعله إلا غبي، واختلف العلماء هل الضرب أولى أم الحك فذهب الأكثر إلى أن الضرب أولى من الحك لا سيما في كتب الحديث لأن فيه تهمة وجهالة وتضييع زمان وفعله أخطر وربما ثقب الورقة فإن كان إزالة نقطة أو شكلة ونحو ذلك فالحك أولى.

وإذا صحح الكتاب على شيخ أو في المقابلة علّم على موضع وقوفه لفظة بلغ أو بلغت أو بلغ الغرض أو غير ذلك مما يفيد معناه فإن كان ذلك في سماع الحديث كتب بلغ في الميعاد الأول أو الثاني إلى آخرها إذ لا بد من التعيين.

وإذا أصلح شيئاً نثر عليه بعض نجارة الساج أو غيره من الخشب ويتقي التتريب ويقول عند رفع الكتاب بسم الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد كل

حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين ويقول بعدد كل مكتوبة آمنت بالله الواحد الأحد الحق وحده لا شريك له وكفرت بما سواه.

وقال بعضهم في مدح الكتب:

لنا جلساء ما يمل حديثهم
ألباء مأمونون غيباً ومشهدا

يفيدننا من علمهم علم ما مضى
وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا

فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة
ولا تتقي منهم لساناً ولا يدا

فإن قلت أموات فما أنت كاذب
وإن قلت أحياء فلست مفندا

- **فصل في آداب سكنى المدارس للمنتهي والطالب لأنها مساكنهم في الغالب**

اعلم أنه ينبغي للطالب أن ينتخب لنفسه من المدارس بقدر الإمكان ما كان وافقه أقرب إلى الورع وأبعد عن البدع بحيث يغلب على ظنه أن المدرسة ووقفها من جهة حلال لأن الحاجة إلى الاحتياط في المسكن كالحاجة إليه في المأكل والمشرب والملبس وغيره ومهما أمكن التنزه عما

أنشأه الملوك الذين لم يعلم حالهم في بنائها ووقفها كان أولى.

وأما من علم حاله فالإنسان على بصيرة من أمره؛ وينبغي أن يكون المدرس بها ذا رئاسة وفضل وديانة وعقل ومهابة وجلالة و وعدالة ومحبة للفضلاء وعطف على الضعفاء يقرب المخلصين ويرغب المشتغلين وينصف الباحثين حريصاً على النفع والإفادة وقد تقدم سائر آدابه.

وينبغي للمدرس الساكن بالمدرسة أن لا يكثر البروز والخروج من غير حاجة فإن كثرة ذلك يسقط حرمته من العيون ويواظب على الصلاة في الجماعة بها ليقتدي به أهلها ويتعودوا ذلك وينبغي أن يجلس كل يوم في وقت معين ليقابل مع الجماعة الذين يطالعون دروسه من كتبهم ويصححونها ويضبطون مشكلها ولغاتها واختلاف النسخ في بعض المواضع وأولاها بالصحة ليكونوا في مطالعتها على يقين فلا يضيع فكره ويتعب بالشك فيها سره.

وينبغي أن يكون المعيد من الفضلاء الصلحاء صبورا على أخلاق الطلبة حريصا على نفعهم، ويقدم اشتغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط إن كان يتناول معلوم الإعادة لأنه متعين عليه ما دام معيداً وإشغال غيرهم نفل أو فرض كفاية، ويعيد لهم ما توقف عليه فهمهم من دروس المدرس ولهذا سمي معيدا.

وينبغي له أن يعلم المدرس أو الناظر من يرجى فلاحه ليزاد في إكرامه وأن يطالب الطلبة بعرض محفوظاتهم إن لم يعين لذلك غيره وإذا شرط الواقف استعراض المحفوظ كل شهر أو كل فصل على الجميع خفف قدر العرض على من له أهلية البحث والفكر والمطالعة والمناظرة لأن الجمود على نفس المسطور مشوش ومشغل للفكر الذي هو آلة التحصيل.

وأما المبتدئون والمنتهون فيطالب كل منهم بما يليق بحاله وذهنه، وإذا حصر الواقف سكنى المدرسة على معينين لم يسكنها غيرهم وإن لم يحصرها فلا بأس إذا كان الساكن أهلا وإذا سكن المدرسة غير مرتب بها فليكرم أهلها وليقدمهم على نفسه فيما يحتاجون إليه منها وليحضر درسها لأنه أعظم الشعائر المقصودة ببنيانها ووقفها لما فيه من الثواب والدعاء للواقف والاجتماع على مجلس الذكر وتذاكر العلم فإن ترك ذلك فقد خالف مقصود الواقف ظاهراً فإن لم يحضر وغاب عنها وقت الدرس من غير عذر فقد أساء الأدب على الجماعة وترفع عليهم واستغنى عن فوائدهم واستهتر بجماعتهم.

وإن حضر فيها فلا يخرج في حال اجتماعهم من بيته إلا لضرورة ولا يتردد إليه مع حضورهم أحد ولا يدعو إليه أحداً ولا يمشي في المدرسة أو يرفع صوته بقراءة أو تكرار أو بحث أو مذاكرة رفعاً منكراً أو يغلق بابه ولا يفتحه بصوت مزعج ونحو ذلك لما في ذلك كله من إساءة الأدب على

الحاضرين والحمق عليهم.

وينبغي للطالب أن لا يشتغل فيها بالعشرة لأنها تفسد الحال وتضيع المال كما تقدم واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضي وطره منه ثم يرتحل عنه فمن صاحب من يعينه على تحصيل مقاصده ويساعده على تكميل فوائده وينشطه على زيادة الطلب ويخفض عنه ما يجده من الضجر والنصب ممن يوثق به بدينه وأمانته ومكارم أخلاقه في مصاحبته فلا بأس بذلك بل هو حسن إذا كان ناصحاً له في الله غير لاعب ولا لاه.

ولتكن له أنفة عن عدم ظهور الفضيلة مع طول المقام في المدارس ومصاحبة الفضلاء وتكرار سماع الدروس وليطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد، فإن أفضل الأيام على العاقل يوم يزداد فيه علما ويكسب عدوه كربا وغما.

واعلم أن المدارس لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانك بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل في أوطان الأهل والأقارب.

وينبغي للطالب إذا سكن مدرسة أن يكرم أهلها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام ويرعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة في الدين والخرقة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه ويتغافل عن تقصيرهم ويغفر زللهم ويستر عوراتهم ويشكر لمحسنهم ويتجاوز عن مسيئهم فإن لم يستقر

خاطره لسوء خبرتهم وخبث صفاتهم أو لغير ذلك فليرتحل عنها ساعياً في جمع قلبه واستقرار خاطره وإذا اجتمع قلبه فلا ينتقل من غير حاجة فإن ذلك مكروه للمبتدئ جداً وأشد منه كراهة تنقلهم من كتاب إلى كتاب فإنه علامة الضجر واللعب وعدم الفلاح.

وأن يختار لجواره إن أمكن أصلحهم حالاً وأكثرهم اشتغالاً وأجودهم طبعاً وأعمهم نفعا وأصونهم عرضاً وأكثرهم لربه إرضاء ليكون معيناً له على ما هو بصدده ومن الأمثال : الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق.

واعلم أن المساكن العالية في المدرسة لمن لا يضعف عن الصعود إليها أولى للمشتغل وأجمع للخاطر إذا كان له جيران صالحين، وأما الضعيف والمتهم ومن يقصد للفتي والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى به والمراقي التي تقرب من الباب أو الدهليز أولى بالموثوق بهم والمراقي الداخلة التي يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمقيمين.

والأولى أن لا يسكن المدرسة وسيم الوجه أو صبي ليس له فيها ولي فطن وأن لا يسكنها نساء في أمكنة الرجال على أبوابها أو لها كوى تشرف على ساحة المدرسة.

وينبغي للفقيه أن لا يدخل إلى بيته من فيه ريبة أو شر أو قلة دين ولا يدخل هو إلى بيت من فيه ريبة أو قلة دين ولا يدخل إليه من يكرهه أهلها ولا من ينقل سيئات سكانها أو ينم عليهم أو يوقع بينهم أو يشغلهم

عن تحصيلهم ولا يعاشر فيها غير أهلها.

وإذا كان سكنه في مسجد المدرسة أو في مكان الاجتماع ومرقده على حصره وفرشه فليتحفظ عند صعوده إليه من سقوط شيء من نعليه ولا يقابل بأسفلهما القبلة ولا وجوه الناس ولا ثيابه بل يجعل أسفل أحدها إلى أسفل الأخرى بعد نفضهما ولا يلقيهما إلى الأرض بعنف ولا يتركهما في مظنة مجالس الناس والواردين إليها غالباً كطرفي الصفة بل في أسفل الوسط ونحوه ولا يضعهما تحت الحصير في المسجد لئلا تنكسر.

وإذا سكن في البيوت العليا خفف المشي والاستلقاء عليها ووضع ما يثقل أسفل كيلا يؤذي من تحته وإذا اجتمع اثنان من سكان العلو وغيرهما في المراقي نزل أصغرهما وتأخر أكبرهما إلى أن ينتهي الصغير إلى أسفل المراقي، وإذا اجتمعا في أسفل المراقي للطلوع تأخر أصغرهما ليصعد أكبرهما قبله.

وينبغي أن لا يتخذ باب المدرسة مجلساً إلا لحاجة ولا الدهليز المهتوك إلى الطريق فإنه قد نهي عن الجلوس على الطرقات وهذا منها أو في معناها لا سيما إن كان ممن يستحيي منه أو ممن هو في محل تهمة أو لعب ولأن في ذلك بطالة وتبدلا وربما دخل أحد بطعامه أو حاجته فاستحيي من الجالس أو تكلف بسلامه عليه ومظنته دخول نساء ممن يتعلق بالمدرسة فيشق عليها جلوسه.

ولا يكثر التمشي في ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة إلى راحة أو رياضة أو انتظار أحد ويقلل الخروج والدخول ما أمكنه ويسلم على من بالباب إذا مر به ولا يسلم على من لم يكن مسلماً أو من يستخف به من العامة إلا لضرورة لما فيه من التبذل ولا يطرق بابا إن كان مردوداً طرقاً مزعجا بل طرقا خفيفاً ثلاثاً، فإن أذن له فتحه بتأن.

ولا يستجمر بالحائط ولا يمسح يده المتنجسة بها لئلا تتنجس ولا ينظر إلى بيت أحد في مروره من شقوق بابه ولا يلتفت إليه إذا كان مفتوحاً بل يسلم ماراً من غير التفات ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات لا سيما إذا كان فيها نساء ولا يرفع صوته جداً في تكرار أو نداء أحد أو بحث ولا يشوش على غيره بل يخفضه ما أمكنه مطلقاً لا سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس.

ويتحفظ من شدة وقع القبقاب والعنف في إغلاق الباب وإزعاج المشي في خروج ودخول وصعود ونزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج إليها ونداء من بأعلاها من أسفلها إلا أن يكون بصوت معتدل عند الحاجة وإذا كانت المدرسة مكشوفة إلى الطريق السالك من باب أو شباك تحفظ فيها من التجرد عن الثياب وكشف الرأس الطويل من غير حاجة.

ويجتنب ما يعاب كالأكل ماشياً والهزل غالباً والبسط بالفضل وفرط التمطيط والتمايل على الجنب والقفا وكثرة الضحك الفاحش ولا يكثر

الصعود إلى السطح المشرف من غير حاجة ولا ضرورة ولا يتقدم على المدرس في حضور موضع الدرس ولا يتأخر بعد جلوس المدرس إلا بعد الجماعة لئلا يكلفهم إلى المعتاد من قيام ورد سلام وربما كان فيهم معذور فيجد في نفسه منه ولا يعرف عذره.

وقد قال بعض السلف : من الأدب مع المدرس أن ينتظره الفقهاء ولا ينتظرهم؛ وينبغي أن يتأدب الطالب في حضور الدرس بأن يحضره على أحسن هيئة وأكمل طهارة ويحسن جلوسه واستماعه وإيراده وجوابه وكلامه وخطابه.

وكان بعضهم يقطع من حضر من الفقهاء مخففا بغير عمامة أو مفكك الأزرار، وإذا دعا المدرس في أول الدرس للحاضرين على العادة أجابه الحاضرون بالدعاء له أيضاً، وكان بعض أكابر مشايخي الزهاد الأعلام يغلظ على تارك ذلك ويزبره، ويتحفظ من النوم والنعاس والحديث ولا يتكلم بين درسين ختم المدرس أولهما بقوله والله تعالى أعلم إلا بإذن منه.

ولا يتكلم في مسألة أخذ المدرس الكلام في غيرها ولا يتكلم بشيء حتى ينظر فيه زيادة فائدة أو موضعاً وليحذر المماراة في البحث والمغالطة فيه فإن ثارت نفسه ألجمها بلجام الصمت والصبر والانقياد لقوله ﷺ : «من ترك المراء وهو محق بنى الله تعالى له بيتاً في أعلى الجنة»، فإن ذلك أقطع لانتشار الغضب وأبعد عن منافرة القلوب.

وليجتهد كل من الحاضرين على طهارة القلب لصاحبه وخلوه عن الحقد وأن لا يقوم وفي نفسه منه شيء وإذا قام من الدرس فليقل ما جاء في الحديث : سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لي ذنبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

تم الكتاب بحمد الله تعالى وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين[1].

(1) - في خاتمة (ص) ما نصه : تم كتاب الآداب بعون من له المرجع والمآب وكان الفراغ من كتابته عشية الجمعة لسبع ليالٍ بقين من شعبان المكرم أحد شهور سنة سبعة وعشرين وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم على يد جامعه العُبيد الفقير إلى الله الغني يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي الحنفي غفر الله له ولوالديه ولمن نظر فيه ودعا له بالمغفرة ولجميع المسلمين آمين يا رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

- أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت807هـ)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**؛ تحقيق حسام الدين القدسي؛ مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 – 1994.

- أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى التميمي الموصلي (ت 307هـ)، **المسند**؛ ، تحقيق حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة الأولى، 1404 – 1984.

- إسماعيل باشا البغدادي؛ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**؛ طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول، 1951، تصوير مؤسسة التاريخ العربي - دار إحياء التراث العربي بيروت.

- بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العينى (ت855هـ)؛ **عمدة القاري**

شرح صحيح البخاري؛ عنيت بنشره وتصحيحه إدارة الطباعة المنيرية، لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا الدمشقي، طبعة مصورة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- التنبكتي؛ أبو العباس أحمد بابا بن أحمد التنبكتي (ت 1036هـ)، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، الطبعة الأولى 1989م.
- د. كاريل؛ **الإنسان ذلك المجهول، مع نظرات ودروس** بقلم بولس سويد المخلصي، لبنان، 1940م.
- عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت911هـ)؛ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان – صيدا.
- عبد المنعم محمد خلاف؛ **أومن بالإنسان**، مكتبة النهضة المصرية، 1945م.
- لويس إسكندر؛ **الإنسان والبيئة**، مطبوعات مكتبة النهضة المصرية، 1936م.
- محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** ، دار مكتبة الحياة – بيروت.

- محمود تيمور؛ **النبي الإنسان ومقالات أخر**، المطبعة النموذجية، مصر.
- مصطفى بن عبد الله، الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي؛ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**؛ تاريخ النشر: 1941، تصوير: مؤسسة التاريخ العربي - دار إحياء التراث العربي بيروت.

فهرس الموضوعات

تمهيد عام 5
مقدمة 7
أولا : في التعريف بيوسف بن إبراهيم الوانوغي.......................................11
ثانيا : في التعريف بكتاب الدر الفاخر...17
ثالثا : في الأحوال النفسية للعالم والمتعلم من خلال الكتاب 21
رابعا : في بيان منهج ضبط النص 31
النص المرقوم 37
فصل نذكر فيه نبذاً من فضائل العلم وأهله 67
فصل في مستحسنات حكاية بعض الشعراء 101
فصل في ذكر نبذ من فضائل الأئمة الأعلام وفقهاء الإسلام............................105
لائحة المصادر والمراجع 453
فهرس الموضوعات.. 455

ملخص الكتاب

كتاب "الدر الفاخر في شرح عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم" لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المغربي الوانوغي؛ هو شرح لمنظومة لامية بعنوان (عقود الجواهر ومرشد السامع والمتكلم إلى أدب العالم والمتعلم) لأبي المحاسن حسام الدين الرهاوي. والكتاب يجمع بين عدة أفكار لعلماء وفقهاء من مختلف العصور، ويقدم أبعاداً إنسانية لعلوم التربية والتعليم، بتناول موضوعات تعالج علوم الأنفس لكونها فرعاً من علوم الإسلام، وشرطا في فهمها، لا سيما ما يتعلق بالعلوم التربوية والتعليمية في تراث الفقهاء.

ISBN 978-9948-770-091
9 789948 770091

mbzuh MBZ university for humanities mbzuh.ac.ae